منشورات جامعة حلب
معهد التراث العلمي العربي



فن الحرب البحرية

في التاريخ العربي الاسلامي

الباحث الأستاذ

وفيق بركات

١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

«اللَّهُ الَّذِيْ سَخَّرَ لَكَم الْبَحْرَ لَتجِرِيَ الْفُلْكُ فِيْه بِأَمْرِهِ. . . . »

«آية ١٢ الجاثية»

تنويه

تجدر الإشارة إلى أنني قمت بعرض مواضيع هذا البحث في جامعة الإسكندرية كلية الآداب على العالِمين الفاضلين :

الأستاذ الدكتور : سيد عبد العزيز سالم .

الأستاذ الدكتور: أحمد مختار العبادي .

أستـاذي التـاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية في جامعتي الإسكندرية وبيروت العربية خلال شهر آب (أغسطس) ١٩٩٣ وقد أبديااهتماماً كبيراً بالموضوع إنني أقدم لهما جزيل شكري وتقديري على التشجيع الذي لقيته منهما، والأوقات الثمينة التي خصصاها لي والتفضل بالإجابة على الأسئلة والاستفسارات التي طرحتها أمامهما، والمراجع الهامة التي قدماها لي ، والمخطوطات التي أطلعاني عليها في مكتبة الجامعة .

وقد شكلت مؤلفاتهما القيمة مراجع أساسية في إنجاز هذا البحث.

وفيق بركات

مقدمة

إن البحث في الأمجاد البحرية لأمتنا العربية وفن الحرب البحرية في تاريخنا العربي الإسلامي هو وقفة مع الذات كي نمعن التفكير في أسباب قوتنا يوم عبرت أساطيلنا البحار والمحيطات لتنشر الحق والعدل والحضارة والنور وترفع في ربوع أوروبا وآسيا وأفريقيا ألوية أمتنا الظافرة، لعلنا نستمد من تاريخنا وأصالتنا ما يبعث الحياة في حاضرنا فتستأنف الأمة العربية مسيرتها وتعود إلى دورها الحضاري الرائد، وتخفق من جديد أعلام أساطيلنا العربية لتعيد المجد التليد.

إن كتب التاريخ حافلة بسرد تاريخ الأسطول العربي ونشوئه وتطوره ووصف معاركه وغزواته لكن مسألة فن الحرب البحرية في التاريخ العربي الإسلامي كموضوع مستقل متكامل مترابط لم تعالج على الإطلاق في أي مرجع من المراجع العربية أو الأجنبية، من وجهة نظر فن الحرب، لذا ارتأينا تقديم بحث مكثف يتناول هذا الموضوع بالذات لإبراز صفحات مشرقة من تاريخنا البحري العربي الإسلامي.

ونظراً لأن نشاط الأساطيل العربية قد تركز بصورة أساسية في البحر الأبيض المتوسط، لكونه مسرح الصراع الأساسي بين الروم البيزنطيين والعرب وبصورة جزئية في البحر الأحمر، لذا فإن البحث قد عالج مسائل الحرب البحرية في هذين البحرين(*) في الفترة الممتدة من عصر الخلفاء الراشدين وحتى نهاية الدولة العربية الإسلامية في الأندلس (١٤٩٢ م).

هذا وتجدر الإشارة إلى أن بحثنا هذا ليس سرداً تاريخياً للأحداث، إلا بالقدر الذي يتطلبه البحث، لذا ابتعدنا، قدر الإمكان، عن التفاصيل التي لا تخدم جوهر الموضوع الأساسي، لكي يبقى بحثاً مستقلاً جديداً مفيداً للباحثين في هذا المجال والمهتمين بالتاريخ العربي الإسلامي بصورة عامة وفن الحرب فيه بصورة خاصة.

فلنسكب حصيلة خبرات تراثنا في قنوات حاضرنا ومستقبلنا ولنشهر أسلحتنا الحاسمة من أغماد تاريخنا العريق وفي طليعتها:

★ كان النشاط البحري الحربي الإسلامي في المحيط الأطلسي مقصوراً بصورة رئيسية على قاعدة إشبيلية لحماية السواحل الغربية المطلة على المحيط من غزوات النورمان، لكن ذلك النشاط كان مرتبطاً بالإستراتيجية البحرية الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط.

أصالـةُ وخبـراتُ الـتُّراث الـعربـيّ . .
قـوةُ الـوحـدة الـعربـيـة . . . .
عقيدةُ الجـــهـــاد . . . .

كي نلحق بركب التطور والتقدم منطلقين من مدخر حضاري مجيد.

لعب الأسطول البحري دوراً بارزاً في تاريخ العرب والمسلمين وكان أداتهم الرئيسية في نشر حضارتهم ورسالتهم إلى العالم أجمع، ويشهد التاريخ العالمي على أن العرب برعوا في قيادة سفن البحر كما برعوا في قيادة سفن الصحراء وأتقنوا فن الحرب البحرية والتجارة البحرية وساهموا في اكتشاف البلاد المجهولة وظهر منهم القادة والبحارة والملاحون المهرة ، ومازالت أقدام العرب راسخة في رقعة شاسعة تضم شواطىء الشام ومصر وشمال أفريقيا والخليج العـربي وشواطىء البحر الأحمر بفضل الفتوحات البحرية العربية الاسلامية. وقد هزمت أساطيلهم بحرية الروم وطردتهم من البحر الأبيض المتوسط الذي كان يسمى باسمهم «بحر الروم»، وأصبح بفضل الأساطيل البحرية العربية «بحراً عربياً»، وبقي المجد العربي قائماً في تلك المناطق حتى يومنا هذا ويعزى سر هذا الخلود إلى أن العرب قد خاضوا البحر وفق خطواتٍ منـظمـةٍ ومدروسة بعيدة عن الإرتجال، معتمدين على شبكة واسعة من القواعد البحرية ودورالصناعة، وعلى طبقة ممتازة من الرجال البحريين الذين قادوا تلك الأساطيل ببراعة ومهارة.

وجدير بالذكر أن الدولة العربية الاسلامية إلى جانب الإستفادة من الخبرات البحرية للأمم الاخرى مثل البيزنطيين والفرس، قد بلغت أوج عزتها ومنعتها في أقل من قرنين من الزمان عقب ظهور الإسلام وهو زمن قصير نسبياً تغلبت فيه على دول ذات تاريخ وحضارة، وامتد ملك العرب خلاله من أطراف الصين شرقاً إلى مشارف المحيط الأطلسي غرباً وطرقت أساطيلهم أبواب إيطاليا وفرنسا.

إن مرد ذلك بصورة رئيسية يعود إلى تمسك العرب بوحدتهم وقيمهم وحين دبّت الفرقة بين العرب تقطع ملكهم إلى دويلات وأصبحوا لقمةً سائغة لأعدائهم.

ويعتبر القرن السابع الميلادي نقطة تحول كبرى في تاريخ العرب السياسي والحضاري ، إذ خرجوا في ذلك القرن من موطنهم الأصلي في شبه الجزيرة العربية حاملين الحضارة

والفكر والنور إلى جيرانهم من الأمم الأخرى، وأظهروا وعياً بحرياً ناضجاً في وقت مبكر من تاريخهم السياسي واستفادوا من تجارب الآخرين وخبراتهم وكونوا الأساطيل وعقدوا لها الألوية وعبروا بها البحار الى القسطنطينية والأندلـس وخليج عدن وبحر عمان والمحيط الهندي.

وقـد شجـع القرآن الكريم العرب على خوض البحر في آيات كثيرة تتصل بالبحر والفلك والملاحة ومنها ما يتصل بالصيد واستخراج اللؤلؤ والمرجان ونقل التجارة والركاب نذكر منها:

« وهو الذي سخَّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون» . . . سورة ١٦ آية ١٤ (النحل).

« وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون». سورة ٦ آية ٩٧ «الأنعام»

هذا وتجدر الإشارة أن الجزيرة العربية موطن العرب الأصلي تقارب وتشرف على ثلاثة بحار:

- البحر الأبيض المتوسط) في الشمال (وقد سمى في بعض المراحل بحر الروم).
- بحر القُلزُم[1](البحر الأحمر) في الغرب.
- البحر الهندي (المحيط لهندي) في الجنوب.
- ومن الشرق يقبل الفرات ويتحد مع دجلة ويكونان معاً شط العرب الذي يصب في الخليج العربي ، لذا فقد كان العرب بحكم هذا الموقع على اتصال دائم بالروم والحبشة والفرس والهند وغيرهم من الأمم عن طريق تلك البحار، الأمر الذي ساهم في إكسابهم الخبرات البحرية في مجال الملاحة وصناعة السفن وعلم الفلك وقيادة السفن وغيرها من فنون البحر.

---

(١) القلزمة . ابتلاع الشيء . ويقال تقلزمه إذ ابتلعه . وسمي بحر القلزم بهذا الاسم لالتهامه من ركبه، وهو المكان الذي عرق فيه فرعون وآله وكذلك نسبة إلى مدينة القلزم الواقعةعند نهاية خليجه الغربي، كما سمي (بحر أبله) نسبة إلى مدينة أبله، وعرف أيضاً بـ (البحر الحجازي)، وسمي مرة (بحر النعام) ومرة أخرى (بحر عيذاب) ويسميه ابن جبير أحياناً بـ (البحر الفرعوني) وابن رستة بحر جده عند ساحل مكة بينها يسميه الهمزاني (بحر الحجاز) عند ساحل المدينة، وبحر اليمن عند سواحل اليمن، وسمي بالبحر الأحمر اختصاراً لاسمه القديم بحر الملك الأحمر Erythaean ثم احتصر إلى البحر الأحمر

حول ذلك كله والمراجع المتعلقة بذلك انظر:

د. سيد عبد العزيز سالم: البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي ص ٣ ـ٤ ص ١٣٠ ـ ١٣١

وتشغل القوات البحرية العربية الإسلامية مركزاً طليعياً في تاريخ البحار والمحيطات المعروفة في ذلك الوقت، وكان هذا من الأسباب الرئيسية التي حملت الباحثين على تناول هذا الموضوع بالدراسة والبحث من مختلف نواحيه السياسية والإقتصادية والعسكرية نظراً لأهمية ذلك بالنسبة للتاريخ العربي الإسلامي بوجه خاص والتاريخ العالمي بوجه عام.

ويقترن تاريخ البحرية العربية الإسلامية بحركة الفتوحات التي بدأت في خلافة أبي بكر واستمرت طوال عصر الخلافة الراشدة. وقد ازدهرت البحرية الإسلامية وكونت أساطيل حربية قوية في عهود كثيرة نذكر منها بصورة خاصة عصر الدولة الأموية والعباسية والعهود الفاطمية والأيوبية ودولة الأغالبة في المغرب لقد كان لزاما على العرب، بعد أن تم لهم فتح الشام ومصر وأصبحت لديهم سواحل متصلة تطلّ على البحر المتوسط ، أن ينتهجوا سياسة بحرية رضوا أم كرهوا، لأن استيلاء المسلمين على الشام ومصر أدى إلى تمزيق وحدة الإمبراطورية البيزنطية وحكم بفصل بيزنطة عن ولاياتها التابعة لها غربا حتى المحيط الأطلسي وأصبح البحر وحده الوسيلة الوحيدة للربط بين أجزاء هذه الامبراطورية، وكان ذلك نذيرا بقيام صراع بحري مرير بين القوى البحرية العربية الإسلامية والقوى البحرية البيزنطية.

هذا ومن الثابت تاريخياً أن عرب اليمن وعمان كانوا على علم ودراية بفنون البحر والملاحة قبل الإسلام بقرون وكانت لهم صلات تجارية مع الهند والحبشة بينما كان عرب نجد والحجاز أقل درايةً بفنون البحر وقد عبر عن ذلك ابن خلدون في مقدمته : « إن العرب لم يكونوا في اول الأمر مهرة في ثقافة البحر وركوبه والروم والفرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم في التغلب على أعواده مرنوا وأحكموا الدراية بثقافته[٢] . . . »

ثم يستطرد فيقول (فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم اكتسبوا خبرةً ودراية بالبحر وفنونه وشرهوا إلى الجهاد فيه وأنشأوا السفن والشواني وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر المقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر [٣] . . . »

وقد ارتبطت الحرب في البحر بفكرة الجهاد في سبيل الله وابتغاء الأجر والثواب، وأخذ العرب المسلمون يروون أحاديث عن رسول الله (ص) تتضمن معنى الحث على

---

(٢) المقدمة : ص ٢٥٣ (بند قيادة الاسطول). ابن خلدون .

(٣) المقدمة : ص ٢٥٣ (بند قيادة الاسطول). ابن خلدون

الجهاد في البحر، وعزوا إلى رسول الله (ص) أنه قال : « إن الجهاد في البحر فيه عشرة أمثال أجر الجهاد في البر[٤] » .

وهكذا صارع العرب البحر وتفاعلوا معه بنفس القوة التي صارعوا الصحراء وتفاعلوا معها .

إن عبور الأساطيل العربية إلى الاندلس وأوربا ومنطقة المحيط الهندي كان عبوراً حضارياً، وبعبارة أدق كان عبوراً للحضارة العربية الإسلامية بكل مبادئها وعلومها وفنونها وتقدمها الإجتماعي والسياسي والاقتصادي، وكتب التاريخ حافلة بالأدلة على ذلك، والشواهد التاريخية خالدة في كل أرض وصلت إلى شواطئها أساطيل العرب المسلمين .

لقد كان للأساطيل الإسلامية الشأن الأكبر في اتساع الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً إلى أن أدرك الدولة الفاطمية بمصر والدولة الأموية بالأندلس الإضمحلال وطرقها الاعتلال فاسترجع الإفرنج بلداناً كثيرة من أيدي المسلمين .

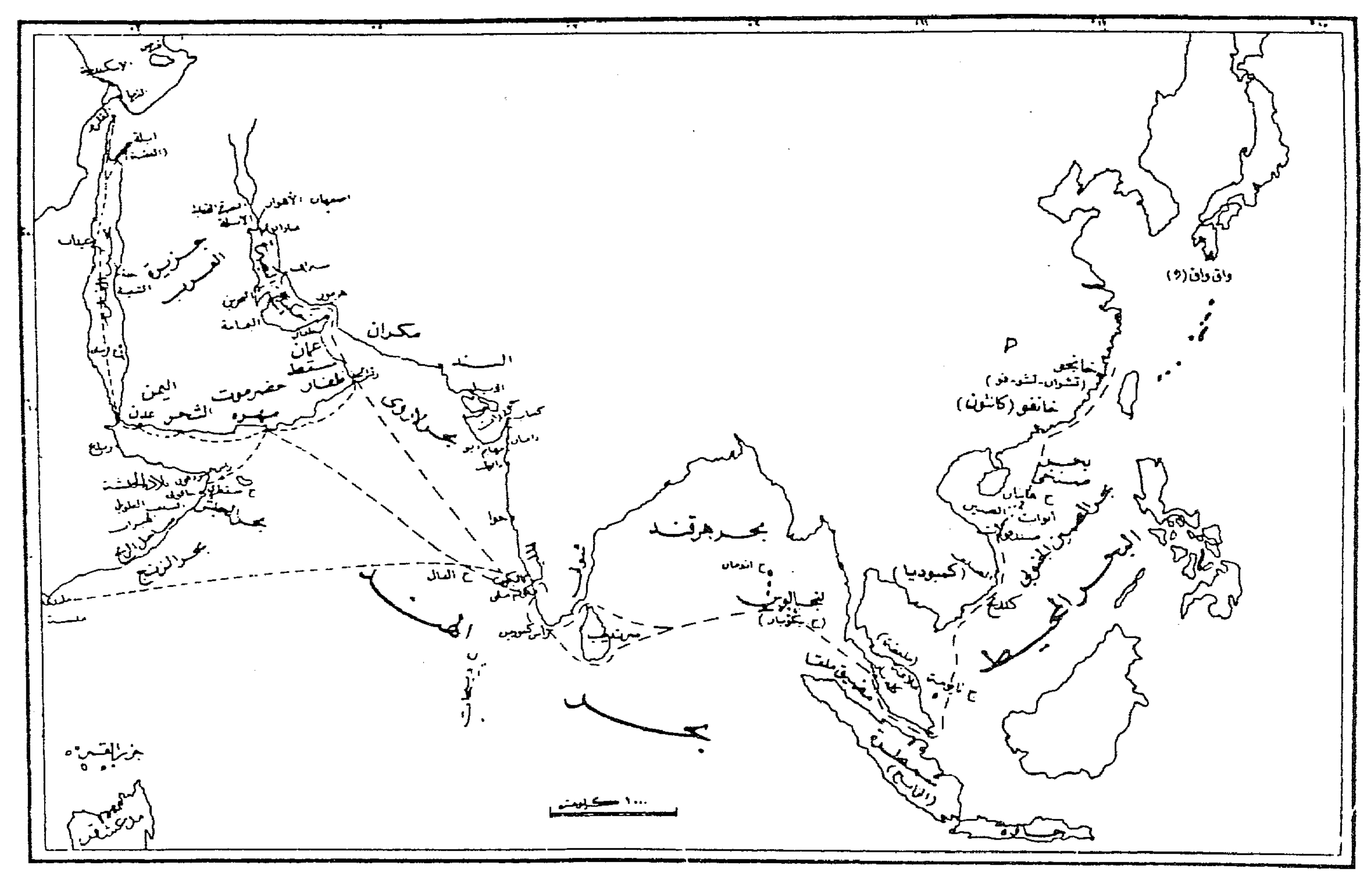
هذا وتجدر الإشارة إلى أن الأساطيل العربية الإسلامية قد خاضت معارك بحرية كبيرة وناجحة عبر التاريخ وخاصة في حوض المتوسط الشرقي وشمال أفريقيا وجنوب أوربا واحتلت جزر صقلية وكريت ورودس وقبرص وجزر البليار وعبرت إلى الأندلس وحاصرت عاصمة البيزنطيين واستخدمت أسلحةً بحريةً فعالةً وسفناً حربية كبيرة ذات قدرات عالية في الإبحار والقتال وبرع القادة والبحارة في مختلف فنون الحرب البحرية وانتصروا على الروم والصليبيين وسيطروا على البحر الأبيض المتوسط وأجزاء من البحر الأحمر والمحيط الهندي .

لقد أثبت البحارة العرب أن أمتنا تبدع عندما تتحد .... وتنتصر عندما تجاهد....

إنه جهد متواضع أرجو أن يشكل خطوة على طريق بلورة المزيد من مفاهيم فن الحرب البحرية في تاريخنا وتسليط الأضواء على جوانب هامة من تراثنا الأصيل كي نستلهم منه الانتصارات والبطولات والرموز والقيم الروحية لتعزيز الأمل لغدٍ مشرق .

---

(٤) الامير شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٠٨ .
جميل خانكي : تاريخ البحرية المصرية ص ١١٨ .



خريطة توضح الطرق البحرية بين جزيرة العرب وافريقيا وبينها وبين الهند والصين في القرون الوسطى

تمهيد

حول علم الحرب وفن الحرب وفن الحرب البحرية

الحرب ظاهرة إجتماعية سياسية معقدة تنشأ في مرحلة معينة من مراحل تطور المجتمع البشري وهي جانب من جوانب تطوره.

وعلم الحرب هو نظام موحد من المفاهيم تبحث في التحضير للحرب المسلحة والقيام بها لتحقيق أهداف محددة.

وينطلق علم الحرب في دراسته للحروب من الفكرة التالية:

« الحرب جزء من كل وهذا الكل هو السياسة» وتعد الحرب استمراراً لسياسة الدولة المعنية والطبقات المختلفة فيما بينها، وعلى هذا النحو فالحرب بحد ذاتها عنف مسلح وصراع منظم ومسلح بين طبقات اجتماعية مختلفة، أوبين دول أو مجموعات من الدول أو القوميات بهدف تحقيق أغراض سياسية معينة.

وبالاعتماد على القوانين الموضوعية للحرب المسلحة يدرس علم الحرب قضايا التسليح والتكتيك ويضع أساليب وأشكال الحرب المسلحة ومبادىء بناء وتدريب وتربية القوات المسلحة وجميع المسائل المتعلقة بتأمينها في مجرى الحرب وبالإمكانيات الإقتصادية والمعنوية والسياسية. للدولة، كما أنه يشمل دراسة هذا كله لدى العدو. وعلى هذا النحو فإن علم الحرب، إلى جانب دراسته المستقلة للعناصر الحربية يأخذ بعين الإعتبار أيضاً وبصورة موضوعية تأثير العوامل السياسية و الإجتماعية والإقتصادية والمعنوية على العمليات الحربية وكذلك طرق وأساليب إحراز النصر على العدو.

وهكذا فإن موضوع علم الحرب يجب أن يكون قبل كل شيء البحث في قوانين الصراع المسلح ووسائطه والطرق والأشكال التي تقاد بها الحرب.

ويتضمن علم الحرب الفروع الأساسية التالية:

أ ـ النظرية العامة (المبادىء العامة) لعلم الحرب.

ب ـ نظرية فن الحرب.
ج ـ علم التاريخ الحربي (التاريخ العسكري).
د ـ نظرية تدريب القوات المسلحة وتربيتها.
هـ ـ الجغرافية الحربية.
و ـ علم التكتيك الحربي.

إن نظرية فن الحرب هي أهم الأجزاء المكونة لعلم الحرب، وهي تدرس طرق وأشكال الأعمال القتالية على مختلف المستويات، وتطبيق خوض المعركة والعملية والحرب بالكامل، وفي أسس التنظيم والتدريب والتربية في القوات المسلحة، وشروط التحضير للحرب المسلحة والقيام بها في البر والبحر والجو.

أما فن الحرب البحرية فهو أحد أجزاء علم الحرب وفرع منفصل من فن الحرب، وهو يعتمد على القوانين العامة لخوض الحرب البحرية كما يعتمد على طرق وأشكال الصراع المسلح على مسرح الأعمال القتالية البحرية.

إن المهمة الرئيسية لفن الحرب البحرية هي دراسة طبيعة ومبادىء الأعمال القتالية في البحر واستقصاء وبحث طرق تأمين أقصى قدرة عملياتية للقوات المشتركة في هذه الأعمال الفعالة، ووضع مسائل التنظيم، وتحقيق تعاون القوات البحرية مع قوات الصنوف الأخرى للقوات المسلحة [1].

ويتألف فن الحرب من ثلاثة فروع هي: الاستراتيجية، فن العمليات، التكتيك.

إن معرفة تاريخ فن الحرب، أي معرفة تاريخ نشوء وتطور القوات المسلحة وأساليب خوض الأعمال الحربية وأشكال وأساليب التدريب والتربية في القوات المسلحة والعوامل المؤثرة على تطورها يتصف بالأهمية البالغة من أجل التوصل إلى الفهم العميق للفن الحربي المعاصر ولآفاق تطوره في المستقبل.

وفي الواقع فإنه من الصعب فهم أية ظاهرة معاصرة فهماً صحيحاً إلا في شروط دراستها من الناحية التاريخية بالإرتباط مع الشروط الراهنة.

إن فن الحرب المعاصر هو نتيجة لتراكم خبرات الحروب الماضية التي تم استخلاصها خلال سنوات طويلة، وإن الفهم العميق لهذا الفن لايمكن أن يتم إلا على أساس دراسة تطوره منذ الولادة حتى وقتنا هذا.

---

(١) فن عمليات الأسطول البحري الحربي، وفيق بركات. ص ١٤ مترجم.

إن الدراسة التاريخية لفن الحرب تسمح برؤية الطريق الذي تطور خلاله هذا الفن منذ الماضي حتى تبلوره في شكله الحاضر، كما تسمح بالتنبؤالعملي الصحيح لتطوره المقبل استناداً إلى وسائط الصراع القائمة وظروف المجتمع الراهنة.

إن دراسة تاريخ الحروب الماضية وبالتالي دراسة تاريخ فن الحرب ستبقى ضرورة ملحة حتى في شروط التطور الهائل لوسائط الحرب، لأن مبادىء خوض الصراع المسلح التي استخلصت في الحروب الماضية ستحافظ على صحتها حتى في الحروب الحديثة مثل: مبدأ التعاون، مبدأ حشد القوى والوسائط على الإتجاه الرئيسي، مبدأ المفاجأة وغيرها.

كما تتيح لنا دراسة فن الحرب الإدراك العميق لهذه المبادىء والفهم الدقيق لمضمونها والتعرف على الأمثلة الناجحة في استخدامها خلال المراحل التاريخية المختلفة، ومن ثم فإن الفن العسكري لايمكن أن يدرس ويستوعب بنجاح إلا في ضوء الأمثلة والأحداث التاريخية.

ولقد أدرك القادة الأقدمون ومشاهير القادة العسكريين التاريخيين تلك الحقائق:

أ ـ كتب القائد العسكري الصيني (أوتصن) في القرن الرابع قبل الميلاد: «أنه على أساس الخبرة العسكرية الماضية يتم تحديد الحاضر والمستقبل[٢]».

ب ـ كان نابليون مولعاً بدراسة التاريخ العسكري واعتبره «القاعدة الأساسية للتفكير العسكري الصحيح».

ج ـ القائد الروسي البارز «سوفوروف» قال: «يصبح التكتيك مظلماً إذا لم يرافقه تاريخ عسكري مضيء».

د ـ أما القائد العسكري الكبير كوتوزوف الذي هزم نابليون عند هجومه على روسيا فقد كان استاذاً للتاريخ العسكري لسنوات طويلة[*].

وانطلاقاً من وجهة النظر المذكورة قدمنا دراستنا هذه.

ـ لقد بدأ فن الحرب العربي يتكون ويتبلور منذ عصر الرسول العربي (ﷺ) ثم أخذ

---

(٢) تاريخ فن الحرب. ترجمة صباح أتاسي ص ٦ (٢) تاريخ فن الحرب. ترجمة صباح أتاسي ص ٦.

(٣) تاريخ فن الحرب ص ١١٦

★ حول تشكيلات الجيش المختلفة في ميدان القتال انظر:

د. سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، ٢٩١ وحتى ص ٢٩٨ انظر أيضاً ص ٢٨٤.

يتطور مع تطور الدولة العربية وتطور مجتمعها واقتصادها وصناعتها وفتوحاتها.

أما فن الحرب البحرية في التاريخ العربي الاسلامي فقد بدأ بالتكون منذ خلافة عثمان بن عفان الذي أمر بالغزو في البحر بتحريض من معاوية بن أبي سفيان (والي عمر وعثمان على الشام) واستمر تطوره عبر العهود: الأموي والعباسي والفاطمي والأيوبي والأغلبي وحتى يومنا هذا وارتبط منذ بدايته بمبادىء الجهاد.

وعبر تاريخنا العسكري تأثر فن الحرب البحرية بفن الحرب البرية وأخذ منه بعض المبادىء الأساسية مثل التعاون والخداع والتمويه، الإنتشار العملياتي والحشد... الخ. كما أخذ عنه بعض أساليب القتال ليطبقها في البحر كما جرى في معركة ذات الصواري: اذ ربط البحارة العرب السفن ببعضها لتكون صففا واحداً متراصاً يصعب اختراقه ومدوا الجسور من سفنهم إلى سفن العدو ليشتبكوا معهم مباشرة بالسيوف والخناجر والأيدي ويحولوا المعركة البحرية إلى معركة برية.

ومن ناحية أخرى فإن بعض تراتيب القتال التي كانت تتخذها القوات البرية قد طبقتها الأساطيل البحرية العربية مثل:

أ ـ ترتيب النسق.

ب ـ ترتيب الرتل.

ج ـ ترتيب نصف هلال يتكون من قاعدة وجناحين، إما أن يكون نتوؤه نحو العدو: والغرض من هذا الترتيب هو دفع الأجنحة بالتدريج إلى الأمام لتطويق العدو، أما وضع الاجنحة متأخرة عن القاعدة فهو لتضليل العدو وعدم إدراكه لخطة التطويق، حتى إذا تم الإشتباك تتقدم الأجنحة لإتمام عملية التطويق، أو يكون النتوء إلى الخلف والجناحان متقدمان وفي هذه الحال يمكن القيام بعملية التطويق مباشرة

د ـ ترتيب قلب وجناحين ومقدمة وساقة وهو يشبه ترتيباً كانت تستخدمه القوات البرية ويماثل أيضاً ترتيب الدائرة الذي يسمح بتنظيم الدفاع الدائري.

وجدير بالذكر أن المراجع التاريخية لم تثبت مخططاً توضيحياً لتراتيب القتال البحري ولكن ورد ذكرها مع التنويه بأنها مشابهة لتراتيب القتال البري ولذلك أمكننا أن نضع لها مخططاً يعطي فكرة واضحة عنها(*)

★ العملية البحرية: هي مجموعة من الأعمال الحربية تقوم بها وحدات الأسطول البحري وتشكيلاته في فترات (معدلات) زمنية محددة. مستقلة أو بالتعاون مع صنوف القوات المسلحة الأخرى في أزمنة وأمكنة مختلفة، تنفذ وفق الفكرة العامة والخطة الموضوعة والموجهة لتحقيق هدف عملياتي أو استراتيجي.

وكان لابد للربان أن يصطحب معه في حالة الحرب قائداً أو رئيساً يتولى قيادة الجنود إذا ما انتقل ميدان الحرب من البحر إلى البر وكثيراً ما كان ذلك يحدث .

إن الصفة المميزة لهذه التراتيب القتالية هي وجود الرغبة في تطويق العدو والتصميم على القتال حتى في ظروف التطويق ، وكذلك الأخذ بالأشكال الهندسية ، كما نلاحظ في هذه التراتيب فكرة الحركية والفاعلية التي تكمن في معظم أشكالها وقد نقل الغربيون الكثير من فن الحرب العربي خلال الحروب الصليبية [٣]

وعرف فن الحرب البحرية (العربي الإسلامي) الشكلين الرئيسيين للعمليات البحرية الحديثة :

أ ـ العملية البحرية المستقلة: وهي العملية التي تشترك فيها فقط سفن الأساطيل البحرية مثل معركة ذات الصواري .

ب ـ العملية البحرية المشتركة[*]: وهي العملية التي تشترك فيها سفن الأساطيل البحرية والقوات البرية ، مثل حملة القسطنطينية .

كما عرف فن الحرب البحرية (العربي الإسلامي) أنواع العمليات البحرية وفقا لتصنيفها الحديث :

أ ـ عملية تدمير القوات البحرية المعادية في البحر: مثل عملية ذات الصوارى (٣٤ هـ / ٦٥٥م) .

ب ـ عملية تدمير قوات العدو البحرية في القواعد: مثل العملية التي قام بها أسطول موسى بن نصير عام (٨٩ هـ /٧٠٧م) حيث هاجم أسطول الروم في قواعده في الجزر العربية من الممتلكات العربية في شمال افريقيا (منورقه وميورقه[٤]وكذلك مهاجمة حسان بن النعمان لقرطاجة أقوى قاعدة لأسطول الروم في مياه المغرب (٧٦ هـ / ٦٩٥م)، وغارات الأسطول المصري على مواقع العدو في المتوسط (بيروت وكريت وقبرص)عام (٥٧٨ هـ /١١٨٢م) .

ج ـ عملية الإنزال البحري: مثل عملية معاوية بن أبي سفيان (٢٨ هـ) في قبرص ،

---

(٣) تاريخ فن الحرب ص ١١٦

★ حول تشكيلات الجيش المختلفة في ميدان القتال انظر:

د. سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ص٢٩١ وحتى ص ٢٩٨ انظر أيضاً ص ٢٨٤ .

(٤) جزر البليار: وتسمى أحياناً الجزر أو الجزائر الشرقية.

وعملية افتتاح رودس بقيادة جنادة بن أمية الأزدي (٥٣ هـ / ٦٥٤م) والعبور الشهير لطارق بن زيادة والنزول في الأندلس (٩١ هـ / ٧١١م) وعملية غزو طريف (مولى موسى بن نصير) للأندلس حيث أنزل قواته من أربع سفن في جزيرة (تاريفا) / ٩٢ هـ / .

د ـ وفي معظم العمليات البحرية التي خاضتها الأساطيل العربية الإسلامية كانت تقوم على التوازي بعملية (قطع خطوط المواصلات البحرية المعادية) أي قطع خطوط الإمداد والتموين البحري المعادي .

الفصل الأول

عوامل نشوء البحرية العربية الإسلامية(*)

أ ـ ضرورة الدفاع عن المدن الساحلية التي تم فتحها:

يشكل الإنتصار الحاسم الذي أحرزته الجيوش العربية الإسلامية على الجيوش البيزنطية في موقعة اليرموك(**) نقطة تحول هامة في حركة الفتوح العربية أدت إلى انهيار قوى الروم وانفصال الشام عن جسم الإمبراطورية البيزنطية (1).

وأخذت مدن الشام في الشمال والجنوب تتساقط سريعاً في أيدي العرب، وبعد فتح دمشق توجهوا إلى فتح مدن الساحل الشامي مثل صيدا وبيروت وجبيل وعرقا واللاذقية وجبلة وانطرطوس (2)(طرطوس حاليا). ومن ثم أنطاكية شمالاً وحتى برقة غربا، حينئذ برزت أهمية الدفاع عن هذه المدن والسواحل وأصبحت الحاجة ماسة إلى تكون أسطول بحري قادر على حمايتها والدفاع عنها.

ب ـ سعي المسلمين إلى الإستيلاء على القسطنطينية:

كان العرب يهدفون إلى القضاء على الإمبرطورية البيزنطية ولم يكونوا مطمئنين إلى جانب الروم بعد فتح الشام ومصر، ولذلك كان عليهم أن يفتحوا القسطنطينية قلب بيزنطة والعالم القديم وقلعة الروم المنيعة والرأس المدبر للتنظيم البحري للبيزنطيين في حوض المتوسط الشرقي (3) وقد حوصرت المدينة لمدة سبع سنوات أيام معاوية (٥٤ ـ ٦٠ هـ)

★ أوردها د. العبادي ود. سالم والعدوى ود. أنور عبد العليم.

★★ معركة اليرموك: ١٣هـ ٦٣٤م

(1) د. عبادي د. سالم (تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام) ص ١٣.

(2) البلاذري، فتوح البلدان تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد القسم الأول ص ١٦٢.

(3) عبادي وسالم (تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام) ص ٢١

وكذلك أيام سليمان بن عبد الملك عام ٩٨ هـ دون جدوى، الأمر الذي دفعهم إلى التكفير بغزوها من اتجاه المغرب العربي وقد وضح هذا الإتجاه بعد أن افتتح موسى بن نصير الأندلس، لكن هزيمة العرب في معركة بلاط الشهداء (١١٤ هـ) وضعت حداً لمحاولاتهم[٤].

كان هذا الهدف حافزاً للدولة العربية الإسلامية منذ البداية على إنشاء أسطول بحري حربي للسيطرة أولاً على جزر حوض البحر المتوسط الشرقي لاتخاذها نقطة ارتكاز أمامية وقواعد حربية ومراسي لأساطيلهم تجاه السواحل البيزنطية حتى يتهيأ لهم الإنقضاض من هذه المراكز على القسطنطينية، وهكذا غزا معاوية قبرص سنة ٢٨ هـ وفي عام ٣٣هـ[٥] وفتح جنادة بن أمية الأزدي رودوس سنة ٥٢ هـ ثم جزيرة كزيكوس «وتسمى بالعربية أرواد» في مياه القسطنطينية عام ٥٤ هـ وفي سنة ٥٥ هـ غزا جنادة جزيرة إقريطش[٦](كريت)، وتهيأ له بعد ذلك مهاجمة البيزنطيين في القسطنطينية.[٧]

ج ـ توافر المواد الخام والأيدي العاملة الماهرة[٨].

عندما عزم معاوية بن أبي سفيان (وهو بعد والٍ على الشام) على إنشاء أسطول عربي إسلامي كان يعلم تماماً أن في إمكانه تحقيق هذا الهدف، فالأخشاب التي يمكن أن تصنع منها ألواح السفن والصواري والمجاذيف تتوافر في مناطق متعددة من الأراضي العربية في مصر والشام: فأشجار الصنوبر والأرز والبلوط والعرعر تزخر بها جبال لبنان وسوريا، كما أن أخشاب السنط المصري الصالحة لعمل الصواري وضلوع جوانب السفن وخشب الجميز والأثل واللبخ والدوم التي تصلح لصناعة المجاذيف والقرابيا اشتهرت بها مصر منذ أقدم العصور[٩]كذلك كان بإمكان معاوية استغلال معدن الحديد المتوفر في مصر والشام وبالإضافة إلى هذه المواد الضرورية لصناعة السفن كانت تتوفر في الشام ومصر الأيدي العاملة الخبيرة، وقد لعب القبط والعناصر العربية اليمنية دوراً رئيسياً في صناعة السفن العربية الاسلامية.

---

(٤) السيد عبد العزيز سالم (تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس) ص ١٠٥.
(٥) عبادي وسالم مرجع سابق ص ٢٢.
(٦) البلاذري ج ١ ص ٢٧٩
(٧) ابراهيم العدوي قوات البحرية العربية ص ٥٦.
(٨) عبادي وسالم ص ٢٤
(٩) ألفرد لوكاس (المواد والصناعات عند قدماء المصريين) ترجمة زكي اسكندر ص ٧٠٧

د ـ ارتباط مصر والشام وتضامنهما في العمليات الحربية ضد البيزنطيين[١٠].

حتم الموقع الجغرافي لمصر وبلاد الشام والمصالح الإقتصادية والسياسية المشتركة قيام روابط وثيقة بينهما منذ أقدم العصور التاريخية وقد ارتبط البلدان بمصير واحد في معظم الأحوال: فتعرضا للسيطرة الأجنبية الأشورية والفارسية واليونانية والرومانية في العصر القديم وخضعا للدولة البيزنطية ثم دخلا في فلك الدولة العربية وارتبطا بوحدة وثيقة زمن الطولونيين والإخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك وأصيبا بكارثة الغزو الصليبي والغزو المغولي والغزو العثماني.

وكان لتضامن مصر والشام في مرحلة التحدي البيزنطي للقوة العربية ـ بعد حركة الفتوحات العربية الإسلامية ووقوف البلدين معاً إبان عمليات الغزو البحري التي كان يوجهها البيزنطيون إلى سواحل مصر و الشام ـ أكبر الأثر في تحقيق أمل معاوية في إنشاء بحرية عربية «إسلامية»[١١] أمدتها مصر بخبرات ملاحيها وصناعها. وكان من أثر هذا التعاون الوثيق قيام بحرية عربية إسلامية شامية مصرية مشتركة حولت خطط العرب من استراتيجية دفاعية إلى هجومية في مرحلة مبكرة من تاريخهم الإسلامي وغمرت صفحات هذا التاريخ بالأمجاد والمفاخر والبطولات.

---

(١٠) عبادي وسالم ص٣٦

(١١) فلهم هونيرباخ. البحرية العربية وتطورها في البحر الأبيض المتوسط في عهد معاوية ص ١١٨، مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٤.

الفصل الثاني

التوجهات البحرية العملياتية الشهيرة في التاريخ العربي الإسلامي

إن إصدار التوجيهات العملياتية هو عمل من أعمال القيادة السياسية العسكرية العليا تحدد فيه لقادة الجيوش والأساطيل والتشكيلات احتمالات الموقف السياسي والعسكري واحتمالات عمل العدو والمهام والخطوط العريضة لعمل القوات وجاهزيتها وتحركاتها الأساسية في مسرح العمليات وتعليمات القيادة والسيطرة والتعاون وبعض المسائل الهامة الأخرى.

أ ـ عرف القادة العرب هذا النوع من الوثائق منذ عهد الرسول العربي (ﷺ)، إذ كان يصدر التوجيهات العملياتية لقادة الجيوش والحملات وأحيانا لقادة السرايا والمواقع. ففي موقعه أحد (٣ هـ / ٦٢٥م) أصدر تعليمات واضحة محددة دقيقة موجزة جاء فيها: «احموا ظهورنا فإنا نخاف أن يجيؤوا من ورائنا والزموا مكانكم لاتبرحوا منه، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل معسكرهم، فلا تفارقوا مكانكم وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولاتدفعوا بناوإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فإن الخيل لاتقدم على النبل»[1].

ب ـ الخليفة الراشد عمر بن الخطاب: (١٣ ـ ٢٣هـ / ٦٣٤ ـ ٦٤٤م)

إن أول من ركب البحر للغزو في أوائل نشوء الدولة العربية الإسلامية هو العلاء بن الحضرمي في أيام الخليفة عمر بن الخطاب إذ كان عاملا على البحرين فأراد أن يفتح سواحل فارس وبينه وبينها الخليج العربي، فعبر عليها في المراكب ولم يستأذن عمر، وخرج المسلمون يريدون البصرة فغرقت سفنهم ولم يجدوا للرجوع إلى البحر سبيلا. فغضب عمر على العلاء وأمّر عليه سعد بن أبي وقاص وقال له:

---

(١) العماد مصطفى طلاس: الرسول العربي وفن الحرب. ص ٢٦٣.

«الحق بسعد بن أبي وقاص بمن معك»[٢] ثم كتب عمر إلى عتبة بن غزوان بأن : «العلاء بن الحضرمي جعل جنداً من المسلمين في البحر فأقطعهم إلى فارس وعصاني وأظنه لم يُرد الله عز وجل بذلك ، فخشيت عليهم ألا ينتصروا وأن يغلبوا فأندب لهم الناس وضمهم إليك من قبل أن يجتاحوا[٣]» فندب عتبة الناس وأخبرهم بكتاب عمر فسار في اثني عشر ألفاً على السواحل وساعد في تنظيم انسحاب القوات العربية إلى البصرة ورجع أهل البحرين إلى ديارهم. فكانت بذلك أول غزوة بحرية وكانت تعليمات عمر أول توجيه عملياتي ينظم انسحاب القوات في تلك المعركة البحرية عن طريق السواحل البحرية ويحقق بعض النجاح فيها.

كان عمر بن الخطاب بادىء ذي بدء يحذر المسلمين من الهجوم بحرا فحين أراد عمرو بن العاص أن يجعل الإسكندرية حاضرة مصر كتب عمر يقول له « إني لاأحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولاصيف، فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء »[٤]

وعندما كتب معاوية إلى عمر وألح عليه يستأذنه ركوب البحر (وكان واليا على الشام) بعث عمر إلى عمرو بن العاص عامله في مصر يطلب إليه أن يصف له البحر فأجابه عمرو:

«ياأمير المؤمنين إني رأيت البحر خلقاً كثيراً يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء، إن ركد أحزن القلوب وإن ثار أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة، هم فيه دود على عود، إن مال غرق وإن نجا برق[٥]». وعندما تلقى عمر هذا الكتاب بعث إلى معاوية برسالة جاء فيها : «لاوالذي بعث محمدا بالحق، لاأحمل فيه مسلماً أبداً وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول شيء في الأرض. . . . . فكيف أحمل الجنود في البحر الكافر المستصعب، وتالله لمسلم واحد أحب إلي مما حوته الروم . فإياك أن تعرض لي وقد تقدمت إليك وقد علمت مالقي العلاء مني ولم أتقدم إليك في مثل ذلك[٦]».

لقد كان عمر حاسماً قاطعاً في توجيهاته إلى معاوية بالابتعاد عن ركوب البحر

---

(٢) جميل خانكي: تاريخ البحرية المصرية ص ١١٦.
المقريزي المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ج٢ ص ١٨٩

(٣) خانكي ص ١١٦، المقريزي ج ٢ ص ١٨٩، المقريزي ج ٢ ص ١٨٩

(٤) ياسين الحموي: تاريخ الأسطول العربي ص ١٢، أنور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ص ٨٨

(٥) خانكي ص ١١٧، الحموي ص ١٢

(٦) خانكي ص ١١٧، الحموي ص ١١٢

للأسباب الرئيسية التالية :

- لم تكن لدى الدولة العربية الإسلامية المعرفة الكافية بشؤون البحر كما لم تكن لديهم الخبرة اللازمة بالحرب البحرية، والعرب كانوا مايزالوا حديثي العهد بها بلغوه من حدود بحرية على البحر المتوسط، الأمر الذي يحد من قدرة العرب في مجاراة الروم والفرس في البحر.

- لم تكن الدولة العربية الإسلامية قد صنعت ونظمت أسطولها البحري الحربي كما لم تكن لديهم أي خطط عسكرية بحرية أو فكر عسكري بحري حتى ذلك التاريخ، بعكس خصومهم البيزنطيين المتمرسين على ركوب البحر والحرب فيه.

- حذر عمر من ركوب البحر والتعامل مع مخاطره لإدراكه بتخلف المسلمين البحري. خاصة بعد أن فشلت غزوة العلاء البحرية في فارس وربما نتيجة لإخفاق علقمة بن مجزر المدلجي في حملته البحرية إلى الحبشة سنة ٢٠ هـ إذ غرقت سفنه في البحر، فكان لذلك الحادث أثر عميق في نفس الخليفة (الطبري ج١ ص ٢٥٩٥).

وحرصه على سلامة المسلمين بعد أن وقف على رأي عمرو بن العاص في البحر وراكبه، وبالرغم من ذلك لم يتردد الخليفة عمر في أن يطلق يد معاوية في «إصلاح حال السواحل بما رآه كفيلا بسلامتها ومرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها وإقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها[٧]».

وكان هذا أول توجيه عملياتي بحري في الإسلام حول (الدفاع الساحلي). واستغل معاوية هذه التعليمات واتخذها خطوة أساسية يبني عليها مشاريعه البحرية فآثر أن يحصن المدن الساحلية ويزودها بالقوات المحاربة بما يجعلها قواعد في المستقبل تنقل منها الجنود بحراً إلى أي مكان يشاء ومن وجهة النظر التاريخية والعسكرية نرى أن الخليفة عمر قد أصاب في توجيهه المذكور، وشكل ذلك مرحلة إعداد واستعداد للإنطلاق في الحروب البحرية الناجحة التي تلت ذلك.

ج - الخليفة الراشد عثمان بن عفان: (٢٣ - ٣٥هـ ، ٦٤٤ - ٦٥٦م).

عندما تولى عثمان الخلافة كانت شوكة المسلمين قد قويت وتوسعت فتوحاتهم فألح

---

(٧) د. أحمد مختار العبادي، السيد عبد العزيز سالم ص ١٦

عليه معاوية في ركوب البحر مستأذناً في غزو جزيرة قبرص فرفض أول الأمر ثم أجاز الحملة البحرية بعد ذلك بشروط في توجيه شهير جاء فيه : « ولاتنتخب الناس ولاتقرع بينهم بل خيرهم فمن اختـار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه»[8] وتدل كلمات عثمان في ذلك التوجيه على كياسة وخبرة ودراية بفن القيادة ، اذ لم يجبر أحداً من العرب على ركوب البحر، لأن الحرب البحرية كانت ماتزال مجهولة ومخيفة للعرب حتى ذلك التاريخ وأن لجوءه إلى هذا الأسلوب قد دفع بالكثيرين للتطوع ، فأبحر معاوية إلى جزيرة قبرص سنة (٢٨ هـ، ٦٤٩م) وصالحه أهلها على (٧٢٠٠ دينار)[9]. وكان ذلك أول عبور قام به العرب لمياه البحر الأبيض المتوسط (بحـر الـروم). وقـد اصـطحب معـه في تلك الحملة بعض مشـاهير القادة العرب مثل عبادة بن الصامت، وكذلك بعض كبار رجال الشام . واتسمت هذه الحملة بخروج النساء معها حيث سجلت المرأة العربية اسمها بمداد الفخر في أولى حملات الأسطول العربي على جزر البحر الأبيض المتوسط، إذ اصطحب معاوية معه زوجته وأخته ، كما أخذ عبادة بن الصامت كذلك أمراته (أم حرام بنت ملحان الأنصارية) . التي توفيت في بداية الحملة ودفنت في قبرص وعرف قبرها منذئذ باسم : قبر المرأة الصالحة .

على أن أبرز توجيه للخليفة عثمان في هذا المجال ذلك الذي أصدره حول احتلال القسطنطينية : لم يكن العرب بعد الفتوح الشامية والمصرية مطمئنين إلى جانب الروم ولذلك كان عليهم أن يفتتحوا القسطنطينية قلب بيزنطة والعالم القديم وقلعة الروم المنيعة والرأس المـدبـر للتنـظيم البحـري للبيزنطيين في حوض المتوسط الشرقي، وقد حدد عثمان كيفية الإحتلال في توجيه عام شهير « أما بعد فإن القسطنطينية تفتح من قبل الأندلس[10]». وقد وضح هذا الإتجاه بعد أن افتتح موسى بن نصير الأندلس سنة (٩٢هـ ، ٧١١م) وخطر له أن يقتحم الأرض الكبـيرة (بـلاد الفـرنجة) ويخترق أوربا ويفتتح القسطنطينية من الجهة الغربية ، أي من جهة البر، ونستدل على ذلك أيضاً من المحاولات التي قام بها ولاة الأندلس في الفترة (١٠٠ ـ ١١٤هـ) للإستيلاء على الأقاليم الجنوبية من فرنسا. والظاهر أن فشل معاوية في فتح القسطنطينية بعد حصار دام سبع سنوات (٥٤ ـ ٦٠ هـ) كان من العوامل

---

(٨) المقريزي ج ٢ ص ١٩٠ ، د. أنور عبد العليم ص ٨٨، خانكي ص ١١٧ ، الحموي ص ١٣

(٩)د. عبد العليم ص ٩٢، الحموي ص ١٤ (ذكرها سبعة آلاف فقط

(١٠) ابن الاثير الكامل في التاريخ (طبعة بيروت ١٩٦٥) ج ٣ ص ٩٣، عبادي وسالم ص ٢١

التي دفعت المسلمين في الأندلس منذ عام ٩٩ ـ ١٠١ هـ (أي في خلافة عمر بن عبد العزيز) إلى البدء بغزو ما وراء البرتات [*] ولكن الهزيمة التي مني بها المسلمون في معركة بلاط الشهداء (١١٤هـ ، ٧٣٢م) قد وضعت حداً لمحاولاتهم وكان هذا الهدف حافزاً للمسلمين منذ البداية على إنشاء أسطول حربي يتوسلون به بادىء ذي بدء للسيطرة على جزر البحر الأبيض المتوسط الشرقي واتخاذها نقطة ارتكاز أمامية وقواعد بحرية ومراسي لأساطيلهم تجاه السواحل البيزنطية حتى يتهيأ لهم الإنقضاض من هذه المراكز على القسطنطينية، وقد نجح معاوية في غزو قبرص عام (٢٨ هـ) ثم غزاها ثانية عام (٣٣ هـ) ، وتوالت انتصارات العرب في هذا الجزء من البحر المتوسط حتى كانت معركة ذات الصواري فحققوا انتصاراً حاسماً ثبت لهم السيادة في البحر الأبيض المتوسط.

د ـ في العهد العباسي :

توقف النشاط البحري في أوائل العصر العباسي فترة من الزمن دامت ما يقرب من خمسين عاما[١١] لانصراف الدولة العباسية عن شؤون البحر، وتوقفت عن محاربة البيزنطيين في البحر المتوسط بسبب تفرغها لمشاكلها الإقليمية والخارجية وانتهاجها منذ قيامها سياسة مشرقية وتطلعت بوجهها نحو خراسان ومع ذلك فقد أبدى بعض خلفاء بني العباس اهتماماً خاصاً بالشؤون البحرية حتى أن الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ) أراد أن يوصل ما بين بحر الروم (المتوسط) وبحر القلزم (الأحمر) في بلاد الفرما (قرب بور سعيد) نحو بلاد تنيس فنصحه يحيى بن خالد البرمكي بالإنصراف عن تنفيذ ذلك وأخافه من دخول مراكب الروم في البحر الأحمر وتهديد الحجاز فعدل الرشيد عن ذلك [١٢].

ويوجد في مكتبة كوبرلي باسطنبول مخطوط لكتاب الخراج لقدامه بن جعفر (٨٨٨ ـ ٩٥٨م)[١٣] به نص عهد صادر عن الخليفة العباسي إلى أحد أمراء البحر، وتوضح هذه

★ جبال البرنس باسبانيا (أطلق العرب على هذه الجبال اسم (البرت) وهي مشتقة من كلمة (بورت) أي باب
د. علي خربوطلي: الإسلام في حوض البحر المتوسط ص٣٣

(١١) عبادي وسالم ص ٣٧ (تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام)

(١٢) المسعودي : مروج الذهب مجلد ٢ ص ٢٦٤ ، السيوطي + تاريخ الخلفاء ص ٢٦٦ ، عبادي وسالم ص ٣٨

(١٣) د. علي محمود فهمي : التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط ص ١٥٢ وحتى ١٥٤ (حيث أورد شرحاً للوثيقة وقسمها الى بنود: اختبار الرجال ، معاملة الرجال، بناء السفن وأماكن رسوها، الخدمة السرية ومنع تسرب المعلومات البحرية). الموسوعة العربية الميسرة ص ١٣٧١ (بالنسبة للتاريخ)

الوثيقة سلطات قائد الأسطول العربي في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وهو أكثر التوجيهات البحرية تفصيلاً، بالإضافة إلى أنها وحيدة من نوعها في التاريخ العربي الإسلامي من حيث كونها وثيقة حربية مهمة تلقى ضوءاً على واجبات أمراء البحار وصناعة السفن وصيانتها وأمور الملاحة البحرية والتدريب البحري والحرص من تجسس العدو واستطلاعه، وتوضح ما كان عليه النظام البحري في الدولة العربية الإسلامية في ذلك الوقت من وعي وصرامة، كما يشكل هذا التوجيه دستوراً أخلاقياً عظيماً يصلح العمل به في كل زمان ومكان. وقد جاء في ذلك التوجيه المهم:

« هذا عهد أمير المؤمنين إلى . . . (. . .) حين ولاه الثغر الفلاني وبحره ومراكبه:

أمره بتقوى الله وطاعته والحذر من عقابه واتباع رضائه وإيثار الحق في جميع أفعاله وأمره بتعهده نفسه حتى يقيم أودها وينفي بذكر الله الهوى وزيغ الشيطان عنها. وأن يزكي سجيته ويطهرها ويهذب سيرته وينقيها ويكون لمن معه من الجند وسائر الأولياء في الخير إماماً ومعلماً وعلى سلوك أفضل المناهج حاضاً ومقوماً، وأمره بلين لأهل الطاعة ويشتد على ذوي المعصية ويعطي على كل حال قسطها من النصفة والمعدلة.

وأمره أن يستعمل على شرطته من يرضى عقله ويثق بجزالته وصرامته وشدته على أهل الريب والدعارة.

وأمره أن يكون الإذن عليه لمن معه من الجند مبذولاً، والوصول إليه من ذوي الحاجات والمظلمات سهلاً يسيراً.

وأمره أن يديم عرض جنده حتى يعلم علمهم ويطلع على حقيقة أمرهم ويلزم مراكبهم. وأمره أن يشرف على مراقبة محارسه حتى يحكم أمر المرتبين فيها، ويدر عليهم أرزاقهم، ولايتأخر عنهم في شيء فيها.

وأمره أن يتفقد أمر المراكب المنشأة حتى يحكمها ويجود آلاتها ويتخير الصناع لها ويشرف على ما كان منها في الموانيء ويرفعها من البحر إلى الشاطيء في المشاتي وهيج الرياح المانعة من الركوب فيها.

وأمره أن يكون نواشيره وعيونه الذين يبعث بهم لمعرفة أخبار عدوهم من ذوي الصدق والنصيحة والدين والأمانة والخبرة بالبحر وموانيه ودخلاته ومخابيه حتى لايأتوا إلا بالصدق من الخبر والصحيح من الأثر* - وإن أرهقهم من مراكب العدو مالا قوام لهم به انحازوا إلى

* وهذا يماثل الإستطلاع والتجسس في العصر الحديث

المواضع التي يعرفونها ويعملون للنجاة بالإنحياز اليها.

وأمره أن لايدخل في النقاطين والنواتيه والقذافين ولا غيرهم من ذوي الصناعات والمهن في المراكب إلا من كان طبياً ماهراً حاذقاً صبوراً معالجاً وأن يكون من يحمله معه في المراكب أفضل الجند وخيار الأولياء وأصدق نية واحتساباً وجرأة على العدو وارتكاباً.

وأمره أن ينظر في صناعة المراكب نظراً تكشف به آلاتها من الخشب والحديد والمشاقة والزفت وغيرها حتى يحكمها. ويجيد بناء المراكب وتأليفها وقلفطتها وتركيبها، ويستجيد المقاديف ويتخيرها وينتقي الصواري والقلوع وينتخبها ويميز النواتيه ويعتمد من له الحذاقة والمهارة والدربة والحنكة والتجربة من جميعهم حتى لايدخل فيهم من لايصح دخوله ولايخلط بهم من يكون غيره أحق بالعمل منه.

وأمره أن يتحرس من أن تنفذ العدو حيلة في اجتناء الأسلحة أو شيء من أدوات الحرب والمكيدة من أرض الإسلام، أو أن يطلق لأحد من التجار حمل شيء إليهم أو إقامة الطريق الى بلدهم. ومن وجده قد أقدم على هذا وما جانسه من الناس جميعاً عاقبه عقوبة موجعة وجعله نكالاً وعظة.

وأمره أن يضم المراكب في الموانيء التي ترسي فيها ويولي مراعاتها من يثق بنصيحته وشهامته حتى لايخرج منه مركب إلا بعلمه ويشرف عليها في كثير من الأوقات حتى لايخرج منه مركب إلا بعلمه، ويشرف عليها في كثير من الأوقات حتى لاتكون على هيئتها مجلوة مسنونة مقومة موصونة إلى وقت الحاجة اليها والعمل بها ويشرف على ما فيها من النفط والبلسان والحبال وغيرها حتى يحتاط في ظروفها وأوعيتها ويأمن الفساد والتغيير عليها.

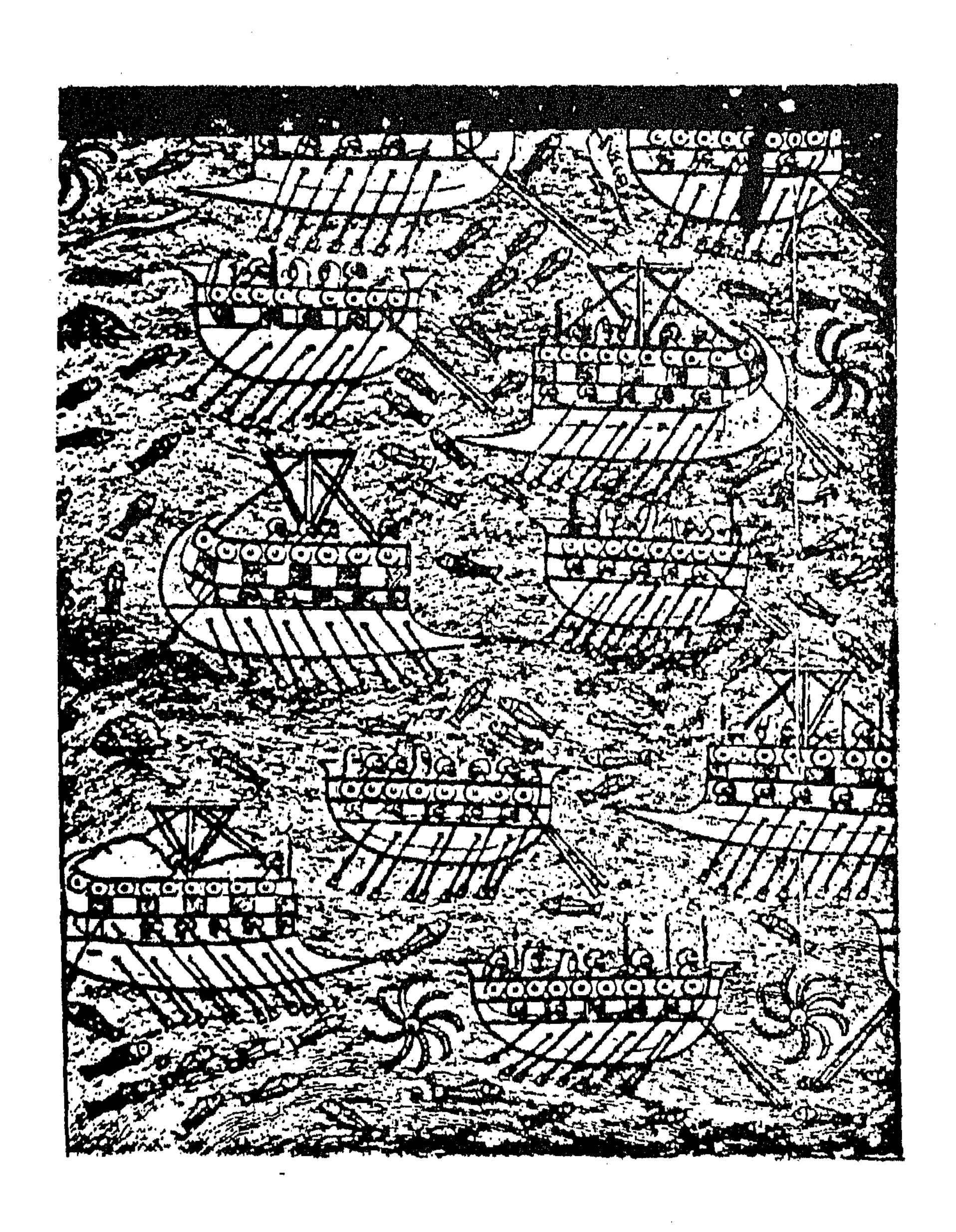
وأمره بشدة الحذر من جواسيس العدو وعيونه وأن يوكل لكل مدينة من يعلم حالها ولايطلق لأحد من البوابين والحرس أن يدخلها إلا من يعلمون حاله وسبيل مدخله وصورته ومغزاه وإرادته.**

هذا عهد أمير المؤمنين اليك وأمره إياك فافهم بما حده ورسم وكن عند حسن ظنه بك في جميعه وهو يسأل توفيقك وإرشادك إلى ما فيه الخيرة في جميع ما أسند إليك واعتمد فيه عليك.(١٤)

** وهذا يماثل إجراءات مكافحة التجسس في العصر الحديث

(١٤) د. ابراهيم العدوى: الأساطيل العربية في البحر المتوسط ص ١٥٨ حتى ص ١٦١

٦. أنور عبد العليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب ص ١٠٥ وحتى ١٠٧



صورة للمراكب الفنيقية التجارية والحربية
للمقارنة مع السفن العربية الإسلامية

هـ ـ في العهد الأيوبي:

اهتم صلاح الدين الأيوبي بالأسطول البحري وأنشأ ديوان الأسطول تأكيداً على ذلك وخصص له الأموال الضخمة وأمر بتنفيذ أوامر قيادته: « . . . والقول قول صاحب الأسطول وأن لايمنع من أخذ رجاله وما يحتاج اليه[١٥]

كما اهتم صلاح الدين بتقوية أجهزة الدفاع والحراسة الساحلية كالرباطات والمحارس والمناور والمناظر الممتدة على طول سواحل مصر والشام فحشد فيها الأجناد البطالين[١٦] والايزاك[١٧] والابدال[١٨] والمنورين للمرابطة فيها وحراستها، وقد أصدر توجيهات هامة حول الدفاع الساحلي وردت في مرسوم شهير بهذا المعنى: « إن مرسومنا الشريف اقتضى الإجتهاد في حفظ السواحل والمواني والإهتمام بأمرها واقامة الأيزاك والأبدال في أوقاتها على العادة، وإلزام أربابها بمواظبتها وكذلك المنورون بالديد بانات[١٩] والمناظر والمناور في الأماكن المعروفة وتعهد أحوالها[٢٠] »

بعد عهد صلاح الدين صار الاهتمام بأمر الأسطول يتوقف على مدى قوة أو ضعف الخطر الصليبي على السواحل العربية. ففي أيام السلطان الكامل وولده السلطان الصالح أيوب شهدت مصر اهتماماً بالأسطول الأيوبي نتيجة للحملات الصليبية التي هاجمت السواحل المصرية. ويظهر لنا هذا الاهتمام في الوصية التي كتبها الصالح أيوب قبل وفاته لأبنه تورانشاه ويقول فيها:

« . . . فالأسطول أحد جناحي الإسلام فينبغي أن يكونوا شباعاً، ورجال الأسطول إذا أطلق لهم كل شهر عشرين درهماً مستمرة دائبة، جاؤوا من كل فج عميق، وهم رجال معروفون بالقذف والقتال. »

---

(١٥) أبو شامة كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) ج ١ ص ٢٦٩

(١٦) البطالون من الأمراء والأجناد: هم العاطلون عن أعمال الدولة ووظائفها لأسباب ودوافع مختلفة. (راجع المقريزي/السلوك ج ١ ق ١ ص ٧٣ حاشية ٤).

(١٧) اليزك و الايزاك: الحراس

(١٨) الابدال: بمعنى البدل الذي يحل محل الحرس

(١٩) الديدبان كلمة فارسية الأصل (ديده بان) ومعناها المراقب أو الحارس وتعني أيضاً مكان المراقبة من موقع مرتفع

(٢٠) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٠٤ ج ١٠ ص ٢١٢، عبادي وسالم ص ٢٧٤

وقد حدد هذا التوجيه الأسطول والجيش جناحين للإسلام وسبق بذلك القيصر الروسي بطرس الأول بعدة قرون حيث قال: «الدولة التي تملك جيشاً لها يد واحدة، أما الدولة التي تملك جيشاً وأسطولاً فلها يدان اثنتان».

جناحان ويدان: تعبيران يدلان على مكانة الأسطول البحري الحربي في تاريخ الشعوب وأن قوة الأمة تكمن في التعاون بين القوات البرية والقوات البحرية لتحقيق النصر، وهذا ما تفعله الدول الكبرى المتقدمة في الظروف الحديثة، والحروب العالمية الثانية والحروب الإقليمية التي تلتها غنية بالأمثلة على ذلك، وكذلك الحروب التي خاضتها قوات الدولة الإسلامية مثل حصار القسطنطينية (كما سيرد ذكره).

الفصل الثالث

الاستراتيجية البحرية الدفاعية

بعد معركة اليرموك ٣٠ هـ / ٦٣٤م وانهيار قوى الروم وانفصال الشام عن جسم الإمبراطوريه البيزنطية انطلق العرب ليستولوا على مدن الشام الكبرى في الشمال والجنوب. أما السواحل فبعد الانتهاء من فتح دمشق وجه يزيد بن أبي سفيان همه إلى فتح مدن الساحل الفينيقي، ولم يأت عام ١٧ هـ حتى كان قد افتتح صيدا وبيروت وجبيل وعرقا، وفي نفس الوقت كان عبادة بن الصامت يفتح عنوة مدن الساحل الشمالي وهي اللاذقية وجبلة وانطرطوس[1] واسمها الحالي طرطوس.

وأدى فتح الشام إلى فتح مصر حتى برقة غربا، وأصبحت للعرب سواحل متصلة تطل على البحر المتوسط وأدى ذلك إلى تمزيق وحدة الإمبراطورية البيزنطية وحكم بفصل بيزنطة عن ولاياتها التابعة لها فيما وراء مصر غربا حتى المحيط الأطلسي وأصبح البحر وحده الوسيلة الوحيدة للربط بين أجزاء هذه الامبراطورية[2]

وكان ذلك نذيراً بقيام صراع بحري مرير بين القوى العربية الإسلامية (التي كانت تعتمد اعتماداً تاماً على المعارك البرية) والقوى البيزنطية (المتفوقة في الحروب البحرية) لحسم مشكلة الصراع على حوض البحر المتوسط[3] وعمد الخليفة الراشد عمر انتهاج سياسة بحرية

---

(١) البلاذري فتوح البلدان ص ١٥٧ تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد - القسم الأول القاهرة ١٩٥٦ ابن الاثير الكامل في التاريخ طبعة بيروت ١٩٦٥ ج ٢ ص ٤٩٢

(٢) مختار العبادي + دراسات في تاريخ المغرب والأندلس الاسكندرية ١٩٦٨ ص ٢

(٣) عبادي وسالم - تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ١٩٧٢ ص ٥ إصدار جامعة بيروت العربية .

دفاعية لمواجهة خطر استرداد البيزنطيين لسواحل الشام ومصر متوسلا لذلك بوسائل برية كترميم القلاع والمناور والمراقب والمسالح الممتدة بحذاء الساحل وشحنها بالمقاتلة والمرابطة.[٤]

وهكـذا نرى أن تلك السياسـة تشكـل استراتيجية بحرية دفاعية تستهدف تأمين الفتـوحات العربية في الشام ومصر، ذلك أن العرب لم يفكروا في ذلك الوقت المبكر من فتوحاتهم في ركوب البحر الأبيض المتوسط والإقدام على المغامرات البحرية التي لايأمنون مغبتها، ولذا اكتفى العرب بوضع حاميات قوية في المدن الهامة مثل اللاذقية وطرابلس وصور وصيدا وعـرقـا وجبيل وبـيروت على الشاطيء الشامي، وفي الإسكندرية وتنيسي ودمياط والبرلس ورشيد على الشاطيء المصري وفي ثغور بنطابلس أو المدائن الخمس وهي معروفة اليوم باقليم برقة[٥]

وظل العرب أمناء على سياستهم البحرية الدفاعية «فكلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها ما تحتاجه من الجند، فان حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الامداد»[٦]

وقد تجلت تلك السياسة البحرية وقدرتها على حماية الشام ومصر حين قام الروم بأشد غارة لهم على هذين الإقليمين سنة ٢٥ هـ، ٦٤٥م[٧] بقيادة مانويل بأمر إمبراطور الروم قنسطانز الثاني فهاجم الإسكندرية وسواحل الشام في وقت واحد حتى يمنع التعاون بين العرب في الدفاع في ظل افتقارهم إلى أسطول بحري قوي. واستطاع قائد الروم أن يفاجيء حامية الإسكندرية وأن يتغلب عليها[٨]

غير أن شدة المقاومة العربية في المدينة أتاحت للخليفة عمر بن الخطاب في الحجاز أن يبعث الإمـدادات إلى مصر وعلى رأسها عمروبن العاص «الذي سبق له الاستيلاء على مصر»[٩] واستـطاع العـرب القضـاء على حملة الروم البحرية بعد عناء وتضحيات جسيمة جعلتهم يضعـون سياسة جديدة لمواجهة أساطيل الروم، وبسبب إدراكه لعظمة القوى البحـرية البيزنطية وسطوتها عمد الخليفة عمر بن الخطاب إلى اتباع سياسة بحرية دفاعية

---

(٤) البلاذري ج ١ ص ١٥٢ عبادي وسالم ص ١٥

(٥) ابراهيم العدوى ـ الاساطيل العربية في المتوسط ١٩٥٧ القاهرة ص ٤

(٦) البلاذري ص ١٣٤

(٧) العدوى ص ٤

(٨) ابن الحكم ـ فتوح مصر ١٥٧

(٩) العدوى ص ٥

(وأصدر توجيهاته الشهيرة التي سبق ذكرها) . وظل العرب يتبعون هذه السياسة إلى أن تهيأ لهم تثبيت أقدامهم وتمكين سيادتهم على الشام ومصر فتطلعوا إلى مجاراة البيزنطيين في سياستهم البحرية الهجومية وبدأوا يؤسسون القوة البحرية العربية الإسلامية حفاظاً على سيادتهم على الشام ومصر [١٠]

وعندما تولى معاوية بن أبي سفيان ولاية الشام، رأى الحالة السيئة التي وصلت اليها تحصينات المدن الساحلية فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يصف له حال هذه السواحل ويقترح عليه إنشاء أسطول للغزو في البحر فرد عليه عمر بأمره « بمرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها وإقامة الحرس على مناظرها. . . إلى آخر ذلك « التوجيه الشهير الذي سبق ذكره» . وامتثل معاوية إلى ما أمر به عمر فحصن الثغور الإسلامية وشحنها بالمقاتلة الذين يرابطون بها طوال فصل الصيف ويتولون حراستها في المناظر والأبراج والمناور وأقطع من ينزل السواحل من المسلمين القطائع والأخائذ»[١١] وعلى هذا النحو أصبحت سواحل الشام سلسلة متصلة من التحصينات التي ترابط فيها الحاميات. [١٢]

وفي مرحلة لاحقة من التاريخ العربي الإسلامي انشغلت الدولة العباسية بمشاكلها الداخلية في آسيا واتبعت سياسة شرقية فخلق ذلك مرحلة خمول في النشاط البحري في المشرق والمغرب وانصرفت الدولة منذ قيامها عن شؤون البحر المتوسط مدة نصف قرن من الزمن (١٣٥ ـ ١٨٥ هـ)، وخلال تلك الفترة لجأ المسلمون في المغرب مرة أخرى إلى الاستراتيجية البحرية الدفاعية فأقاموا نظام الرباطات أو المناور على السواحل التونسية. واقترنت نشأة الرباطات في المغرب بعصر الفتوح وكان ساحله كله معرضاً للغارات االبحرية المفاجئة يوجهها البيزنطيون من قواعدهم في صقلية وسردانية وجنوبي إيطاليا على السواحل التونسية، ولذلك اعتبره المسلمون « ثغراً يعد الرباط فيه جهاداً في سبيل الله وقربة إليه»[١٣]

---

(١٠) عبادي وسالم ص ١٥

(١١) البلاذري الجزء الأول ص ١٥٢

(١٢) ابن الحكم فتوح مصر والمغرب والأندلس ـ القاهرة ١٩٦١ ص ٢٥٨ .

المقريزي ـ كتاب المواعظ والإعتبار طبعة بيروت ١٩٥٩ ج١ ص ٢٩٣

(١٣) حسين مؤنس: مقدمة كتاب رياض النفوس ص ٢٥

وكانت سواحل أفريقيا (تونس) أكثر سواحل المغرب تعرضاً للغزو البحري البيزنطي، وعلى هذا النحو نشأت الأربطة والمحارس أو المناور على طول ساحل أفريقيا وبرقة منذ عصر مبكر، فأقيمت في طرابلس الغرب وما يليها غرباً وفي سفاقس وسوسه والمنستير، وكان الخوف من غارات الروم على السواحل التونسية والاستعداد الدائم للجهاد ضد الروم في صقلية حافزاً على زيادة اهتمام الأغالبة بتحصين هذه السواحل بالرباطات والمحارس[١٤]

وقد لعبت الرباطات دوراً هاماً في الحياة الدينية والحربية ببلاد أفريقيا، وكان الرباط يزود عادة بمنار توقد فيه النار ليلاً للنذير باقتراب سفن العدو، وعن طريق هذه الإشارة تستعد الحاميات المرابطة وتتأهب لملاقاة العدو براً وبحراً[١٥]

وفي الثلث الأخير من القرن الثاني الهجري أخذ المغرب الإسلامي يتجه اتجاهاً بحرياً بعد انفصاله عن العباسيين، وفي وقت لاحق ومنذ نهاية القرن الثاني للهجرة استغل مسلمو المغرب والأندلس لمصلحتهم إهمال البيزنطيين أمر قواتهم البحرية والإضطرابات والحروب التي واجهتهم في الداخل والخارج حتى تغير الموقف في حوض المتوسط الغربي والأوسط وآلت السيادة البحرية إلى المسلمين طيلة القرنين الثالث والرابع للهجرة.

---

(١٤) عبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ص ٤١

(١٥) سيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبيرح ص ٤٤٩

الفصل الرابع

الاستراتيجية البحرية الهجومية

بعد انتصار العرب على الروم في الإسكندرية والشام برزت لدى بعض القادة العرب فكرة نبذ السياسة البحرية الدفاعية لأنها لم تعد كفيلة بالمحافظة عل ممتلكاتهم وأن مقتضيات الظروف تتطلب بناء أسطول عربي في البحر المتوسط يرد عن الشواطيء العربية غائلة الروم وهي في عرض المياه قبل مفاجأتها للسواحل(*) وجاءت تلك الدعوة عنواناً على أن قوة بحرية جديدة حان ميعاد ميلادها.[1]

وكان صاحب الدعوة الأولى إلى اتباع تلك السياسة معاوية بن أبي سفيان عامل الشام (في خلافة كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان) الذي يرجع الفضل إليه في إنشاء الأسطول العربي الإسلامي حيث فطن إلى أهمية الأساطيل في الدفاع عن السواحل أثناء قيام أخيه يزيد بغزو مدن الساحل[2] فقد تعرض للكثير من المصاعب في فتح بعض تلك المدن كقيسارية وطرابلس وعسقلان. وعضد معاوية في تلك الدعوة والي مصر عبد الله بن أبي سرح الذي خلف عمرو بن العاص على ولاية تلك البلاد في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان، كما يرجع سبب سبق معاوية في الدعوة إلى ركوب البحر التجارب القاسية التي مر بها أثناء فتح إقليم الشام مما جعل سياسة العرب البحرية الهجومية تستند إلى أسس وليدة الدرس والتمحيص.

وخرج من العمليات التي قادها لفتح المنطقة الساحلية من بلاد الشام بنتيجة هامة كانت السبب في بناء الأسطول العربي في البحر المتوسط ، وأدرك معاوية أن بقاء العرب

★ وهو مايعرف في فن الحرب البحرية الحديثة ـ (عملية تدمير قوى العدو في البحر)

(١) العدوى ص٧

(٢) عبادي وسالم ص ١٥

واحتفاظهم بممتلكاتهم في الشام ومصر رهن بالإستيلاء على جزر البـ ر الأبيض المتوسط التابعة للروم والتي كانت قواعد بحرية خرجت منها الأمداد إلى مد. الشام أثناء حصار العرب لها [3] وهكذا بدأ بالتفكير في غزو قبرص، وقد تسنى له غزوها عام ٢٨ هـ ٦٤٩م بعد أن أذن له الخليفة عثمان بن عفان بذلك وعقد صلحاً مع أهلها إلا أنهم أخلوا بشروطه فخرج لهم معاوية في أسطول مؤلف من خمسماية سفينة وعدد كبير من الجند واستولى على الجزيرة عنوة وأصبحت قبرص قاعدة دائمة للأسطول العربي في المتوسط، وكان ذلك بداية نشاط بحري عربي اتسم بطابع الإغارات صيفاً وشتاء على جزر الروم التي يخشى العرب خطرها[4] وأظهر العرب في تلك المرحلة المبكرة من تاريخهم البحري فهماً جيداً لطبيعة الجزر التابعة للروم واحتلوا أرواد وصقلية، وسار الأسطول العربي بعد ذلك من نصر إلى نصر إذ انقلبت سياسة الدفاع إلى سياسة الهجوم فاتجه الأسطول العربي شطر رودوس عام ٣٣ هـ / ٦٥٤ م بقيادة جنادة بن أمية الازدي ثم جزيرة إقريطش (كريت)، على أن جزيرة كريت كانت من الضخامة بحيث يصعب على البحرية العربية الاستيلاء عليها في تلك الفترة المبكرة من تاريخها الحربي، لذا اكتفى جنادة بن أمية بما أصابه من فوز في إغارته وعاد بأسطوله إلى الشام[5]

على أن تلك الإغارات البحرية أتاحت للعرب ميداناً تدربوا فيه تدريباً واسعاً ساعدهم على الفوز في أعظم موقعة بحرية عرفها تاريخ البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى ألا وهي موقعة ذات الصوارى، الأمر الذي جعلهم يدركون أنهم أصبحوا قوة بحرية لها خطرها وأن الموقف الجديد أصبح يحتم عليهم الفصل في سيادة ذلك البحر وانتزاعه نهائياً من قبضة الروم.

وكان معاوية هو صاحب الفضل مرة أخرى في دفع العرب نحو التوسع البحري فكما جاهد في سبيل بناء أسطول عربي فإنه عمد إلى دفع العرب للإستيلاء على القسطنطينية عاصمة الروم نفسها[6] واستهل سياسته البحرية التوسعية الهجومية بتقوية الثغور البحرية في كل من الشام ومصر وشحنها بالجند المدربين على ركوب البحر ثم بث النشاط في دور

(٣) العدوى ص ١٠

(٤) العدوى ص ٢٨

(٥) البلاذري ص ٢٢٤

(٦) د. ابراهيم أحمد العدوى : الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط ص ٤٤

الصناعة في مصر والشام لإنتاج السفن الحربية وغيرها من المراكب الخاصة بنقل المؤن والعتاد، وفي نفس الوقت أعد معاوية قواته البرية التي خصصت للتعاون مع القوات البحرية العربية في الهجوم على القسطنطينية. وتعتبر حملات العرب على القسطنطينية حجر الزاوية في بناء سياسة بحرية جديدة[٧]

ومن ناحية أخرى حققت الاستراتيجية الهجومية السيطرة الإسلامية على حوض البحر المتوسط الغربي بفضل تفوق القوى البحرية الإسلامية، وخاصة في القرنين الثالث والرابع للهجرة بحيث يمكننا أن نطلق على هذا العصر عصر السيادة الإسلامية على جزر البحر المتوسط الغربي وعلى السواحل الأوروبية المطلة على هذا القسم من البحر المذكور

وقد طور موسى بن نصير الاستراتيجية البحرية الهجومية للدولة العربية الإسلامية حيث استكمل إنشاء دار صناعة السفن في تونس بعد أن شرع ببنائها حسان بن النعمان[٨] ثم انطلق في غزواته البحرية.

وبعد أن أصبح لتونس اسطولها الخاص اصطنع لنفسه سياسة بحرية من أهدافها إحكام السيطرة على جزر الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط وفي طليعتها جزيرة صقلية حيث اتخذها قاعدة بحرية أمامية تحمي السواحل الإفريقية وتنطلق منها الغزوات المنتظمة على الأندلس وغاله (فرنسا) وطبق موسى بن نصير ومن بعده ولاة افريقيا سياسة تقوم على الضغط المتواصل على الروم في صقلية بحيث لم يترك لأساطيلهم فرصة للتفوق البحري. ثم حشد أسطولاً وعقد عليه لطارق بن زياد فعبر به المجاز (٩١هـ - ٧١١م) إلى الأندلس، عبر المضيق إلى الجبل الذي عرف باسمه (جبل طارق) وكانت تلك بداية فتحها[٩] وامتدت سيطرة المسلمين على جبل طارق حتى عام ١٤٦٢ م.

لقد اتفق المؤرخون حول عملية عبور طارق بن زياد إلى الأندلس وفقاً لتعليمات القائد موسى بن نصير، لكنهم اختلفوا في كيفية العبور والوسائط المستخدمة ومصدرها وعددها ومانسب إلى طارق من حرق السفن وتلك الخطبة العصماء.

لكن المناقشة المنطقية العلمية للحادثة تقودنا إلى الحقيقة التاريخية المجردة المدعمة بأراء المؤرخين الذين ناقشوا هذه المسألة في المؤلفات الحديثة:

---

(٧) نفسه ص ٤٥

(٨) عبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ص ٣١ و ٣٤

(٩) محمد عبد الله عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ص ٤٢

ـ تقول بعض المصادر أن طارق بن زياد قد استعان بسفن يليان صاحب سبتة (٤ سفن)[١٠]، أو سفن التجار التي كانت تختلف بين ساحل طنجة وجبل طارق حتى لايشعر الناس بحركة الغزو، وهذا أمر بعيد عن الحقيقة لأن دار الصناعة بتونس كانت تنتج سفناً كثيرة اشتركت في كثير من الغزوات البحرية ضد الروم، فمن الطبيعي إذن ألا يغامر موسى بجيشه لينقله إلى الأندلس بسفن أربع «لاصناعة له غيرها»[١١] تنقل فوجاً بعد فوج بين ساحلي المجاز (المحيط) مرات عديدة قد تستغرق أكثر من يومين لنقل الجيش ومعداته، الأمر الذي يعرض القوات للكشف المبكر من قبل العدو والاستعداد لمهاجمتها فور نزولها، وهذا يتعارض مع مبادىء التموية العملياتي والمفاجأة والحشد اللازم لرأس الجسر ودعمه. إن تلك المسائل لايمكن أن تغيب عن ذهن قائدين كبيرين مثل موسى بن نصير وطارق بن زياد.

ـ إذا كانت هذه السفن حقاً ليليان فكيف يجوز لطارق أن يحرقها ليحث رجاله على الاستبسال في القتال، فيقاتلوا قتال الموت؟ وهذا يدفعنا إلى عدم التصديق بأن يقدم طارق على مثل هذا العمل الذي يدل على جهل في القيادة وفن الحرب لأن ذلك يقطع عليه خط الرجعة. ويبدو أن طارق قد أخرق بعض السفن حتى يدفع الحماس في جنوده فيوطنو أنفسهم على الاستشهاد أو الفتح، فحذف النساخ النقطة من الخاء[١٢] لأن الخرق يمكن مداواته.

ـ يرى بعض المؤرخين أن عدد السفن التي استخدمها طارق لنقل الجيش لايقل عن ٣٥ سفينة إذا اعتبرنا أن كل سفينة تتسع لما يقرب من (٢٠٠) رجل:

٣٥ × ٢٠٠ = ٧٠٠٠

بالإضافة إلى مراكب أخرى لنقل المعدات والأقوات التي استخدمت في عملية النزول بالأندلس[١٣]

وبعد أن وجه موسى بن نصير طارق بن زياد لوجهته أمر بصناعة المزيد من السفن لنقل دفعة جديدة من الجند عدتها خمسة آلاف مدداً لطارق[١٤]، كما انتجت دار الصناعة

---

(١٠) مجهول: أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس نشره دون لافونت، مدريد ١٨٦٧ ص ٦

(١١) أحمد بن محمد المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب تحقيق الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد ج ١ ص ٢٣٨

(١٢) عبادي وسالم (مصدر سابق) ص ٣٧

(١٣) المصدر السابق ص ٣٧

(١٤) المقري (مرجع سابق) ج ١ ص ٢٤١

بتونس عدداً آخر من السفن استخدمها موسى في حملته على الأندلس سنة ٩٣ هـ، وهي حملة أضخم بكثير من حملة طارق، إذا كان جيشه يتألف هذه المرة من ١٨ ألفاً من العرب ووجوه الناس[١٥] وتابع ولاة المغرب بعد موسى بن نصير تلك الاستراتيجية البحرية الهجومية التماساً للجهاد ضد البيزنطيين، حيث استمروا في غزو جزر الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

وكان من نتيجة تلك الاستراتيجية البحرية الهجومية السيطرة على تلك الجزر وفتح الأندلس ثم الانطلاق شرقاً نحو القسطنطينية كما حدد الخليفة الراشد عثمان بن عفان في توجيهه الشهير: «أما بعد فإن القسطنطينية تفتح من قبل الأندلس»[١٦]

---

(١٥) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس بيروت ١٩٦٢ ص ٩٤

(١٦) انظر فصل التوجيهات البحرية العملياتيه الفقرة خ الخليفة الراشد عثمان بن عفان

الفصل الخامس

فن الحرب البحرية في المعارك البحرية الشهيرة عند العرب

أ - غزو جزيرة قبرص وفتحها: «٢٨ - ٢٩ هـ / ٦٤٨ - ٦٤٩م» «٣٢ هـ / ٦٥٣م»

كانت هذه الجزيرة من أقدم المعاقل في شرق البحر الأبيض المتوسط وحرصت القوى المتنافسة فيه على إبقائها في دائرة نفوذها[١]. ومنذ أن بزغت شمس الحضارات في حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي والصراع مستمر على سيادة جزيرة قبرص التي تعد حجر الزاوية في قوة أية دولة تصل إلى مركز الزعامة في بلاد الشرق الأدنى[٢]

وتستمد جزيرة قبرص أهميتها من موقعها الجغرافي حيث تحتل ركناً ممتازاً في الزاوية الشمالية الشرقية من البحر الأبيض المتوسط يؤمن لها سهولة التحكم في مياه هذا الشطر الشرقي من البحر بما يطل عليه من البلاد، اذ يمكن للمرء أن يرى من قبرص بالعين المجردة آسيا الصغرى والشام ويبحر منها مباشرة وفي وقت قصير، إلى بيروت أو بور سعيد أو الإسكندرية أو اللاذقية أو الإسكندرونة.

وأدرك معاوية أهمية هذه الجزيرة وضرورة الإسراع بالهجوم عليها بسبب إغارات الروم على الشام واتخاذهم جزيرة قبرص محطة تموين في الطريق وملجأ يعتصمون به حين تدفعهم الأحداث إلى الإنسحاب .

حشد معاوية أساطيله وقواته في عكا، واشترك مع الجند العرب كبار رجال الشام وغيرهم من مشاهير قادة العرب مثل عبادة بن الصامت وزوجته أم حرام وزوجة معاوية

---

(١) العدوى (٢١).

(٢) HILL, HISTORY OF CYPRUSI,1

وأخته وكذلك أبو ذر وأبو الـدرداء وعمر بن سعد الأنصاري وشداد بن أوس والمقداد وغيرهم من صحابة رسول (ص)[3]

وأقلع الأسطول من عكا ووجهته قبرص، كما سار إليها من الإسكندرية أسطول آخر بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح وتقابل الأسطولان في قبرص (ذكر بعض المؤرخين أن عدد السفن بلغ ٢٠٠ سفينة وبعضهم زاد عليه كثيرا)[4]

وبعد أن أنزل العرب عدتهم وعتادهم إلى الشاطيء أعلموا أهالي الجزيرة بأهدافهم وهي الإتفاق معهم على ما فيه سلامة الشواطيء العربية لكن سكان الجزيرة رفضوا الإتفاق، تحت ضغط الروم، واعتصموا بأسوار مدنهم، فتقدمت القوات العربية نحو العاصمة قنسطنطينا (Constantina) التي كانت غاصة بالسكان وبها جميع ثروات الجزيرة وذخائرها، وبعد حصار قصير اقتحم العرب المدينة واستولوا على كنوزها وأخذوا كثيراً من الأسرى واضطر حاكم العاصمة إلى عقد صلح مع العرب[5]وفق الشروط التالية:

- دفع جزية سنوية قدرها ٧٢٠٠، دينار

- عدم مساعدة الروم في إغارتهم على أراضى الشام وألا يطلعوهم على أسرار تحركات الأسطول العربي.

- تزويد العرب بأنباء أية حملة رومية ضد شواطيء الشام ومصر.

وفي سنة ٣٣هـ / ٦٥٣م أخل أهل قبرص بشروط الصلح فأرسل معاوية أسطولاً مؤلفاً من ٥٠٠ سفينة بقيادة أبي الأعور عامر بن سفيان السلمي وأخضع الجزيرة ثم ترك بها حملة من اثني عشر ألف رجل. وتمكن هذا القائد العربي بعد ذلك من الهجوم على جزر رودس وكريت،[6] وصارت قبرص منذ ذلك الحين قاعدة دائمة للأسطول العربي في البحر المتوسط تنطلق منها السفن العربية لصد سفن الروم قبل أن تهجم على شواطيء الشام ومصر وتجنب الحاميات المقيمة على تلك الشواطيء أخطار الهجمات المفاجئة.

ونستخلص من احتلال قبرص ما يلي:

أ ـ تم خلال العملية تجهيز القوات وتحميلها على السفن ونقلها بحراً وإنزالها على البر

---

(٣) الملاحة وعلوم البحار عند العرب. د. أنور عبد العليم ص ٩٢.

(٤) د. عبد العليم ص ٩٢

(٥) البلاذري ص ١٦٠ «فتوح البلدان».

(٦) د. عبد العليم ص ٩٢.

معاوية يفتح قبرص — للرسام مصطفى فروخ

مع عتادها ومعداتها بالإضافة إلى سفن الإمداد ، وذلك يشكل إجراءات كاملةً لعملية إنزالٍ بحري من منظور فن الحرب البحرية الحديثة .

ب ـ تم حشد السفن والقوات أولاً في قاعدة عكا ثم جرى التنسيق لالتقاء أسطولين من الشام ومصر ليصلا في وقت واحد إلى الجزيرة (انتشار عملياتي) ويعملا تحت قيادة موحدة تخوض الحرب بها لتحقيق النصر وهذا يشكل تعاوناً عملياتياً من وجهة نظر فن الحرب .

ج ـ استهدفت العملية تحقيق أهداف استراتيجية ذات أهمية بالغة :

ـ تأمين قاعدة دائمة للأسطول العربي ذات موقع استراتيجي هام والقضاء على قاعدة معادية وتركيز قوات دائمة للإنطلاق إلى الجزر الرومية الأخرى ومن ثم الإنطلاق نحو القسطنطينية .

د ـ اكتسب العرب خبرة واسعة في الإبحار والإنزال وأمنوا شواطئهم من الهجمات الرومية المفاجئة .

هـ ـ إن هذا النصر البحري الأول رفع من روح العرب المعنوية وأزال ما اتصفت به أحاسيسهم من تهيب لركوب البحر .

و ـ إن إبحار ذلك العدد الضخم من السفن يتطلب قيادة عالية المستوى وتنسيقاً كاملاً وتعاوناً وثيقاً وقدرة كبيرة في الإمداد وكذلك تنظيم الإتصال والمراقبة وهذا يدل على مستوى عسكري بحري رفيع من منطلق ذلك العصر ومن منطلق فن الحرب البحرية الحديثة .

ب ـ معركة ذات الصواري : (٣٤هـ ـ ٦٥٥م)

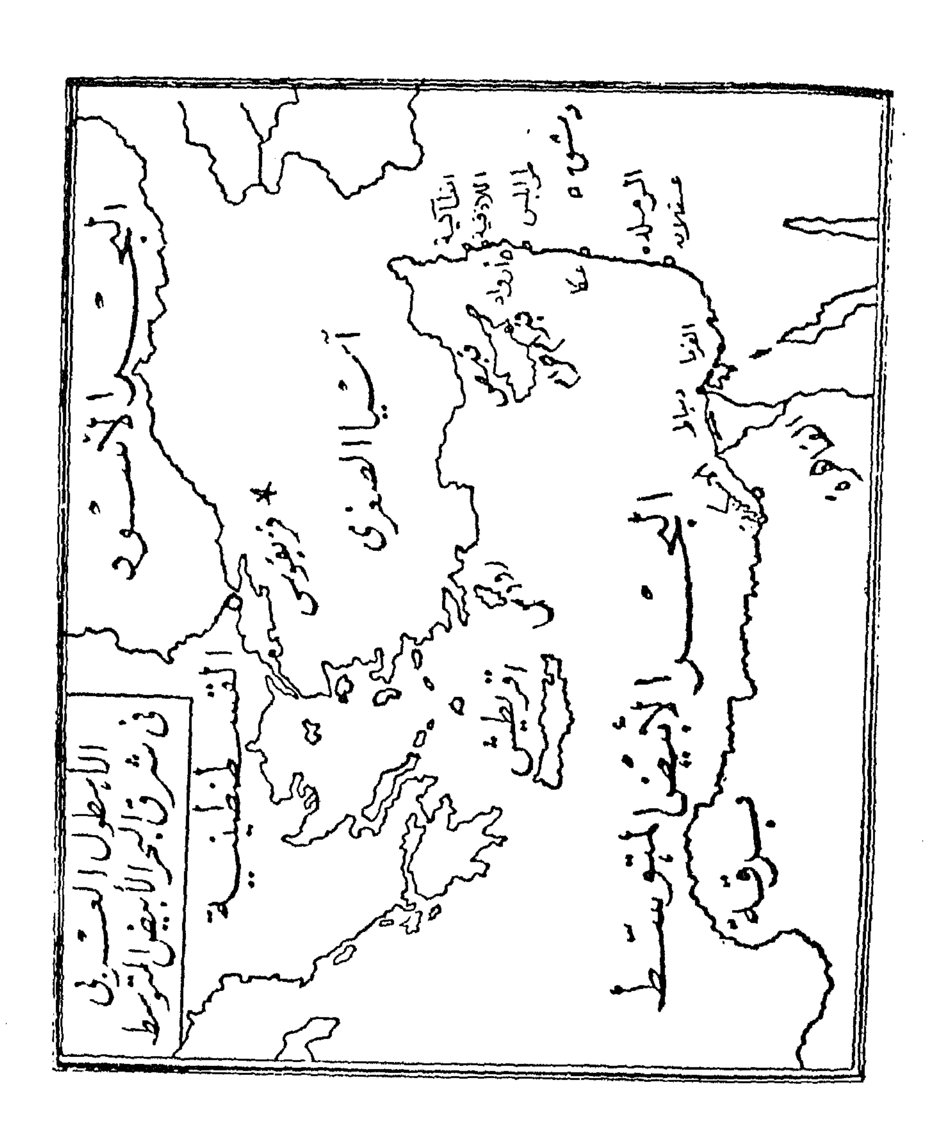
يجمع المؤرخون على أن معركة ذات الصواري كانت معركة فاصلة حاسمة بين العرب والروم تقرر فيها مصير البحر الأبيض المتوسط[٧] « وأن المعركة انتهت بانتصار حاسم للمسلمين[٨] وتعد حداً فاصلاً في تاريخ البحر المتوسط ذلك أن قنسطانز كان يرمي إلى تحطيم

★ قزيقوس : اسم جزيرة ، وتعرف في المصادر العربية باسم جزيرة أرواد، اتخذت منها الأساطيل الإسلامية «قاعدة متقدمة» أثناء حصار القسطنطينية لتجميع القوات والتموين، والإنطلاق منها.

★ ★ قبر أم حرام : هو قبر أم حرام بنت ملحان الأنصارية زوجة عبادة بن الصامت شاركت في غزو جزيرة قبرص بقيادة معاوية (٢٨ هـ ٦٤٩م) حيث توفيت ودفنت في هذا الموقع

(٧) العدوى ص ٣٦ .

(٨) الطبرى ج ٣ ص ٦٩ .


الأسطول العربي
في شرق البحر الأبيض المتوسط
البحر الأسود
القسطنطينية
فزيقوس
آسيا الصغرى
اقريطش
رودس
قبرص
أرواد
انطاكية
اللاذقية
طرابلس
دمشق
عكا
الرملة
عسقلان
البحر الأبيض المتوسط
الفرما
دمياط
الاسكندرية
القاهرة
برقة

قوة المسلمين البحرية في مهدها ولو أنه وفق في ذلك لظلت سيادة البحر المتوسط أو حوضه الشرقي على الأقل بيد البيزنطيين دون المسلمين»[9]ولكنهم يختلفون في أسباب قيام تلك المعركة ومكان حدوثها:

- الدكتور ابراهيم العدوي، استاذ التاريخ الإسلامي في جامعة القاهرة، يذكر «وعجل قنسطانز باستخدام أسطوله حين ترامت اليه سنة ٦٥٥ م أنباء استعدادات بحرية هائلة يعدها معاوية بن أبي سفيان والي الشام إذ ذاك لضرب القسطنطينية ذاتها عاصمة الروم، وجهد قنسطانز على أن يتلافى هذا الخطر العربي المقبل على عاصمته قبل اقترابه منها وعول على الخروج قاصداً الشام ليدمر الأساطيل العربية هناك قبل إبحارها من قواعدها. . . أعاد معاوية حشد قواته على حين وصلت سفن من مصر إلى سواحل الشام وخرج الأسطول العربي الشامي ـ المصري قاصداً القسطنطينية[10]

- الدكتور أنور عبد العليم أستاذ علوم البحار بكلية العلوم ـ جامعة الملك عبد العزيز (السعودية) ذكر:

« . . . إذحاول إمبرطور الروم قسطنطين (كونستانز) الثاني إرجاع مدينة الاسكندرية من العرب فجهز حملة ٧٠٠ ـ ١٠٠٠ سفينة تصدت لها ٢٠٠ سفينة إسلامية مصرية وسورية بقيادة عبد الله بن أبي السرح وتمكنت من هزيمة البيزنطيين[11]».

- ويؤيده في ذلك جميل خانكي إذ يقول: « لعل أول انتصار بحري أحرزه الأسطول المصري في ذلك العهد عند قدوم الإمبراطور البيزنطي قنسطانت الثاني بن هرقل لغزو الإسكندرية. . . على رأس أسطول مكون من ١٠٠٠ سفينة وفي رواية أخرى ٥٠٠ فقط . . . وقد اشترك معاوية في هذه الموقعة البحرية إذ أنه لما بلغه مقدم ابن هرقل خرج من الشام بأسطوله وانضمت وحداته إلى مراكب عبد الله بن سعد»[12]

- بينما يرى المؤرخان الدكتور أحمد مختار العبادي والدكتور السيد عبد العزيز سالم رأياً مخالفاً تماماً في قولهما « . . . ولما كانت الموقعة قد دارت بالقرب من ساحل ليكيا فالأرجح أن هناك سبباً آخر دعا العرب إلى الاقتراب من هذا الساحل بآسيا الصغرى، وأعتقد أنهم كانوا

---

(٩) فتحي عثمان ج ٢ ص ٣٣٨ (الحدود الإسلامية البيزنطية)

(١٠) العدوي ص ٣٨.

(١١) د. أنور عبد العليم ـ الملاحة وعلوم البحار عند العرب ص ٩٢.

(١٢)تاريخ البحرية المصرية ـ جميل خانكي ص ١٣٧

يسعون إلى الحصول على مصدر جديد للأخشاب الجيدة اللازمة لصناعة السفن مثل خشب البلوط الصلد اللازم لصناعة الصواري والقرايا والأقواس»[١٣].

« كما أن التفسير الذي أورده الدكتور ابراهيم أحمد العدوي للإشتباك البحري في ذات الصواري ويتلخص في أن أخباراً ترامت إلى قنسطانز ياستعدادت بحرية هائلة وأخرى برية يقوم بها معاوية لضرب عاصمة البيزنطيين الضربة الأخيرة يبدو لنا غير مقنع لأنه لايستند لا على أسانيد وثائقية ولا حتى على استدلالات منطقية. . . . »[١٤] ويرى المؤرخان المذكوران : « أن قنسطانز قد ترامت اليه أنباء هذه الحملة (يقصد حملة للحصول على الأخشاب) بدليل أنه كان متأهباً لاستقبال سفن الأسطول الإسلامي بسفن لم ير العرب مثل عددها قط، ولو أن العرب كانوا ينوون حقاً غزو القسطنطينية لما غامروا بالخروج في سفن قليلة نسبياً ولما هالهم عدد السفن البيزنطية. . . »[١٥]

أما ما يتعلق بموقع المعركة فهناك أيضاً تباين واضح في تحديده، فنرى الدكتور أنور عبد العليم يقول:

« وسميت هذه الموقعة بذات الصواري لكثرة صواري السفن التي استخدمت فيها»[١٦] ويرى الرأى نفسه السيد جميل خانكي : « . . . عرفت في المراجع العربية بغزوة ذات الصواري لكثرة ساريات السفن التي التحمت في القتال، واشتهرت في المصادر الأوربية بوقعة فونيكة (Phoenicus) لوقوعها بالقرب من ثغر فونيكة غرب الاسكندرية»[١٧]

ـ وقد أورد الدكتور ابراهيم العدوي نفس الرأي « عرفت بوقعة ذات الصواري بسبب كثرة صواري السفن المشتركة في القتال.»[١٨]

ـ أما الدكتور العبادي والدكتور سالم فيريان رأياً مخالفاً تماماً بالإستناد إلى مراجع تاريخية معروفة : « . . . ونستدل على هذا الرأي بأن كلمة ذات الصواري لم تطلق نسبة إلى كثرة صواري السفن كما يزعم فريق من المؤرخين العرب[١٩] ولكن نسبة إلى موقع بهذا الإسم

---

(١٣) تاريح البحرية الإسلامية في مصر والشام د. عبادي ود. سالم ص ٢٩.

(١٤) تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام د. عبادى ود. سالم ص ٢٩.

(١٥) تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام د. عبادى ود. سالم ص ٣٠.

(١٦) د. عبد العليم ص ٩٣.

(١٧) خانكي ص ١٣٧ وتقول د. سعاد ماهر تقع فونيكه بالقرب من مدينة مرسى مطروح الحالية (البحرية في مصر الإسلامية ص ٨٤).

(١٨) العدوى ص ٤٢.

(١٩) الكندي ـ كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ١٣.

استنتاجاً من قول الطبري (فركب في مركب وحده ما معه إلا القبط حتى بلغوا ذات الصواري فلقوا جموع الروم في خمسماية مركب أو ستمائة)[20] وقوله أيضاً: « وأقام عبد الله بذات الصواري بعد هزيمة الروم[21]ولايمكن أن يسمى موضع بهذا الاسم إلا لكونه مصدراً لأخشاب تصنع منها الصواري[22]

كان الإمبرطور قنسطانز الثاني يؤمن بأن المقادير قد ادخرته لانقاذ دولته من ضعفها ودفع خطر الأسطول العربي عنها، فبادر لإعداد الوسائل التي تمكنه من المحافظة على وحدة بلاده والقضاء على طلائع البحرية العربية التي هجمت على دياره، وأخذ في تدعيم قوة الروم البحرية وبعث الحياة في قواعد بلاده البحرية واتخذ الإجراءات التي تكفي لخلق تعاون بحري بين آسيا الصغرى وبلاد اليونان وأعاد بناء أسطول قوي عمد إلى اتخاذه سبيلاً لطرد العرب من مياه البحر الأبيض المتوسط واسترداد سيادة الروم على ذلك البحر.

«وعجل قنسطانز باستخدام أسطواله حين ترامت إليه في سنة ٦٥٥ م أنباء استعدادات بحرية هائلة يعدها معاوية بن أبي سفيان، والي الشام إذ ذاك لضرب القسطنطينية نفسها عاصمة الروم وجهد قنسطانز على أن يتلافى هذا الخطر العربي المقبل على عاصمته قبل اقترابه منها وعول على الخروج قاصداً الشام ليدمر الأساطيل العربية هناك قبل إبحارها من قواعدها[23]إلا أن المقريزي في كتابه المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار ج ١ ص ١٦٩ يذكر توجهاً آخراً حيث يقول في وصف المعركة :

« قدم قسطنطين بن هرقل لغزو الإسكندرية سنة ٣٤ هـ على رأس أسطول من ١٠٠٠ سفينة. . .)

وقد نشط وكلاء الروم في الشام لعرقلة استعدادات العرب البحرية وكان معاوية قد حشد معداته البحرية في مدينة طرابلس فقام اثنان من الروم بفتح سجن المدينة وأطلقا سراح عدد كبير من أسرى الروم ثم هاجموا دار الحاكم العربي وأحرقوا العدد والعتاد التي بذل معاوية في جمعها كثيراً من الجهد والعناء ثم فروا جميعاً إلى آسيا الصغرى[24]لكن الأسطول

---

(٢٠) الطبري ج ٥ ص ٧٠.

(٢١) الطبري نفسه ابن الأثيرج ٣ ص ١١٨.

(٢٢) عبادي وسالم ص ٣٠.

★ ملاحظة : لقد تبينا في دراستنا فكرة أن المعركة نشبت بالقرب من آسيا الصغرى.

(٢٣) العدوي ص ٣٧ ـ ـ ٣٨ (سبق ذكره لضرورة السرد التاريخي للأحداث).

(٢٤) العدوي ص ٣٨، (Fimaly' History of Greece, 377)

العربي ظل سلبياً وبذلك أعاد معاوية حشد قواته، على حين وصلت سفن من مصر بقيادة واليها عبد الله بن أبي السرح إلى سواحل الشام وخرج الأسطول العربي (الشامي المصري) قاصداً القسطنطينية(*) وعندما وصل الأسطول العربي إلى ليكيا بآسيا الصغرى ألقى مرساه عند فونيكس phoenix (**) وبلغه نبأ اقتراب أسطول الروم وعلى رأسه الإمبراطور قنسطانز نفسه.[٢٥]

وكا قنسطانز ابن هرقل قد «خرج في جمع لم يجتمع للروم مثله منذ كان الإسلام»[٢٦] وكان اسطوله يتألف من خمسماية سفينة مزودة بآلات الحرب، راع العرب منظرها ولاسيما الذين سبق لهم أن اشتبكوا مع الروم في معارك بحرية ووصف أحد المشتركين في الحملة البحرية العربية شعوره حين تقابل (الاسطول العربي مع سفن الروم قائلاً: «فالتقينا في البحر فنظرنا إلى مراكب مارأينا مثلها قط[٢٧]».

وكانت مراكب المسلمين مئتي مركب ونيفاً فقام عبد الله وقال للناس: «بلغني أن ابن هرقل قد أقبل عليكم في ألف مركب فأشيروا علي» فقام رجل من أهل المدينة كان متطوعاً مع عبد الله فقال: أيها الأمير إن الله مع الصابرين» فقال عبد الله: «اركبوا»[٢٨] وكان قائد أسطول الشام في معركة ذات الصواري بسربن أرطاة[٢٩]

وحين التقى الجمعان في البحر كانت الرياح غير ملائمة فقضى العرب و الروم ليلتهما انتظاراً لما يسفر عنه الصباح. وأخذا يستعدان فيها ويعملان على تقوية الروح المعنوية، فبات العرب يصلون ويدعون الله، في حين قضى الروم ليلتهم يضربون بالنواقيس، وفي صبيحة اليوم التالي دارت المعركة واشترك فيها الإمبراطور قنسطانز نفسه حيث أخذ يصدر من سفينته تعليمات لقتال العرب ويتابع منها الأنباء بانتظام عن سير المعركة[٣٠]

بدأ العرب القتال بالأقواس والسهام فأدرك قنسطانز تفوق جنده عليهم لأن العرب يجيدون هذا السلاح في الحروب البرية فقط وأن الموقف الآن بحري وليس برياً، وأن

---

(٢٥) العدوي ص ٣٨.

(٢٦) الطبري ج ٥ ص ٦٩.

(٢٧) الطبري ج ٥ ص ٦٩.

★★ أي العنقاء.

(٢٨) المقريزي ج ١ ص ١٦٩ بعض المراجع تذكر ١٠٠٠ سفينة وبعضها ٥٠٠.

(٢٩) د علي حسني خربوطلي: الإسلام في حوض البحر المتوسط ص ١١.

(٣٠) الطبري ح ٥ ص ٧٠.

ذخيرتهم سوف تنفذ سريعاً، وتحقق ما رآه قنسطانز إذ اضطر العرب لاستبدال الأقواس والرماح التي نفذت بالحجارة وقذف العدو بها، وهنا أيقن الامبراطور مرة أخرى أن الفوز حليف أسطوله.

غير أن العرب حين رأوا نفاذ ذخيرتهم من الحجارة وأن العدو مازال بعيداً عن متناول سفنهم وأنه يرواغ ويماطل لإنهاك قواهم ربطوا سفنهم بعضها إلى بعض وقذفوا خطاطيف في البحر جذبوا بها سفن الروم إليهم ثم أخذوا من ظهور السفن المتلاحمة ميادين قتال أشبه بميادين البر. وحين وصلت أنباء تلك الخطة الجديدة إلى الإمبراطور قنسطانز أدرك فشل حملته وأن الهزيمة لاشك محيقة بجنده[٣١]

«فلقوهم فاقتتلوا بالنبل والنشاب وتأخر ابن هرقل لئلا تصيبه الهزيمة وجعلت القوارب تختلف اليه بالأخبار فقال: «ما فعلوا ؟» قالوا: «قد اقتتلوا بالنبل والنشاب» فقال: «غَلبت الروم» ثم أتوه فقال: «مافعلوا» قالوا: «قد نفذت الحجارة وربطوا المراكب بعضها ببعض يقتتلون بالسيوف قال: «غُلبت الروم»[٣٢]

وتحقق استنتاج قنسطانز إذ وثب العرب على الروم بالسيوف والخناجر وأعملوا فيهم التقتيل واشتد الصراع وكثر القتلى حتى وصف شاهد عيان هذه المعركة قائلاً: «رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاماً»[٣٣]و «وقتل عدد وفير من الطرفين المتحاربين إلى أن انهزم ابن هرقل جريحاً ولم ينج من الروم إلا الشريد»[٣٤]

وقد أبدى الفريقان المتحاربان من صنوف التفاني في الواجب وضروب الشجاعة ما سجلته مراجع العرب والروم على السواء[٣٥] ومن الأمثلة على ذلك أن العرب نسوا في غمرة المعركة مخاوفهم واستماتوا في الدفاع عن سفينة القيادة التي أقلت والي مصر عبد الله بن أبي سرح، فقد عمد الإمبراطور قنسطانز حين علم بخطط العرب الجديدة إلى نشر الفوضى في صفوفهم بالقضاء على سفينة القيادة عندهم، فأمر جنده بقذف خطاف علق على سفينة أمير البحر العربي عبد الله بن أبي السرح وأخذ الروم يجذبون المركب العربي اليهم. وكاد الروم ينجحون في أسر مركب القيادة العربي لولا شجاعة أحد الجنود العرب ويدعى «علقمة بن

---

(٣١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر ص ١٦٠.
(٣٢) المقريزي ج ١ ص ١٦٩.
(٣٣) الطبري ج ٥ ص ٧٠.
(٣٤) ابن الأثير (الكامل في التاريخ) ج ٣ ص ٤٨.
(٣٥) العدوى ص ٥٠.

يزيد العطيفي». إذ رمى هذا الجندي بنفسه على السلاسل التي كانت تجذب سفينة القيادة العربية وأخذ يعمل فيها القطع برغم ماتعرّض له من ضربات العدو وسهامه وكلل عمل علقمة بالنجاح اذ قطع السلسلة وأنقذ سفينة القيادة العربية من الوقوع في الأسر. ونال هذا الجندي العربي ثناء زوجة أمير البحر التي تسمى بثينة.

حيث كانت على ظهر السفينة أثناء القتال وقد شاءت الأقدار فيها بعد أن يظفر ذلك الجندي بزواجه من بثينة بعد وفاة زوجها[٣٦]وهلك عنها علقمة فتزوجها كريب بن أبرهة[*]وقد حضر المعركة.

وأظهر الروم في تلك المعركة تفانياً في الدفاع عن سفينة قيادتهم إذ بعد نجاح العرب في إنقاذ سفينة قيادتهم هجموا على الروم بشدة واقتحموا السفينة المقيم عليها الامبراطور وأعملوا القتل في جندها، وكاد الإمبراطور يقع في قبضة العرب لولا أنه تنكر فاستبدل زيه بملابس ابن أحد ضاربي الطبول على سفينة وهرب من المعركة على مركب آخر فر به الى صقلية[٣٧]

وبفرار الإمبراطور قضى العرب على تلك (الأرمادا) التي أعدها الروم، وخرجوا ظافرين من معركة حامية الوطيس.

وتجلت أولى النتائج الهامة التي ترتبت على انتصار الأسطول العربي في تلك الواقعة الفاصلة في تدعيم سيادة العرب على الشواطيء الشرقية للبحر الأبيض المتوسط وطلق أباطرة الروم فكرة استرداد البلاد التي كانت تابعة لهم من يد العرب وفضلوا الإعتراف بالأمر

ت قع

إن دراسة معركة ذات الصوارى من وجهة نظر فن الحرب البحرية الحديثة تقودنا إلى النتائج التالية:

أ ـ تصميم الروم البيزنطيين على وضع حد لنشاط البحرية العربية وكسر شوكتها نهائياً بعد تحقيق التعاون بين آسيا الصغرى واليونان لكن تقديراتهم وخططهم فشلت في تحقيق الهدف المنشود.

ب ـ دلت المجهودات العربية على أن الأسطوال العربي قد أصبح قوة كبيرة وحقيقة واقعة خاصة بعد أن بلغ التعاون بين الشام ومصر أوجه.

---

(٣٦) المقريزي ج ١ ص ١٦٩ رأورده خانكي بسيسة ووردت في بعض لمصادر بثيثه).

(٣٧) العدوي ص ٤١.

ج ـ خاض الجانبان عملية بحرية تسمى في فن الحرب الحديثة (عملية تدمير قوى العدو في البحر بعد أن كان البيزنطيون يخططون لخوض (عملية تدمير قوى الأسطول العربي في القواعد).

د ـ يستدل من دراسة المراجع التاريخية أن الروم قد فرضوا توقيت المعركة لكن النتيجة جاءت نصراً للعرب.

هـ ـ استخدام الأسطول العربي أسلحة البر في البحر. (القوس والنشاب والمقلاع والحجارة والسيوف والخناجر).

و ـ خلال سير المعركة ابتكر البحارة العرب من وحي الموقف في ساحة القتال أسلوباً تكتيكياً مناسباً إذ ربطوا السفن إلى بعضها وجذبوا اليها سفن العدو ومدوا الجسور وحولوا المعركة إلى ما يشبه المعركة البرية.

ز ـ اعتمد البحارة العرب على الشجاعة والقوة والتضحية والمبادرة الفردية والإيمان وعقيدة الجهاد.

ح ـ استشار أمير البحر العربي مرؤوسيه في التصدي للأسطول المعادي قبل اتخاذ القرار بالهجوم، وهذا يشبه الى حد ما أسلوب القادة في اتخاذ قرار المعركة في العصر الحديث.

ط ـ طبق أمراء البحر العرب مبادىء التعاون على مستويات عالية استراتيجية وعملياتية بين قطرين وبين أسطولين انضويا تحت قيادة واحدة (أمير البحر عبد الله بن أبي سرح والي مصر).

ى ـ لجأ معاوية إلى تجهيز القوات وحشدها تمهيداً للإنطلاق من طرابلس ثم اشترك في المعركة نظراً لأهميتها (حسب بعض المصادر التاريخية)[٣٨] مستوى قيادي مناسب للعملية.

ك ـ طبق أمراء البحر العرب مبادىء التوجيه المعنوي والديني قبل بدء الحرب (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة).

ل ـ إن الإبحار بالأساطيل الكبيرة على هذه المسافات البحرية الشاسعة يدل على

★ شأن العرب بعد الإسلام في الحروب حين كانوا يتزوجون الأيامى زوجات الأبطال والشهداء جبراً لخواطرهن وصوناً لكرامتهن

(٣٨) خانكي ص ١٣٧.

خبرة واسعة في القيادة والسيطرة والإمداد والملاحة البحرية والإستطلاع لدى بحارة الأسطول العربي الإسلامي.

م ـ استخدم الطرفان الجواسيس لمعرفة استعداد وتجهيزات وتحركات كل طرف.

ن ـ إن استخدام الأسطول البحري لتحقيق أهداف استراتيجية كبرى يدل على مدى اتساع الأفق السياسي والعسكري للقادة العرب في ذلك التاريخ.

س ـ إن الخبرات المكتسبة والدروس المستفادة من هذه العملية البحرية الكبيرة قد ساعدت الأسطول العربي لاحقاً في غزو القسطنطينية وفي خوض المعارك البحرية اللاحقه وساعدت إلى حد كبير في ترسيخ المجد البحري العربي في صفحات التاريخ العالمي.

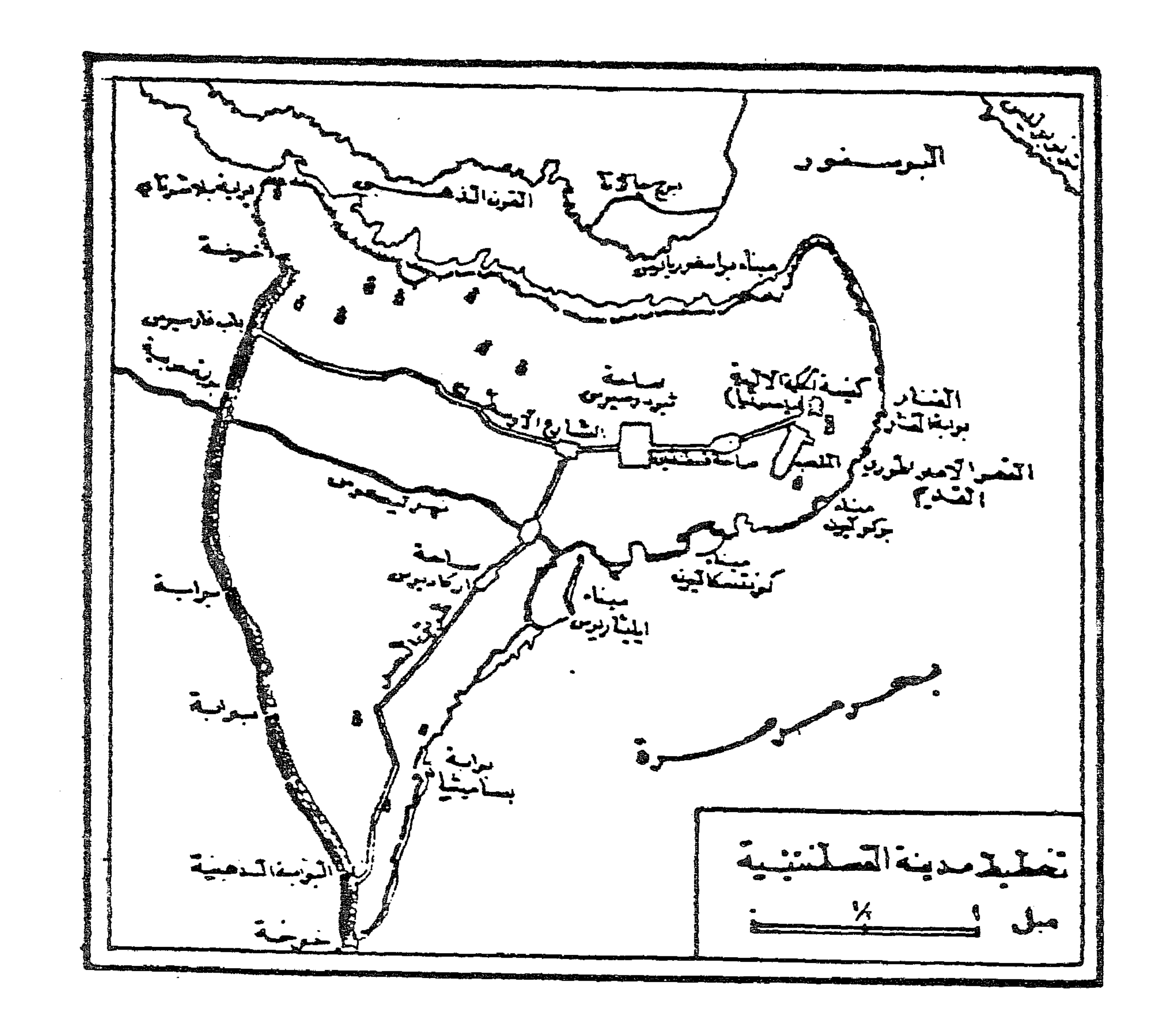
ع ـ وبصورة عامة كانت مراحل المعركة تدريباً ميدانياً للأسطول العربي الإسلامي.

ح ـ الحملات البحرية العربية الإسلامية على القسطنطينية (حصار القسطنطينية)[*]:

شكلت معركة ذات الصواري حافزاً قوياً للقادة العرب وأدركوا أنهم أصبحوا قوة بحرية لها مكانتها الهامة في البحر الأبيض المتوسط وأن الموقف الجديد أصبح يحتم عليهم الفصل في سيادة ذلك البحر وانتزاعه نهائياً من قبضة الروم البيزنطيين. وكان معاوية هو صاحب الفضل في دفع العرب نحو التوسع البحري. فبعد أن عمل على بناء أسطول عربي قوي في البحر المتوسط عمد إلى دفع العرب للإستيلاء على عاصمة الروم، وما كاد يصبح خليفة للدولة الأموية حتى أخذ يعد الأسطول العربي لمساعدة قواته البرية في احتلال القسطنطينية التي كانت تغذي جزر حوض المتوسط الشرقي بالقوات والامدادات وتدفع أهلها لشن الغارات على السواحل العربية في مصر والشام.

★ وقد تقصى أخبار معركة ذات الصواري جاستون فبيت (استاذ اللغات الشرقية في جامعة باريس والمدير السابق للمتحف الوطني بالقاهرة) فذكر في الجزء الذي ألفه عن تاريخ الوطن المصري في مجموعة جبرائيل هانوتو: «إن ماريوس كانار تعقب ذكر هذه المعركة فتوصل إلى أن الجنود البيزنطيين خرجوا من الأسطول الى البر ودخلوا إلى الإسكندرية فخف إليهم عمرو بن العاص بجيش بري وكان يمينهم أسطول عربي، فهزم العرب الروم في البر، ورمى الروم بأنفسهم على مراكبهم وقتل رئيسهم البطريق مانويل في معركة جرت في شوارع الإسكندرية بين العرب والروم...». وناقش نفس المؤرخ اسم المعركة فقال: «إن العرب تسميها ذات الصواري لأن أعمدة المراكب البيزنطية والعربية قد التحم بعضها ببعض في هول التقابل...» لكننا لم نورد تلك الآراء في متن الموضوع لمخالفتها للتاريخ والمنطق. (ص ٢٨ ص ٢٩ من المرجع المذكور).

★ جرت ثلاث محاولات عربية إسلامية لفتح القسطنطينية: الأولى زمن عثمان بن عفان. والثانية: زمن معاوية بن أبي سفيان. والثالثة زمن سليمان بن عبد الملك.


تخطيط مدينة القسطنطينية
ميل
البوسفور
القرن الذهبي
بحر مرمرة
كنيسة الحكمة الإلهية
المنار
الملعب
ساحة قسطنطين
ساحة تيودوسيوس
نهر ليكوس
ساحة اركاديوس
ميناء
بوابة
بوابة
البوابة الذهبية

بدأ معاوية سياسته البحرية التوسعية بتقوية الثغور البحرية في الشام ومصر وشحنها بالجند المدربين على ركوب البحر ثم بث النشاط في دور الصناعة لإنتاج السفن الحربية وغيرها من المراكب الخاصة بنقل المؤن والعتاد (التأمين المادي والفني) وفي نفس الوقت أعد معاوية قواته البرية التي خصصت للتعاون مع القوات العربية البحرية في الهجوم على القسطنطينية.[٣٩]

وتعد حملات العرب على القسطنطينية حجر الزاوية في بناء سياسة بحرية جديدة، وتطويراً هاماً في الاستراتيجية البحرية الهجومية للدولة العربية الإسلامية، قوامها خلق تعاون قوي وتنسيق تام بين القوات البرية والبحرية في الهجوم والغزو. ويرجع السبب في اتخاذ العرب تلك السياسة الجديدة إلى إغارات سكان جبل اللكام (Amanus) القريبين من حدود آسيا الصغرى (التابعة للروم) على أراضي الشام وهم الذين أطلق عليهم العرب اسم المردة[٤٠] بسبب خروجهم دائماً على النظام وتمردهم.

وظهر تعاون المردة مع الروم في تعطيل جهود المسلمين البحرية سنة ٤٧ هـ / ٦٦٦م أي قبل عامين من قيام أول حملة عربية برية بحرية ضد القسطنطينية، إذ حين ترامت إلى سلطان الروم أنباء استعدادات معاوية للهجوم براً وبحراً على القسطنطينية، اندفع المردة مع قوات من الروم عبر جبال لبنان لإحداث اضطراب في صفوف الحملة المنتظرة ولكن المردة لم يلبثوا أن عادوا إلى قواعدهم حين عبأ معاوية قواته للقضاء عليهم، وانسحب الروم إلى آسيا الصغرى[٤١]وترتب على إغارة المردة تعديل في سياسة العرب البحرية، اذ أدركوا ضرورة تأمين أسباب التعاون بين قواتهم البرية والبحرية حتى يتجنبوا عنصر المفاجأة لاسيما وأنهم على أهبة توسع بحري عظيم، فوضع معاوية جماعة من خيرة جند العرب في مراكز حربية على امتداد جبال لبنان استطاعت أن تحمي ظهر القوات البرية والبحرية في نفس الوقت، في إقليم الشام[٤٢]وقد مهد معاوية بن أبي سفيان للحروب التي خاضتها قواته البرية

---

(٣٩) العدوي ص ٤٥.
(٤٠) العدوي ص ٤٥ ـ ٤٦.
(٤١) العدوي ص ٤٦.
(٤٢) البلاذري، فتوح البلدان ص ١٦٩، العدوي ص ٤٧.

والبحـريـة حول القسطنطينية فيما بين عام ٥٤ ـ ٦٠ لحملات استطلاعية برية وبحرية متتابعة للأسباب التالية:

أ ـ دراسـة الـطرق البحـرية المؤدية إلى الحاضرة البيزنطية، أي استطلاع الطرق والنشاطات المعادية على الاتجاهات المؤدية الى القسطنطينية ودراسة حالة البحر والتيارات المائية وتدريب البحارة العرب على السير في تلك الاتجاهات.

ب ـ استطلاع قوات العدو في منطقة الحملة والاشتباك معها بشكل محدود، وهو ما يعرف في فن الحرب الحديثة (الإستطلاع بالقوة).

ج ـ استكمال المعلومات اللازمة لوضع خطط الهجوم النهائي على القسطنطينية.

ونذكر من تلك الحملات:

ـ غزوة بسر بن أبي أرطاة بأرض الروم سنة ٤٣ هـ التي بلغ فيها القسطنطينية وفقاً لما رواه الواقدي وإن كان بعض المؤرخين طعنوا في صحة ذلك التاريخ[٤٣]

ـ حركة بسر البحرية في سنة ٤٤هـ.

ـ شاتية مالك بن عبيد الله بأرض الروم سنة ٤٦هـ.

ـ شاتية مالك بن هبيرة بأرض الروم سنة ٤٧ هـ.

ـ صائفة عبد الله بن قيس الفزاري بحراً.

ـ غزوة مالك بن هبيرة السكوني بحراً.

ـ غزوة عقبة بن عامر الجهني بأهل مصر في البحر سنة ٤٨ هـ[٤٤].

وقد اكتسبت القسطنطينية تلك المكانة الاستراتيجية بسبب إحاطة المياه بها من ثلاث جهـات. فقبل اتصال مياه البوسفور ببحر مرمرة يمتد داخل الشاطىء الأوروبي خليج عظيم طوله سبعة أميال في أنحناء أشبه بالمنجل أو القرن، جعله يعرف في التاريخ باسم «القرن الذهبي». وبين القرن الذهبي وبحر مرمرة قامت رأس أرض تلالية على شكل مثلث متساوي الضلعين تقريباً، رأسه تقابل الشاطيء الآسيوي، وعلى تلك البقعة الفريدة نشأت القسطنطينية التي صارت تنعم بميناء طبيعي في القرن الذهبي يكفل لأساطيلها الحماية، فضلاً عن حصانة المدينة نفسها لأن المياه تحيط بها من الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية.[٤٥]

---

(٤٣) الطبري ج ٦ ص ١٠٣.

(٤٤) عبادي وسالم ص ٣١ ـ ٣٢.

(٤٥) عدوي ص ٤٨، Runciman, bYz antine civilizatian 12

الحملة الإستطلاعية البرية البحرية (٤٩ هـ / ٦٦٨م)(*)

في ربيع عام ٤٩ هـ أرسل معاوية بن أبي سفيان حملة استطلاعية برية ـ بحرية لغزو القسطنطينية بقيادة سفيان بن عوف(٤٦) وفي العام التالي أعد معاوية مدداً لشد أزر القوات البرية والبحرية التي خرجت للهجوم ووضع على رأسها ابنه وولي عهده يزيد، وقد أراد معاوية أن يكسب تلك الحملة طابع الجهاد المقدس فضم إلى ابنه شخصية كبيرة من أصحاب الرسول الكريم (ص) وهو أبو أيوب الأنصاري الذي استقبل الرسول في بيته.

وعلى ضفاف البوسفور نقلت السفن العربية تلك الأمداد التي حاصرت القسطنطينية التي كان يقود الدفاع عنها الإمبرطور قسطنطين الرابع(٤٧) وقد أظهر الجنود العرب في ذلك الحصار تفانياً عظيماً في القتال وتوفي أبو أيوب الأنصاري وهو يشارك في حصار القسطنطينية ودفن بالقرب من أسوارها(٤٨) وقد رفع العرب الحصار سنة ٦٦٩م بعد أن تبين أن خير سبيل للإستيلاء على العاصمة البيزنطية هو إعداد أسطول بحري قوي يقف على قدم المساواة مع القوات البرية، وعاد يزيد بعد ذلك مع جيشه إلى الشام في نفس العام، وظل المسلمون يهاجمون الأراضي البيزنطية صيفاً وشتاء في البر والبحر حتى استولى الأسطول العربي على إزمير واحتل ليكيا كما استولى على جزر رودس وكوس وخيوس.

إن هذه الحملة من وجهة نظر فن المعركة الحديثة تشكل (استطلاع بالقوة) لمعرفة كل ما يلزم عن العدو (أسلحة، تمركز، ميدان المعركة، طرق بحرية، ممرات، توزيع القوات، الدوريات البحرية، مقرات القيادة . . . الخ).

الحصار الأول للقسطنطينية (حرب السنوات السبع)
٥٤ ـ ٦٠ هـ / ٦٧٤ ـ ٦٨٠ م(*)

تجمع المصادر التاريخية على أن الحملة التي قادها يزيد بن معاوية على القسطنطينية

---

(٤٦) عبادي وسالم ص ٣٢، العدوي ص ٤٧.

(٤٧) د. عبد العليم ص ٩٣.

(٤٨) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ١٣٠.

★ تختلف الرواية العربية في تاريخ هذه الحملة فيصنفه بعضهم سنة ٤٩ (الطبري ج ٢ ص ٨٦ وابن الأثير ج ٢ ص ١٨٧) وبعضهم سنة ٥٠ والبعض الآخر سنة ٥١ (راجع مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ـ محمد عبد الله عنان ص ٣١).

كانت حملة إستطلاعية استهدفت معرفة تلك العاصمة وأمثل الطرق للاستيلاء عليها. وكانت نتيجة تلك الدراسات التمهيدية هي : أن الهجوم على القسطنطينية يتطلب إعداد أسطول عربي قوي وضرورة وضع خطة لتنسيق التعاون بين كل من القوتين البحرية والبرية أثناء حصار تلك المدينة المنيعة.

وقد وجه أباطرة الروم جهدهم لتأمين وتدعيم وسائل الدفاع عن عاصمتهم فأقاموا حلقة محكمة من الأسوار والحصون تكفل للعاصمة مقاومة أي حصار يفرض عليها، براً كان أم بحراً، ولأطول مدة ممكنة وشيدوا على جانب المدينة البري الممتد من البوسفور إلى القرن الذهبي سوراً متيناً، صار يكوّن قاعدة المثلث الذي تحتله المدينة. واشتمل ذلك السور على جدارين أحدهما ملتصق مباشرة بالمباني ويكون خط الدفاع البري الأول وتعلوه الأبراج والحراس، والجدار الثاني الخارجي أكثر ارتفاعاً من الجدار الداخلي ويحيط به خندق عرضه ٦١ قدماً لعرقلة زحف القوات المعادية على العاصمة[٤٩] غير أن اهتمام الأباطرة الأعظم اتجه إلى شؤون العاصمة البحرية فاقاموا جدراناً هائلة للدفاع عن القسطنطينية من ناحية البحر وغدت تلك الأسوار تحيط بجميع الجهات البحرية الثلاث للعاصمة، وتعتمد في منعتها وقوتها على القلاع والحصون أكثر من اعتمادها على سمك الجدار وضخامته، فكان على امتداد القرن الذهبي وبحر مرمرة أسوار بحرية تتصل بالسور الأرضي الذي يكون خط الدفاع البري عن العاصمة[٥٠]

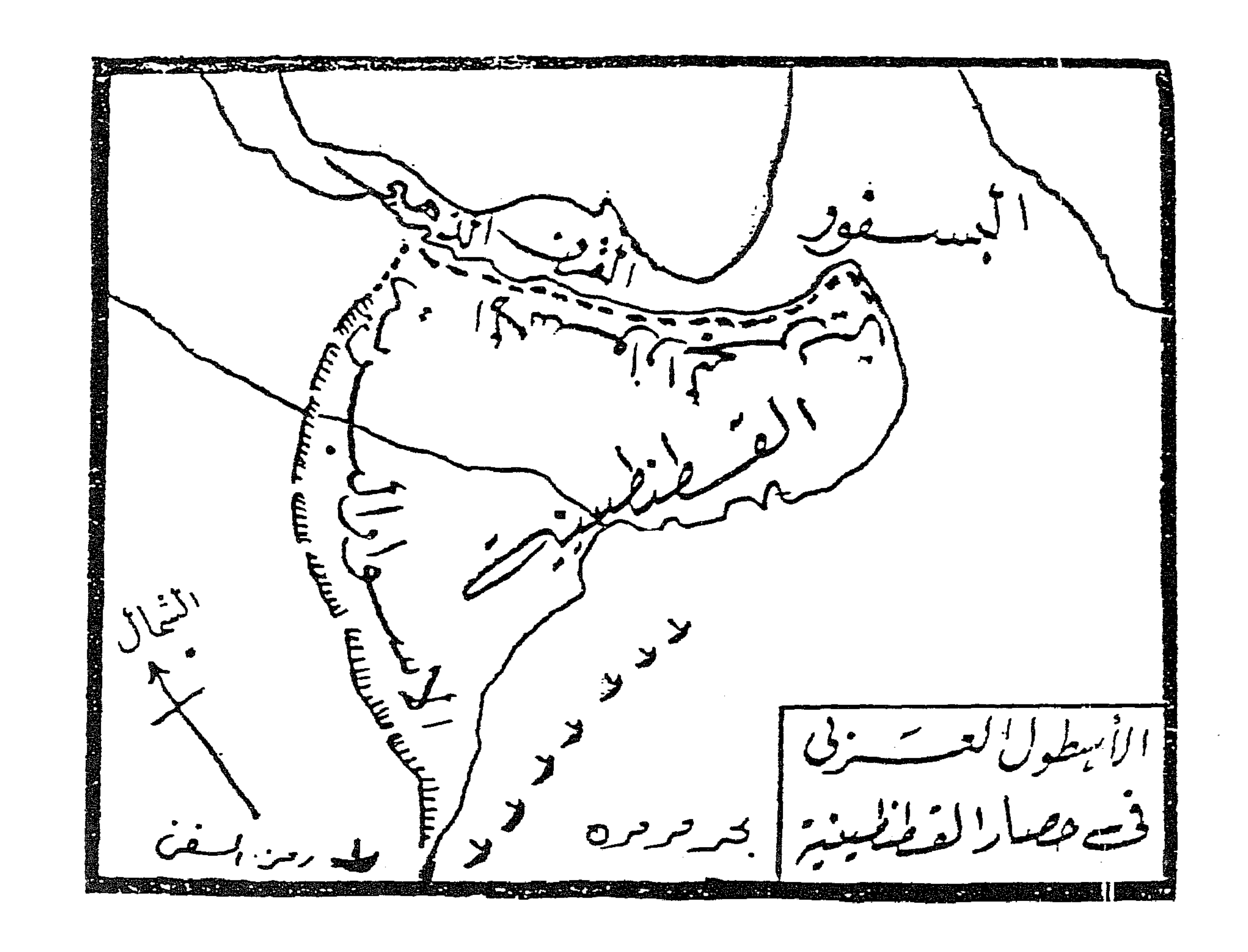
كما حصنوا أيضاً الموانىء التي ترسو فيها الأساطيل المدافعة عن العاصمة ، فإلى جانب القرن الذهبي كان للقسطنطينية موانيء أخرى صغيرة تطل على البوسفور وتؤمن الملاحة وتجد فيها السفن أماكن هادئة تأوي اليها عند اشتداد التيار.

وقبل أن يستكمل الأباطرة وسائل التحصين والدفاع عن عاصمتهم صمم معاوية على تجهيز حملة كبرى تستهدف الإستيلاء على القسطنطينية، وكان للأسطول العربي المكانة الأولى في تلك الحملة التي سارت طلائعها في سنة ٥٣ هـ / ٦٧٣ م بقيادة عبد الرحمن بن خالد.

★ بدأ حصار السلطان العثماني محمد الفاتح للقسطنطينية في ٦ نيسان ١٤٥٣ م ودخلها فاتحاً في ٢٩ أيار ١٤٥٣ واعتبر هذا التاريخ بداية للتاريخ الحديث.

(٤٩) BURY: History of the later Roman an Empire 70, 77

(٥٠) العدوي ص ٤٩.


الأسطول العربي
في حصار القسطنطينية
البسفور
القرن الذهبي
القسطنطينية
الأسوار البرية
بحر مرمرة
رمز السفن
الشمال

وقد حلَّ فصل الشتاء والأسطول في طريقه إلى مياه القسطنطينية فألقت السفن مراسيها على شاطيء قيليقية (كيليكيا) حتى يتحسن الجو.

وبمطلع الربيع عززت قوات خالد البحرية بوصول أسطول عربي آخر إلى مياه القسطنطينية بقيادة جنادة بن أمية واستولى على جزيرة قزيقوس (أرواد في المراجع العربية) في مياه القسطنطينية الإقليمية واتخذها المسلمون قاعدة بحرية أمامية لإمداد الجيش المحاصر للعاصمة البيزنطية بالمياه والسلاح والرجال ولقطع الطريق على سفن الروم(٥١)

وجرت أحداث الحصار العربي للمدينة وفق خطة كان للأسطول العربي فيها الدور الرئيسي إذ نقلت السفن العربية الجند إلى البر لمحاصرة أسوار المدينة الخارجية، على حين يكمل الأسطول حلقة الحصار بأن تمتد سفنه بين رأس هيدومون (Hedomon) الذي يبعد سبعة أميال عن أسوار القسطنطينية وبين رأس كيكلبيوس (Kyklolios) الواقعة بالقرب من أحد أبواب العاصمة المعروف بباب الذهب (انظر مخطط الحصار).

وأحكم المسلمون الحصار البري والبحري طوال العام، اشتبكت في أثنائه سفن بيزنطية مع السفن الإسلامية كما استمرت المعارك البرية بين الجيشين العربي والبيزنطي، ثم اضطر المسلمون إلى فك الحصار عن القسطنطينية عندما حل الشتاء وأقام المسلمون في أرواد انتظاراً لحلول الربيع لكي يستأنفوا عملياتهم الحربية، فلما حل الربيع تابعت القوات العربية الإسلامية حصار المدينة ولكنها استعصت عليهم، وتكرر ذلك عدة سنوات حتى سنة ٦٠ هـ أبدى أثناءها العرب المسلمون كثيراً من ضروب البسالة والاقدام على الرغم من توسل البيزنطيين في الدفاع بوسائل كيميائية لاطاقة للعرب بمكافحتها ودفع خطرها، فقد استخدم الدفاع البيزنطي النار البحرية التي عرفت فيما بعد بالنار الاغريقية(★)كوسيلة دفاعية تسببت في حرق عدد كبير من سفن الأسطول الإسلامي وبث الذعر والهلع في نفوس المحاصرين للمدينة، وكانت كرات النار تشتعل على الماء وعلى ظهور السفن على السواء دون أن يعرف العرب وسيلة لاطفائها.

غير أن هذا السلاح الجديد لم يفت في عضد أمراء البحار العرب وجاءتهم الإمدادات البحرية تباعاً، إذ وصل أسطول عربي آخر بقيادة سفيان بن عوف شد من أزر القوات

---

(٥١)محمد عبد الله عنان، مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ص ١٠٢.

★ اكانت النار الإغريقية تتركب من نفط سريع الإلتهاب ومن الكبريت والقار بنسب غير معروفة. بحيث كان هذا التركيب يزداد اشتعالاً عند ملامسته الماء ولا يخمد إلا باستخدام الخل والرمل، ومخترع هذا السلاح هو مهندس سوري الأصل اسمه كالينكوس، كان في خدمة العرب في الشام ثم فر إلى القسطنطينية، العدوي ص ٥٤.

العـربية المحاصرة للقسطنطينية [٥٢] على حين أسهمت السفن العربية في مهاجمة أساطيل الروم وحملتها على الإنزواء في موانيء العاصمة، برغم استخدام تلك الأساطيل للنار البحرية (الإغريقية).

وبعد سبع سنين من تلك الحروب المضنية أحس معاوية بن أبي سفيان بدنوّ أجله وأنه لابد من سحب الأسطول العربي والقوات البرية المحاصرة للقسطنطينية حتى لاتتعرض تلك الحملة للأخطار إذا ما حلت به الوفاة وهي مازالت مشتبكة مع العدو. ودخل معاوية في مفـاوضـات مع الـروم لسحب اسطوله وقواته. وكانت دولة الروم تتلهف لانهاء ذلك الحصار القاسي، وأرسلت إلى دمشق رجلاً يدعى (يوحنا) وهو من أشهر رجالها الدبلوماسيين وأكثرهم ذكاء وفطنة، وقد نجح في عقد صلح بين دولته والخلافة الأموية مدته ثلاثون عاماً. وبعـد إبـرام المعاهدة عادت الأساطيل العربية والقوات البرية إلى قواعدها في الشام بعد ثلاثون عاماً. وبعد إبرام المعاهدة عادت الأساطيل العربية والقوات البرية إلى قواعدها في الشـام بعد أن أثبتت للروم أن عاصمتهم ليست بعيدة المنال عن قبضة البحرية العربية وضرباتها الشديدة.

الحصار الثاني للقسطنطينية (٩٨ ـ ٩٩ هـ / ٧١٧ ـ ٧١٨ م)

كان معاوية بن أبي سفيان بعيد النظر حين عجل بسحب الأسطول العربي بعد أن حاصر القسطنطينية حصاراً شديداً مدة سبع سنوات، إذ ماكادت سفن الأسطول تلقـي مراسيها في قواعد الشام سنة ٦٨٠ م حتى توفـي معاوية في نفس العام[٥٣]

لكن الفشل لم يثبط همم خلفاء بني أمية من بعده ولم يقض على آمالهم في محاولة فتح العاصمة البيزنطية من جديد والواقع أن الفكرة ظلت تراود الخلفاء المروانيين بعد موت مروان (بن الحكم[٥٤] وتابع أفراد البيت المرواني سياسة الفرع السفياني في الإهتمام بالأسطول العربي وتدعيم قواعده في البحر الأبيض المتوسط وتمكن الخليفة عبد الملك بن مروان من إقصاء

---

(٥٢) راجع التفاصيل في المراجع التالية: الباز العريني، الدولة البيزنطية ص ١٤٨ ـ ١٥٢ محمد عبد الله عنان، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ص ٣٢ ـ ٣٦، العدوي، قوات البحرية العربية ص ٥٧ ـ ٦٦.

(٥٣) العدوي ص ٥٦.

(٥٤) عبادي وسالم ص ٣٤.

المردة ـ الذين دأب الروم على استغلالهم في شل التعاون بين القوات البرية العربية والأسطول العربي ـ عن أماكنهم نهائياً بجبل اللكام .

وعندما توفـي عبد الملك سنة ٧٠٥ م ترك لابنه الوليد دولة ثابتة الأركان فتابع الوليد سياسة تقوية الأسطول العربي وخلق تعاون قوى بينه وبين القوات البرية ، واتخذ الوليد من بلاد الروم في آسيا الصغرى ميداناً تتدرب فيه القوات البحرية العربية والبرية على التعاون في الهجوم على معاقل الروم تمهيداً للزحف على القسطنطينية .

وأسهم الأسطول العربي في تلك التدريبات مساهمة فعالة اتسمت بالمغامرة كذلك ، وفي إحدى حملات الأسطول العربي سنة ٩٠ هـ / ٧٠٩ م وقع أمير البحر العربي خالد بن كسبان أسيراً في أيدي الأسطول الرومي غير أن إمبراطور الروم آثر مهادنة العرب وأعاد خالد ابن كسبان للخليفة الوليد برهاناً على تطلعه إلى الوئام والسلام(٥٥) .

وفي سنة ٩٤ هـ بدأ الوليد بن عبد الملك يعد حملةً بحرية برية بقيادة أخيه مسلمة بن عبـد الملك(٥٦) وما أن ترامت تلك الاستعدادات الى السلطات البيزنطية حتى بدأت تهتم بتدعيم وسائل الدفاع عن أسوار القسطنطينية ، وعنيت بتقوية الدفاع البحري تمهيداً لحصار قد يطول أمده كما حدث في الحصار الأول .

وتجلت سياسة الروم الجديدة حين جعلوا من شواطيء آسيا الصغرى والجزر القريبة منها إقليماً بحرياً حربياً ترسو في قواعده سفن حربية على أهبة الإسعداد للقتال وفي نفس الـوقت أقام الروم في جهات بحر مرمرة المواجهة للقسطنطينية فرقاً بحرية تساند أسطول العاصمة في الدفاع . وقد نال أمير البحر على أسطول القسطنطينية سلطات واسعة تخوله حق تنظيم وسائل التعاون بين أسطول شواطيء آسيا الصغرى وأسطول بحر مرمرة(٥٧)

وفي نفس الوقت أعادت سلطات الروم تجديد أسوار القسططينية ولاسيما الجهات المطلة منها على المياه ثم وضعت على تلك الأسوار كل الآلات الحربية من المجانيق وعيرها من وسائل الدفاع واستعد سكان القسطنطينية لحصار قد يطول إلى ثلاث سنوات ووصعوا فى خزائن منازلهم كميات كبيرة من الغلال(٥٨)

---

(٥٥) الطبري ج ٨ ص ٦٨ ، العبادي ص ٥٨ .

(٥٦) عبادي وسالم ص ٣٤ .

(٥٧) Run ciman, Byz antine civilization 150 العدوي ص ٥٩ .

(٥٨) Bury, Hidtory of the later Roman Empire II 71

العدوي ص ٥٩ .

وقد أدت وفاة الوليد بن عبد الملك إلى إرجاء إيفاد الحملة المجهزة إلى مقصدها، فلما اعتلى أخوه سليمان بن عبد الملك عرش الخلافة أخذ يجهز الجيوش للسير إلى القسطنطينية (مدفوعاً بنبؤة تواترت على ألسن الفقهاء) ومهد لذلك بغزوة بحرية بقيادة عمر بن هبيرة الغزاري على بلاد الروم في سنة ٩٧ هـ[٥٩] وفي العام التالي حشد سليمان قوات كثيفة بحرية وبرية زودها بمقادير هائلة من المؤن والأقوات والسلاح لحرب طويلة الأمد بقيادة أخيه مسلمة وأمره بأن يتوجه إلى القسطنطينية وأن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه أمره.

ولتعزيز ذلك الهجوم اتخذ سليمان الإجراءات التالية:

أ- عمد إلى خلق تعاون وثيق بين الأساطيل العربية في مصر والشام.

ب - قرر الإستعانة بالأسطول العربي الفتي في شمال أفريقيا التي كانت قد ضمت إلى الدولة الاسلامية.

ح - أمر بإبحار أسطول من مصر إلى شواطيء الشام لجمع الأخشاب من سواحل لبنان لتصنع منها سفن حربية جديدة في دور الصناعة بمصر. لتعزيز الأسطول العربي المتجه إلى حصار العاصمة البيزنطية[٦٠]

د - استغلال العصيان الذي حدث في رودوس (كما سنذكر فيما بعد).

أما الإجراءات التي اتخذها إمبراطور الروم أنسطاس (أونستاسيوس) فهي:

أ- تحسين تحصين المدينة وتزويدها بالإمدادات الكافية لمدة طويلة على النحو الذي سبق ذكره.

ب - أوفد في وقت مبكر (في سنة ٧١٤ م) سفارة إلى دمشق تفاوض الأمويين في عقد هدنة وتتأكد في نفس الوقت من مدى إستعداد الأسطول العربي (التجسس والإستطلاع تحت ستار الدبلوماسية).

ج - خلق قاعدة للأسطول الرومي تكون مهمتها عرقلة زحف الأسطول العربي على القسطنطينية.

د - إنشاء قاعدة في العاصمة نفسها لمقاومة حصار الأسطول العربي إذا استطاع الوصول إلى مياه القسطنطينية.

هـ - إعطاء صلاحيات واسعة للقادة المحليين.

---

(٥٩) الطبري ج ٨ ص ١١٣، ابن الأثير ج٥ ص ٣٦، عبادى وسالم ص ٣٤.

(٦٠) العدوي، ص ٦٠.

و ـ تنظيم التعاون بين أسطول آسيا الصغرى وأسطول بحر مرمرة (على نحو ما تقدم).

ز ـ عمد إلى مهاجمة الأسطول المصري وتخريب الأخشاب التي يحملها قبل وصولها إلى دار الصناعة بمصر، وكلف بذلك فرق الحرس الإمبراطوري، وهي أشد فرق الجيش الرومي بأساً وتدريباً على فنون القتال البحري لكن تلك الفرق قامت بعصيان الأوامر نظراً لكرهها للامبراطور وشقت عصا الطاعة حين وصول الأسطول إلى رودوس وقتلت القائد الذي عينه الإمبراطور لإدارة عمليات الهجوم[61] وحين وصلت أنباء العصيان أدرك الخليفة سليمان بن عبد الملك أن الوقت قد حان لضرب القسطنطينية مرة أخرى، وفي سنة ٩٨هـ / ٧١٧ م تحركت الجيوش العربية الإسلامية والأسطول العربي في الشام تحت إمرة أخيه مسلمة وكانت فكرة خطته تتلخص فيما يلي:

أ ـ تسبق القوات البرية الأسطول العربي في الزحف عبر آسيا الصغرى.

ب ـ تمهد القوات البرية لخلع الإمبراطور.

ج ـ بعد تنفيذ المهتمين السابقتين تنتظر القوات البرية وصول الأسطول العربي عند البوسفور وتشترك معه في الحصار والهجوم .

وأقام الخليفة سليمان بن عبد الملك مقر قيادته في دابق (شمال الشام) وأعطى الله عهداً « أن لاينصرف حتى يدخل الجيش الذي وجهه إلى الروم في القسطنطينية».

يذكر الطبري أن (مسلمة) لما توغل في آسيا الصغرى هابه الروم فاتصل به قائد أرمني اسمه ليوكان يتطلع إلى الظفر بالعرش الإمبراطوري ويدبر أمره لانتزاعه من ثيودوسيوس الثالث « الذي ولاه الجند في سنة ٧١٦ م بعد أن عزل أنستاسيوس الثاني» ، فاتفق ليو مع مسلمة على خطة تتيح للمسلمين فتح القسطنطينية ، وما كاد يصل إليها حتى غرر بهم وخدعهم بعد أن تحايل على تجريدهم من كل أقواتهم[62] وتشير المصادر البيزنطية إلى أن ليو الأرمني الذي اعتلى العرش باسم ليو الثالث الأيسوري دخل القسطنطينية حيث توج إمبراطوراً في آذار ٧١٧ م ـ ٩٨ هـ ، أما (مسلمة) فقد تابع سيره حتى وصل إلى مشارف القسطنطينية في ٩٨هـ بقيادة جيش عدته ثمانون ألف مقاتل، سوى ما اجتمع تحت أسوار

---

(٦١) الطبري ج ٨ ص ١١٨ .

(٦٢) الطبري ، عبادي وسالم ص ٣٥.

العاصمة في البر والبحر، وحاصر مسلمة العاصمة البيزنطية براً وبحراً ونصب عليها المجانيق، ولكن أسوار المدينة المنيعة وقوة الدفاع البيزنطي وفعالية النار اليونانية ردت المسلمين عن اقتحام المدينة موجة بعد موجة من الهجوم ومع ذلك فقد واصل مسلمة بعناد حصار المدينة وشدد الضغط عليها وحفر حول معسكره حفرا عميقاً وانتسف المزارع القريبة ومنع الأقوات من التسرب . . . إلى آخرة[٦٣]أما الأسطول فقد رابطت قطعه حول المدينة وتشير الروايات البيزنطية إلى أن قطع الأسطول الاسلامي بلغت ١٨٠٠ سفينة كبيرة بالإضافة إلى سفن صغيرة كثيرة وكان يتولى قيادتها قائد يقال له سليمان[٦٤](لعله سليمان بن معاذ الانطاكي)أحد قادة الحملة[٦٥]وتمكن هذا الأسطول الضخم من إغلاق الممرات المؤدية إلى البحر الأسود، وأخذ مسلمة ينظم التعاون بين قواته البحرية وقواته البرية لإتمام حلقة الحصار حول القسطنطينية، فاضطلعت قوات مسلمة البرية بحصار أسوار المدينة من الناحية البرية على حين عمد سليمان، أمير البحر العربي إلى سد المنافذ والمسالك المائية التي يمكن أن تحصل منها العاصمة على الإمداد والمؤن ثم فرض حصاراً على الأسوار البحرية كذلك[٦٦].

وأخذ الأسطول العربي في تنفيذ خطته فاحتل مدن البوسفور الجنوبي لقطع الإتصال بين القسطنطينية وبحر مرمرة الذي يعد مصدر تموين العاصمة من جهة الجنوب. ثم انتهز أمير البحر العربي سليمان فرصة هبوب رياح جنوبية طيبة وبعث شطراً من أسطوله لاحتلال مدخل البوسفور الشمالي لمنع وصول أي مدد يأتي للمدينة من البحر الأسود ولاسيما أن شواطىء هذا البحر كانت غنية بحقول القمح التي تزود القسطنطينية بالغلال.[٦٧]

وسارت السفن العربية الكبرى سيراً بطيئاً لتحقيق الخطة الخاصة باحتلال المدخل الشمالي للبوسفور بسبب التيار المائي الشديد الذي يتدفق من البحر الأسود إلى بحر مرمرة. ثم حدث حادث قلب خطط الأسطول العربي رأساً على عقب، إذ غيرت الرياح الجنوبية اتجاهها فجأة وهبت عاصفة عاتيه حطمت عدداً من السفن وسببت خللاً في مسيرة

---

(٦٣) الطبري ج ٨ ص ١١٨.

(٦٤) مواقف حاسمة ص ٣٩.

(٦٥) عبادي وسالم ص ٣٥.

(٦٦) عدوي ص ٦١.

(٦٧) Bury 401, 402

الأسطول، فانتهز البيزنطيون تلك الفرصة، التي نشرت الفوضى في صفوف الأسطول العربي، وسلطوا نيرانهم اليونانية على السفن العربية فأحرقوا عدداً كبيراً منها، وهكذا حالت الظروف الجوية دون تنفيذ خطة إغلاق مدخل البوسفور الشمالي. ويرى بعض المؤرخين أن النار البحرية اليونانية. التي علقت عليها المراجع الأوروبية أهمية كبرى في إنقاذ القسطنطينية، ليست إلا عاملاً ثانوياً أضيف إلى أعباء العرب وأنها ليست العامل الأول أو الرئيسي في فشل خطة الأسطول العربي إذ يلاحظ أن الإمبراطور ليو لم يجرؤ على إرسال سفنه المحملة بتلك النار إلا بعد أن لعبت الطبيعة دورها في الوقوف بوجه الأسطول العربي[٦٨].

وبالرغم من جميع الظروف صمم القائد مسلمة بن عبد الملك على متابعة حصار القسطنطينية براً مع الإشارة إلى أن جبهتها المطلة على القرن الذهبي كانت مفتوحة وظل الحصار مستمراً حتى جاء الشتاء فتابع الحصار أمام قسوة الطبيعة في تلك الفترة من السنة.[٦٩]

وبمطلع الربيع وصلت نجدات بحرية وبرية للقائد مسلمة بن عبد الملك فجاء أسطول من مصر بقيادة أمير بحر يدعى سفيان، وآخر من شمال أفريقيا تحت إمرة شخص يدعى يزيد، وهناك تعاون هذان القائدان البحريان مع مسلمة لأن أمير البحر السابق سليمان كان قد توفي أثناء الشتاء، وكذلك وصلت نجدات برية بقيادة رجل يدعى مرداس اضطلعت بمهاجمة شواطىء البوسفور البحرية لتحول بين سفن الروم وبين الخروج طلباً للحصول على صيد بحري يغذي سكان العاصمة، أو الذهاب إلى البحر الأسود لجلب الغلال من شواطئه[٧٠]

واسخدمت القوات العربية لأول مرة النفط كما استخدموا نوعاً جديداً من المجانيق أشبه بالمدفعية في هذا الحصار، وكذلك أبدى الجند من ضروب الشجاعة ما شهد لهم بعلو روحهم المعنوية، وظهر من الجند العرب عبد الله البطال، كبير حراس مسلمة بن عبد الملك الذي أبلى في هذا الحصار بلاءً حسناً أكسبه لقب زعيم الأبطال وغدا اسمه موضوعاً لعدد من القصص تناولت شجاعته باسم السيد غازي[٧١]

---

(٦٨) العدوي ص ٦٣.

(٦٩) الطبري ص ١١٨.

(٧٠) Bury, 413

(٧١) العدوي ص ٦٤.

واستمر الحصار الثاني للقسطنطينية اثني عشر شهراً إلى أن توفي سليمان بن عبد الملك في ١٠ صفر سنة ٩٩ هجرية، وقد حل الشتاء ببرده وثلجه، فهلك عدد كبير من عسكر المسلمين من البرد ونفقت معظم الخيول والدواب، وعدمت الأقوات كما توفي سليمان قائد الأسطول فسببت وفاته اضطراباً في صفوف البحريين وحل الضيق والقحط بمعسكر المسلمين حتى أكل الجند الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شيء غير التراب[٧٢] وظل الأمر كذلك إلى أن كتب الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة في أرض الروم في ١٥ آب ٧١٨ م يأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين، ووجه إليه خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً وحث الناس على معونتهم[٧٣] وبذلك عادت تلك الحملة العربية التي تعد من أضخم الأعمال القتالية البحرية التي شهدها البحر المتوسط طوال تاريخه الحافل بالنشاط الحربي.

ويعتبر فشل المسلمين في الإستيلاء على القسطنطينية للمرة الثانية حدثا من أهم أحداث تاريخ العصور الوسطى، وكتب للامبراطورية البيزنطية البقاء بخروجها ظافرة من محنة الحصار، وظلت تحتفظ بهيبتها أمام دول الغرب الأوروبي فترة طويلة.

إن دراسة حصار القسطنطينية من وجهة نظر فن الحرب البحرية تقودنا إلى النتائج التالية:

أ ـ إنه مجموعة من المعارك المشتركة (البرية ـ البحرية) تشكل في مجموعها أكبر (عملية حصار) عرفه التاريخ حتى اليوم.

ب ـ لجأت القيادة العربية الإسلامية إلى استخدام الحشد الكبير من القوات البحرية ١٨٠٠ سفينة [٧٤] كبيرة بالإضافة إلى عدد كبير من السفن الصغيرة (أي أن المجموع يفوق ٢٠٠٠ سفينة) مع ثمانين ألف مقاتل من القوات البرية وهذا الحشد المشترك من القوات البرية والقوات البحرية لم يعرفه تاريخ الحروب من قبل (إلى أن نشبت الحرب العالمية الأولى

---

(٧٢) الطبري ج ٨ ص ١١٨، عبادي وسالم ص ٣٦.

(٧٣) الطبري ج ٨ ص ١٣٠.

(٧٤) اشتركت من جانب أمريكا وبريطانيا في عملية إنزال النورماندي خلال الحرب العالمية الثانية فقط ٨٦٠ سفينة) انظر تاريخ فن الحرب البحرية لأساطيل الدول الرأسمالية في الحرب العالمية الثانية ص ٥٨١ وفيق بركات: (مترجم عن الروسية).

والحرب العالمية الثانية)[٧٥]

ج ـ استخدم العرب مبدأ (القواعد البحرية المتقدمة) لتركيز القوات والإمدادات فيها وتنظيم القيادة وتدقيق الخطط ثم الإنطلاق، إذ احتلوا جزيرة قزيقوس (أرواد) في مياه القسطنطينية قبل الهجوم بوقت مناسب

د ـ أظهر القادة العسكريون والسياسيون العرب قدرة عالية في «تخطيط الأعمال القتالية المشتركة» ذات المستوى الكبير.

هـ ـ استخدم العرب «الإستطلاع» بصورة عامة و «الإستطلاع بالقوة» بصورة خاصة قبل الهجوم على القسطنطينية وخصصوا لذلك حملة استطلاعية كاملة لمعرفة قدرات العدو وتحصيناته وأسلحته والتعرف على مواقعه واستطلاع الطرق البحرية والبرية إلى الهدف المقصود ويشكل ذلك قدرةً فذةً ومعرفةً عاليةً « بفن الحرب البرية والبحرية» .

و ـ طبق العرب مبدأ « المناوبة القتالية» للقوات البرية والقوات البحرية لكي تكون جاهزة للتدخل فوراً في الزمان والمكان المناسبين .

ز ـ إن الحملة الإستطلاعية الأولى التي قادها يزيد بن معاوية هي التي أرشدت القيادة العربية الإسلامية الى ضرورة تجهيز أسطول بحري قوي يشارك القوات البرية في الهجوم والحصار « تقدير الموقف وتدقيقه قبل الهجوم» .

ح ـ لجأت القيادة العربية الإسلامية إلى إكساب الحملة صفة (الجهاد المقدس) في سبيل الله وخرج للقتال مع القوات عدد من صحابة النبي (ص) وساعد ذلك في رفع الروح المعنوية .

ط ـ طبق القادة العرب المسلمون أرفع درجات « التعاون على المستوى الاستراتيجي والعملياتي والتكتيكي في حصار القسطنطينية فأقاموا التعاون بين أسطولي الشام ومصر وعززوا تلك الأساطيل الأولى بأساطيل لاحقة كما أقاموا التعاون بين الأساطيل نفسها في ميادين القتال وكذلك بين القوات البرية والقوات البحرية طيلة فترات حصار العاصمة البيزنطية .

---

(٧٥) اشتركت في الحرب الروسية اليابانية ١٧٧ سفينة حربية . اشتركت في الحرب العالمية الاولى من جميع الدول المشتركة ٣٠٠٠ سفينة . اشتركت في الحرب العالمية الثانية من جميع الدول المشتركة ٤٠٠٠ سفينه .
راجع : وفيق بركات : تاريخ الفن البحرى الحربي لأساطيل الدول الرأسمالية في الحرب العالمية الثانية ص ٩ (مترجم عن الروسية) .

ي ـ تعتبر تلك الحملة دليلاً قوياً على (قوة جلد) العرب وقدرتهم على (اكتساب الخبرات) في الميدان البحري بسرعة فائقة.

ك ـ دلت أحداث الحصار على أن العرب خططوا (للاستفادة من فصول السنة) إذ كانوا يسحبون قواتهم شتاء ويباشرون الهجوم في الربيع لكن خبراتهم في معرفة «الأنواء وأحوال الطقس والتيارات المائية والتنبؤالجوي» كانت ضعيفة جداً الأمر الذي شكل عاملاً أساسياً في فشل عملية الحصار.

ل ـ إن إمداد ذلك العدد الهائل من القوات البرية والأساطيل البحرية على تلك المسافات البعيدة ولتلك الفترة الطويلة قد دل على قدرة عالية في (التأمين المادي والفني) للقوات، ويعتبر ذلك من أعقد المشكلات التي تواجه القوات في الحرب الحديثة.

م ـ إن (قيادة) ذلك المستوى الكبير من القوات العربية والبحرية و (السيطرة عليها وتنظيم (الإتصال) بينها والإبحار بها (وتحريكها) على تلك المسافات الشاسعة يدل على القدرة التنظيمية العالية وعلى تصميم وصلابة القيادة العسكرية والسياسية وبعد النظر و (القدرة الحركية العالية) والمستوى الرفيع في فن الحرب البحرية والحرب البرية والحرب المشتركة في ذلك الوقت وحتى من منظور فن الحرب الحديثة.

ن ـ إن عدم النجاح في الإستيلاء على القسطنطينية قد دفع بالعرب إلى (التوجه نحو شمال أفريقيا) حيث كانوا قد تمكنوا بأساطيلهم البحرية من إقامة قاعدة جديدة لهم صارت فيما بعد دعامة السيادة العربية في غرب البحر الأبيض المتوسط (عندما خرج عقبة بن نافع سنة ٥٠هـ / ٦٧٠م وأسس أول قاعدة عربية في شمال أفريقيا وهي القيروان).

س ـ تم اللجوء إلى محاولة (تفرقة صفوف العدو وتشتيت قواته) عند استخدام القائد الأرمني ليو (لكنه خلف بوعده بعد أن أصبح إمبراطوراً).

ع ـ اختارت القيادة العربية فرصة تمرد بحارة الأسطول البيزنطي في رودس لبدء الهجوم عندما كان الأسطول البيزنطي متوجهاً لمهاجمة الأسطول المصري وتخريب الأخشاب التي يحملها لصناعة سفن جديدة لصالح الحملة على القسطنطينية، (وهذا يعني اختيار الوقت المناسب للهجوم).

ف ـ أجرت القيادة العربية الإسلامية (الإستعدادات) اللازمة لتلك العملية الشهيرة من انشاء قواعد وصناعة سفن جديدة وأسلحة جديدة (النفط والمجانيق الجديدة) ووضعت خطط الحصار البحري والبري في وقت مبكر ودبرت الإمدادات اللازمة .

ص ـ استخدمت القيادة العربية الإسلامية «الممرات المائية الدولية» على أفضل وجه لإحكام الحصار، ويشكل هذا الموضوع عنصراً هاماً في الاستراتيجية البحرية للدول الكبرى في العصر الحديث.

ق ـ بالرغم من عدم النجاح(*) في احتلال القسطنطينية فان ذلك قد أثبت للبيزنطيين أن العرب « قوة بحرية وبرية هائلة» الأمر الذي جعلهم يستبعدون الهجوم على الشام ومصر في المستقبل وبذلك « انتقل الصراع من حوض المتوسط الشرقي إلى حوض المتوسط الغربي».

ر ـ «إن تقدير الروم للقوة العربية الهائلة» قد جعلهم «ينحسرون» إلى العاصمة ويجهزون دفاعات برية وبحرية منيعة ويحتفظون « بمخزون هائل من الإمدادات » تكفيهم لفترة طويلة كما ابتكروا واستخدموا « أسلحة جديدة» كان لها تأثيرها الفعال على سير الأعمال القتالية، كما أن صمود الدفاع الرومي عن القسطنطينية وفاعليته كان من الأسباب الرئيسية لفشل الحملة العربية على العاصمة البيزنطية.

ش ـ لجأ الروم إلى أسلوب «إنهاك القوات» العربية باستخدام النار البحرية والأسلحة الأخرى واستخدام «عامل الزمن».

ت ـ استخدم العرب أسلوب « تدريب القوات في مكان مماثل لأرض المعركة» إذ أقاموا مراكز تدريب في آسيا الصغرى قريباً من القسطنطينية « تتدرب فيها القوات البرية والبحرية على التعاون في الهجوم» على معاقل الروم تمهيداً للهجوم على القسطنطينية.

ث ـ تجدر الإشارة إلى أن الطرفين المتحاربين لم تكن لديهما ولم يستخدما أسلحة بحرية أو أسلحة برية « بعيدة المدى » ، « بمفهوم ذلك العصر» لذلك لم يكن هناك « حسم عسكري » في العملية بالمعنى المفهوم بالرغم من الخسائر الكبيرة في قوات وسفن الطرفين المتحاربين.

خ ـ إن متابعة إرسال الأساطيل « لدعم » القوات المحاصرة للقسطنطينية دليل على قدرة القيادة العربية في « متابعة الموقف على أرض المعركة» وبالتالي على « قدرة الصناعة البحرية العربية» في بناء المزيد من السفن الحربية وتجهيزها وإرسالها بسرعة عالية وكثافة كبيرة.

ذ ـ وإلى جانب الحصار الكبير فإن الأسطول العربي قد خاض فعلاً عملية تسمى

(*) استخدمنا عبارة عدم النجاح بدلا من (الفشل) احياناً للتخفيف ولكي الفت النظر إلى أنه كانت لعملية حصار القسطنطينية نتائج إيجابية هامة بالرغم من عدم تمكن العرب المسلمين من احتلال العاصمة البيزنطية.

«تدمير قوات العدو البحرية في القواعد» من وجهة نظر فن الحرب البحرية الحديثة، وإن لم يكتب لها النجاح لكن نتائجها الإيجابية كانت كثيرة كما أسلفنا.

إن الرسول الأعظم (ص) هو أول من أمر بفتح القسطنطينية حيث قال: «لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»[76] لذا فإن تلك الحملات قد اتخذت طابعاً دينياً[*]

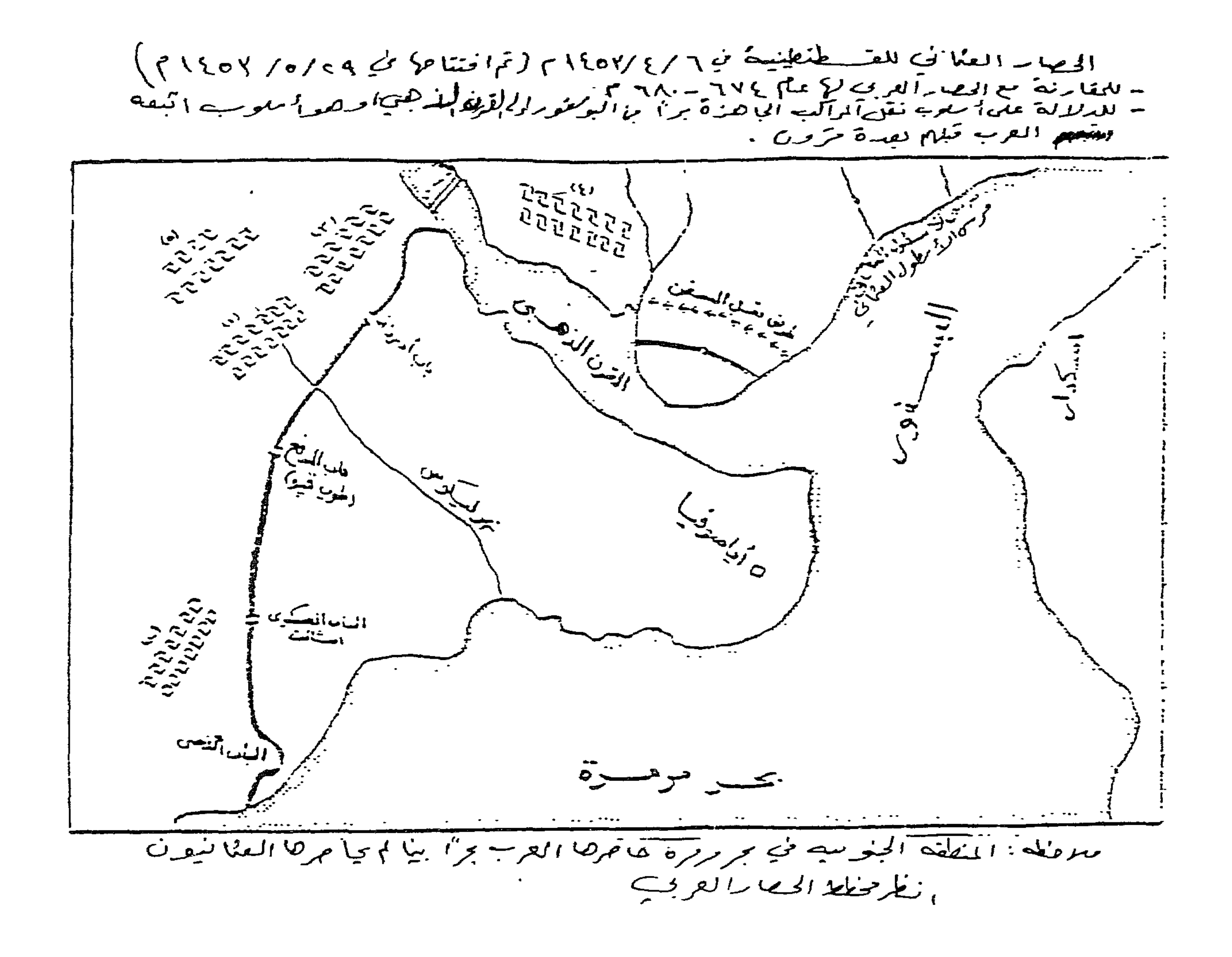
---

(٧٦) د. عبد السلام عبد العزيز فهمي: فتح القسطنطينية ـ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ دار الكاتب العربي ـ المكتبة الثقافية العدد ٢٢٨ ص ٩٩ وقد تلى هذا الحديث النبوي الشريف السلطان محمد الفاتح عندما دخل القسطنطينية في ٢٩ أيار ١٤٥٣.

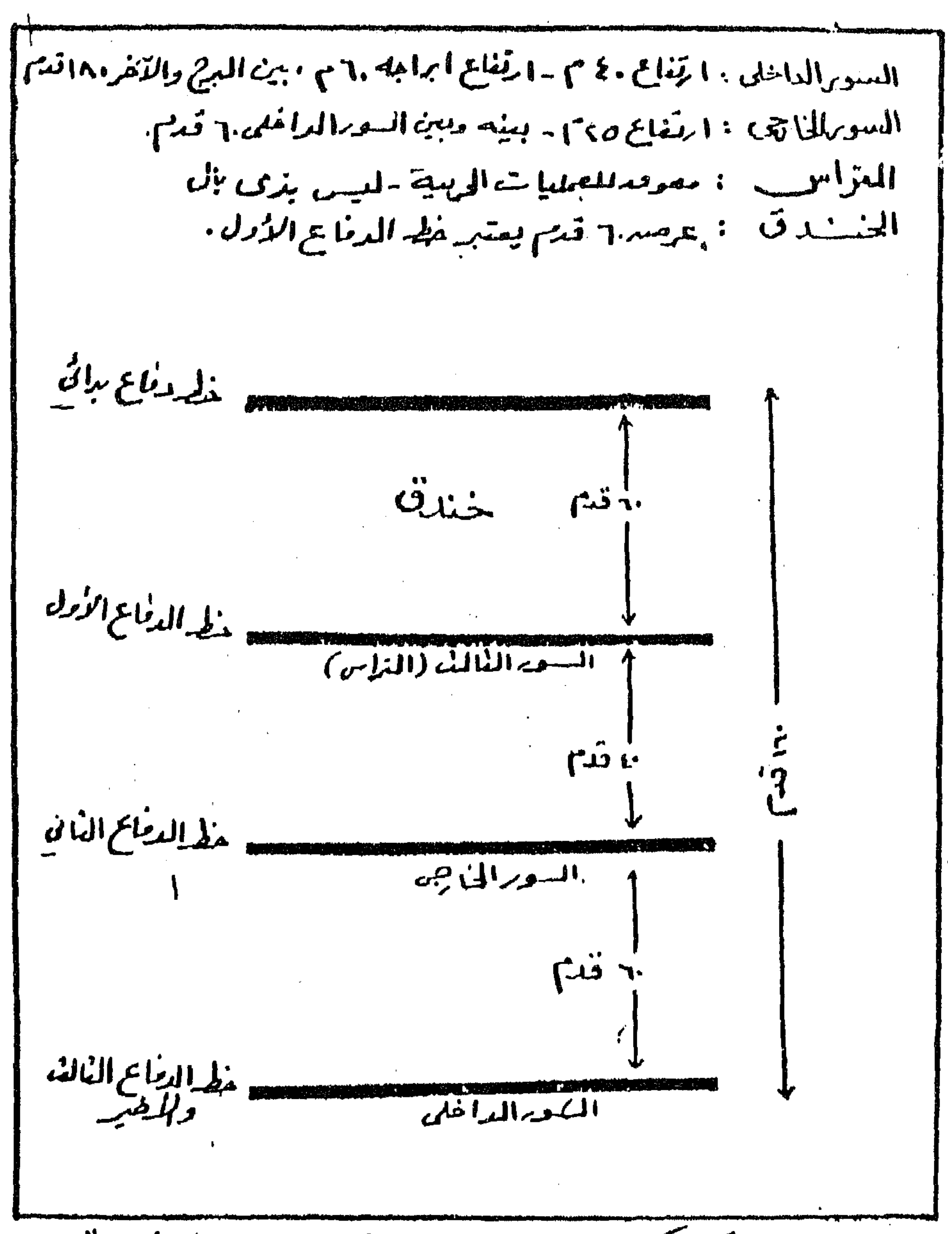
★ وهنالك أكثر من حديث حول فتح القسطنطينية، ومن ذلك الحديث الآتي:

«لاتقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصامنوا قالت الروم خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون لا والله لانخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم فيهزم ثلث لايتوب الله عليهم أبداً ويقتل ثلث افضل الشهداء عند الله، ويفتح الثلث لايفتنون أبداً فيفتحون قسطنطينية... الخ» راجع هذا الحديث وأحاديث أخرى عن فتح قسطنطينة في صحيح مسلم طبعة مصر ج ٨ ص ١٧٦ و ١٧٧.

الحصار العثماني للقسطنطينية في ٦/٤/١٤٥٣م (تم افتتاحها في ٢٩/٥/١٤٥٣م)
- للمقارنة مع الحصار العربي لها عام ٦٧٤-٦٨٠م
- للدلالة على أسلوب نقل المراكب الجاهزة برًا من البوسفور إلى القرن الذهبي وهو أسلوب اتبعه العرب قبلهم بعدة قرون.



ملاحظة: المنطقة الجنوبية في بحر مرمرة حاصرها العرب برًا بينما لم يحاصرها العثمانيون
انظر خارطة الحصار العربي.



رسم كروكي يبين عمق دفاعات القسطنطينية

الهجوم على عكا وتحرير السواحل والقواعد البحرية الشامية بقيادة صلاح الدين الأيوبي

عند قيام الدولة الأيوبية على أنقاض الدولة الفاطمية كان الصليبيون قد استولوا على عسقلان وصور وعكا وغيرها من القواعد البحرية الواقعة على ساحل البحر المتوسط، الأمر الذي دفع بالسلطان صلاح الدين إلى إحياء البحرية العربية لمواجهة العدوان الصليبي، واتخذ إجراءات كثيرة في هذا المجال منها: إنشاء ديوان الأسطول وزيادة رواتب البحارة وتخصيص الأموال اللازمة للأسطول وتنشيط دور صناعة السفن وتقوية الدفاع الساحلي وبث روح الحرب والجهاد المقدس في نفوس المسلمين. وبعد عشر سنوات قضاها الأسطول الأيوبي في الإعداد والتدريب بدأ عملياته الناجحة ضد العدو الصليبي في مياه البحر المتوسط.

وفي عام ١١٧٩ م تحرك الأسطول العربي من مصر لغزو فلسطين التي اعتصم فيها الصليبيون، ومنازلة أساطيلهم على متن البحار[٧٧] وكانت قوة الأسطول العربي قد زادت في تلك السنة واستخدم فيه بحارة من بلاد المغرب سبق لهم غزو بلاد الإفرنج. وفي يوم ١٤ تشرين أول ١١٧٩م، ١١ جمادي الأولى سنة ٥٧٥ هـ وصل الأسطول إلى ميناء عكا الذي كان يعج بسفن الصليبين ومراكبهم التجارية فاستولى الأسطول العربي على عدة منها تحطيماً وتكسيراً وأخلى الميناء من الباقي مدة يومين «وهذا مالم يقم به أسطول مثله في سالف الدهر ولا في حالة قوة إسلام ولا في ضعف كفر، ومما يذكر أن عساكر الأسطول قتلوا بعض رجال قلعة عكا رمياً بالسهام من بعد كبير»[٧٨].

وفي سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠م هاجم الأسطول الأيوبي جزيرة أرواد واستولى عليها وأخذ يغير منها على مدينة انطرطوس (طرطوس) فخرب مبانيها وأشعل النار فيها.

وفي سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م أصدر صلاح الدين أوامره إلى الأسطول العربي بالإغارة على بيروت لكنها لم تسقط في قبضته إلا في السابع من آب ١١٨٧م / ٢٩ جمادي الأولى ٥٨٣ هـ[٨٠].

---

(٧٧) جميل خانكي: تاريخ البحرية المصرية ص ١٤٨.

(٧٨) أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٣.

سيد علي الحريري: كتاب الأخبار السنية في الحروب الصليبية ص ١٣٦.

(٧٩) الباز العريني: مصر في عهد الأيوبين ص ١٧٤.

(٨٠) خانكي ص ١٤٩.

إن انتصـارات الأسـطول العربي الأيوبي ضد قوافل العدو وقواعده البحرية خلال السنوات التي سبقت معركة حطين قد عملت على شل حركة إمداداته ومواصلاته البحرية مما ساعد على نجاح خطط صلاح الدين في الشام وانتصاره التاريخي في حطين (تموز ١١٨٧م / ٥٨٣ هـ).

كان صلاح الـدين خلال تلك المـدة يعمل على جمع كلمة العرب وتوحيد الممالك العربية المتفرقة، واستطاع أخيراً أن يكون جبهة عربية متحدة تمتد من برقة غرباً إلى الفرات شرقاً ومن الموصل وحلب شمالاً إلى النوبة واليمن جنوباً.[٨١]

وقد شرح صلاح الدين سياسته هذه في خطاب أرسله إلى الخليفة العباسي المستضيء يقول فيه:

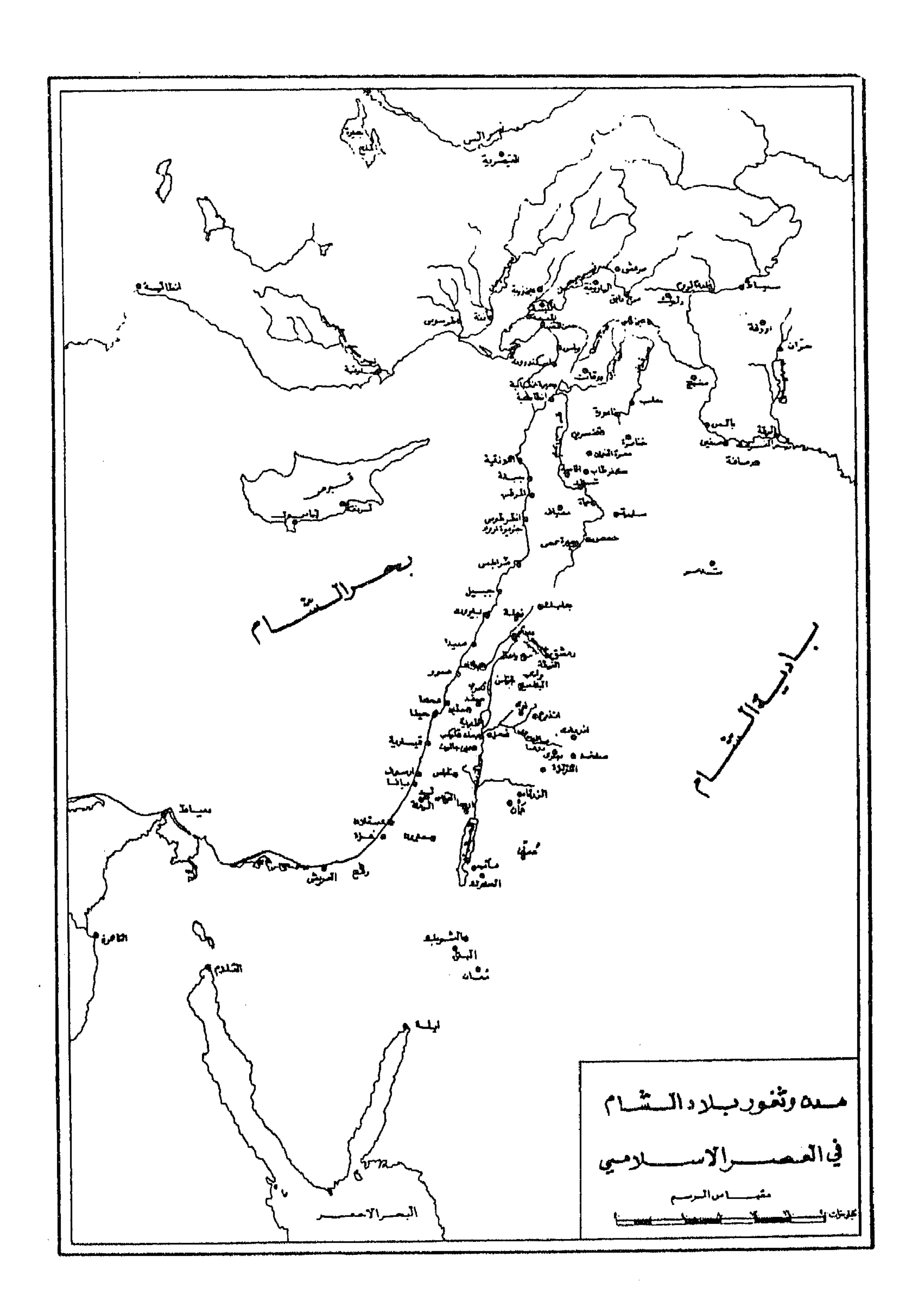
« لو أن أمور الحرب تصلحها الشركة لما عز علينا أن يكون هناك كثير من المشاركين ولا أساءنا أن تكون الدنيا كثيرة المالكين، وإنما أمور الحرب لاتحتمل في التدبير إلا الوحدة، فإذا صح التدبير لم يحتمل في اللقاء إلا العدة[٨٢]

وكانت الخطوة التالية لهذه الوحدة هي أن يقوم صلاح الدين بهجوم عام على مملكة الصليبيين في بيت المقدس، فاتجه بجيوشه إلى قلعة طبرية فحاصرها وسيطر على آبار المياه المجـاورة وجعـل نهر الأردن وراءه واستدرج الجيوش الصليبية إلى المكان الذي حدده هو للمعركة (تل حطين) وأنزل بهم هزيمة فادحة في تموز ١١٨٧م / ٥٨٣ هـ وقتل وأسر منهم عدداً كبيراً حتى قال المؤرخ ابن الأثير: « وكان من يرى القتلى يحسب أن ليس هناك أسرى ومن كان يرى الأسرى يحسب أن ليس هناك قتلى».[٨٣]

ولقد فتح هذا النصر الطريق إلى بقية الممتلكات الصليبية واختار صلاح الدين أن يبـدأ أولاً بالمـدن السـاحلية ليحـرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التي تربطهم بالعالم الخارجي وخاصة غرب أوربا قلب الحركة الصليبية فيصبحوا محصورين داخل بلاد الشام ويسهل القضاء عليهم هذا فضلاً عن أن استيلاء صلاح الدين على موانئ الشام سيمكنه من تحقيق الإتصال البحري السريع بين شطري دولته في مصر والشام.[٨٤]

---

(٨١) أبو شامة: ج ٢ ص ٢٩.
(٨٢) أبو شامة: ج ٢ ص ٤٨.
(٨٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٢٢٤.
(٨٤) المقريزي: السلوك ج ٢ ص ٩٣، ٩٦.


مدن وثغور بلاد الشام
في العصر الاسلامي
مقياس الرسم
بحر الشام
بادية الشام
البحر الاحمر
انطاكية
دمشق
حلب
قبرص
القاهرة
ايلة

ولقد نظم صلاح الدين تعاون البحرية المصرية مع الجيوش الشامية على استرداد عكا وقيسارية وبيروت وجبيل وعسقلان وغيرها من الثغور الشامية الساحلية، كما خرج صلاح الدين من نصر حطين بإحراز انتصارات أخرى حرر فيها فلسطين واسترد بيت المقدس في ذكرى ليلة الإسراء والمعراج. (٢٧ رجب ٥٨٣ هـ / ١١٨٧م) كما استرد جميع القواعد البحرية الشامية باستثناء صور وطرابلس وأنطاكية.

وقد عبر صلاح الدين عن هذا النصر بقوله في رسالة إلى أخيه تورانشاه في اليمن:

« . . . وإن بلاد الشام اليوم لاتسمع فيها لغواً ولاتأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً . . . » .[٨٥]

هـ - حصار عكا وسقوط السواحل الشامية بأيدي الصليبيين:

أحدث تحرير بيت المقدس وضياع معظم الممتلكات الصليبية رد فعل قوي في غرب أوروبا، وأخذت البابوية تبشر بحملة صليبية جديدة وتحض الملوك والحكام على فض نزاعاتهم الداخلية والإشتراك في هذه الحملة. وقد لبى الدعوة ثلاثة من كبار ملوك غرب أوروبا وهم: فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا وريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا وفيليب الثاني ملك فرنسا.

وعرفت هذه الحملة بالحملة الصليبية الثالثة، وامتدت ثلاث سنوات (١١٨٩ - ١١٩٢م) وهي من أكبر الحملات الصليبية في عدد جيوشها وأساطيلها.[٨٦]

بلغت أخبار الإستعدادات لهذه الحملة مسامع صلاح الدين ونصحه رجاله بتخريب عكا وتدمير أسوارها وإقامة عدد من المرابطين مكانها لخطورة موقعها على المسلمين، إذا ما تملكها الصليبيون غير أن صلاح الدين كان لايميل إلى تخريب المدن العامرة[٨٧] وفضل أن يزيد في استحكامات عكا ووسائل الدفاع عنها، واختار لهذا العمل الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي الذي سبق له أن أدار السور حول القاهرة وبنى قلعة المقطم (فاستدعاه

---

(٨٥) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٤.

(٨٦) عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٢٠١.

(٨٧) أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٢.

من مصر هو وأساتيذ العمل وأنفاره وآلاته ودوابه وأبقاره وفوض إليه عمارة عكا وعينه والياً عليها، كذلك استدعى حامية من جنود مصر للمشاركة في الدفاع عن هذا الثغر الهام[٨٨].

أخذت حشود الصليبيين وأساطيلهم تنزل تباعاً على عكا في سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م، ويقدر عدد سفنهم بما لايقل عن ٥٥٢ سفينة من مختلف البلاد الأوروبية، وهذا العدد كان يزيد بكثير على ماكان عند صلاح الدين من سفن حربية[٨٩]. وقد اعترف صلاح الدين بهذا التفوق البحري للعدو وفي إحدى رسائله مثل قوله: (ومن خبر الكفار أنهم الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ويخرج للمسلمين منهم أمرٌ من أجاجه . . . فإذا قتل المسلمون واحداً في البر بعث البحر عوضاً عنه الفاً[٩٠].

على أن صلاح الدين لم يقف ساكناً حتى تكتمل تجمعات العدو حول عكا بل سارع في مهاجمته واستطاع فتح الطريق الى المدينة لامدادها بالمؤن والأسلحة والرجال، كما رتب اليزك الدائم (الحراس) لمنع العدو من الخروج من خيامه، فانحصر فيها بحيث صار لايخرج منها أحد إلا يقتل أو يجرح[٩١].

وأظهرت حامية المدينة تحت قيادة قراقوش بطولة وشجاعة تسترعي الإنتباه واستمر الوضع على هذا النحو والقتال دائر على عكا إلى أن كثرت جثث القتلى وجيف الدواب من الجانبين، واضطر صلاح الدين إلى الإبتعاد من رائحتها إلى مكان داخلي بعيد عن عكا يسمى الخروبة. وقد أفاد الصليبيون من هذا الإنسحاب إذ تمكنوا من إطباق الحصار حول المدينة وقطع الطريق اليها[٩٢].

وقد تحملت البحرية العربية عبء الاتصال بحامية المدينة من جهة البحر وإمدادها بالمؤن والأموال والذخائر والرسائل وغير ذلك. ويروي أبو شامة أن السلطان صلاح الدين استدعى الأسطول المصري في أواخر ٥٨٥هـ / ١١٨٩م فقدمت خمسون قطعة بقيادة أمير البحر حسام الدين لؤلؤ الذي فاجأ مراكب العدو في مياه عكا وانتصر عليها وبدد شملها وظفر منها بمركبي شحن مملوءتين بالغلال والأموال والرجال كما أمد حامية المدينة بما تحتاج

---

(٨٨) أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٢٥.
(٨٩) الباز العريني: مصر في العصر الأيوبي ص ١٨٤.
(٩٠) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٧ ص ١٢٧ ـ ١٢٨.
(٩١) أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٢.
(٩٢) عبادي وسالم ص ٢٨٤.

إليه من طعام وسلاح.[٩٣] ويورد سيد علي الحريري بعض التفاصيل عن ذلك القتال فيقول : (وكان صلاح الدين قد ركب في العساكر جميعها وقاتلهم من كل جهة لينشغلوا بقتاله عن قتال الأسطول فيتمكن من دخول عكا فلم ينشغلوا، وخرج أسطولهم وكانت الناس قد خرجت على جانب البحر تقويةً للأسطول وإيناساً له ولرجاله. وقد التقى الأسطولان في البحر والعسكران في البر واضطرمت نار الحرب واستقرت وباع كل فريق نفسه ودار قتال شديد انجلى عن نصرة الأسطول المصري بعد أخذ مركب منه وقتل من كان بأسطول الصليبيين ونهب ما فيه ودخل الأسطول المصري عكا وكان قد صحبته مراكب من الساحل فيها ميرة وذخيرة[٩٤] . . .) وطابت قلوب أهل البلد بذلك.

على أن هذه الميرة لم تلبث أن نفذت بعد قليل مما اضطر الأمير بهاء الدين قراقوش والي المدينة إلى الاستنجاد بصلاح الدين من جديد[٩٥] واستمر الأسطول المصري يشق طريقه بنجاح إلى عكا حاملاً اليها مختلف الإمدادات واتخذ من ميناء حيفا - في جنوبها - مأوى يختبىء فيه إذا ما اشتد خطر الفرنج في البحر، وكثيراً ما ارتطمت بعض سفنه بصخور الشاطىء بسبب هيجان البحر في فصل الشتاء وقد اضطر الملك العادل أن يرابط بجيوشه عند ميناء حيفا للإشراف على السفن القادمة من مصر في طريقها إلى عكا.[٩٦]

أما في شمال عكا فكانت مدينة بيروت هي قاعدة الأسطول الشامي، وكان يوجد على سواحلها في مكان يسمى الزيب أو الزئب طائفة من المسلمين يجهزون السفن الداخلة إلى عكا ويقطعون الطريق على الفرنج وكان لأمير بيروت في ذلك الوقت واسمه عز الدين سامه غزوات كثيرة في البحر ضد مراكب العدو المارة ببيروت في طريقها إلى عكا فغنم هو ورجاله مغانم كثيرة، ويؤثر عنه أنه استولى على خمس سفن من أسطول ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد كانت مملوءة خيلاً ورجالاً ونساءً وأموالاً [٩٧].

---

(٩٣) أبو شامة كتاب الروضتين ص ١٤٨ -- ١٥٤ ، ابن واصل · مفرج الكروب : ج ٢ ص ٣٥

(٩٤) سيد علي الحريري : كتاب الأخبار السنية في الحروب الصليبيةص ١٨٤ ، انظر أيضاً ابن شداد . (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) ص ١٧٩ ص ١٨٠ .

(٩٥) أبو شامة ج ٢ ص ١٦١ .

(٩٦) أبو شامة ج ٢ ص ١٨١ ١٨٢ .

(٩٧) أبو شلمة ج ٢ ص ١٨٣ ١٨٤ .

وكان السلطان صلاح الدين (قد أمر نواب الإسكندرية بتجهيز سفن كبار وتعميرها بالغلال والأقوات وتسييرها إلى عكا ولكنها أبطأت عن الموعد المطلوب مما أضر بالمقيمين بمدينة عكا . وفكر صلاح الدين فيما يتعجل به الغرض ، فكتب إلى متولي بيروت عز الدين سامه ، فجهز بطسة كبيرة وأركبها جماعة على زي الفرنج ممسوحي اللحى وأصحبهم صلباناً وخيل بهم رهباناً ، وكانت هذه البطسة من الفرنج مأخوذة وهي بساحل بيروت منبوذة ، فأمر السلطان صلاح الدين بترميمها وتتميمها ، فملئت بالشحوم واللحوم وأربعمائة غرارة غرة وأحمال من النشاب والنفط ورتب فيها (رجالاً مسلمون ونصارى من أهل بيروت وأرادوا أن تتشبه ببطس العدو في البحر ، فشدوا زنانير واستصحبوا خنازير وساروا في البحر بمراكب الفرنج مختلطين وإلى محادثتهم ومجاذبتهم منبسطين . . .)[٩٨]

ويذكر ابن شداد (. . . واعترضوا في الحراقات (يقصد الصليبيين) وقالوا : (تراكم قاصدين البلد .) واعتقدوا أنهم منهم ، فقالوا : (ولم تكونوا قد أخذتم البلد ؟) فقالوا : (لالم نكن نأخذ البلد بعد .) فقالوا : (نحن نرد القلوع إلى المعسكر ووراثنا بطسة أخرى في هوائنا ، فأنذروهم حتى لايدخلوا البلد) وكان ورائهم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم قاصدين المعسكر فنظروا فرأوها فقصدوها لينذروها فاشتدت البطسة الإسلامية في السير واستقامت لها الريح حتى دخلت الميناء وكان ذلك في العشر الأخير من شهر رجب سنة ٥٨٦ هـ .)[٩٩]

وقد بذل صلاح الدين كل ما بوسعه لإنقاذ عكا فأرسل في سنة ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م سفيراً من قبله هو الأمير عبد الرحمن بن منقذ إلى خليفة المغرب يعقوب المنصور الموحدي يطلب إعانته بالأساطيل البحرية لتحول بين أساطيل الأعداء وبين إمدادات أساطيلهم في الشام . وعلى الرغم مما قيل من أن المنصور رفض هذا الطلب لأن صلاح الدين لم يلقبه في رسالته بلقب أمير المؤمنين[١٠٠] ، أي لم يعترف بخلافة الموحدين ، فقد ذهب بعض المؤرخين المغاربة إلى أن المنصور قد أرسل لصلاح الدين مئة وثمانين سفينة حربية لمنع الصليبيين من سواحل الشام .[١٠١] وكيفما كان الأمر فانه يلاحظ أن أساطيل الموحدين في ذلك الوقت كانت هي الأخرى تجابه أخطاراً جسيمة في مياه المحيط الأطلسي غربي الأندلس ، حيث كانت

---

(٩٨) أبو شامة ج ٢ ص ١٦١ .

(٩٩) ابن شداد ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

(١٠٠) أبو شامة ج ٢ ص ١٧٥ وما بعدها .

(١٠١) السلاوي الناصري : (الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .

أساطيل الألمان والإنكليز والفلمنك (سكان الأراضي الهولندية) المتجهة إلى الشام كثيراً ماترسو في الموانئ البرتغالية وتعاون ملك البرتغال (سانشو الأول) في مهاجمة جيرانه المسلمين في غرب الاندلس لهذا كان على أسطول الموحدين أن يعمل على حماية هذه الأطراف المغربية الإسلامية من هذا الخطر الصليبي[١٠٢]

وفي أوائل سنة ١١٩١ اشتد ضغط الصليبيين على عكا وعظمت شكاية حامية المدينة من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلاً ونهاراً. وقرر صلاح الدين تجديد حامية المدينة بواسطة أسطوله (وهو ما يسمى في العصر الحديث: « تبديل القوات أو تبديل المناوبة القتالية ». إلا أن هذه العملية لم تنجح بسبب صعوبة الظروف التي تمت فيها وتكالب العدو على المدينة من كل ناحية.

ويعلق كل من ابن الأثير وأبي شامة على ذلك بقوله: (. . . ودخل اليها عشرون أميراً عوض ستين فكان الذين دخلوا قليلاً بالنسبة إلى الذين خرجوا فلا جرم إن وقع الوهن وقضي الأمر)[١٠٣]

ويذكر ابن شداد في هذا المجال تحت عنوان : إدخال البدل إلى البلد: (. . . ولما هاج البحر وأمنت غائلة مراكب العدو ورفع ما كان له في البحر من الشواني إلى البر، اشتغل السلطان ـ رحمة الله عليه ـ في ادخال البدل إلى عكا وحمل المير والذخائر والنفقات والعدد اليها، وإخراج من كان بها من الأمراء، لعظم شكايتهم من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر، ملازمة القتال ليلاً ونهاراً، وكان المقدم البدل الداخل من الأمراء هو الأمير سيف الدين علي المشطوب، دخل في يوم الأربعاء سادس عشر المحرم من شهور سنة ٥٨٧ هـ ، وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الأمير حسام الدين أبو الهيجا وأصحابه ومن كان بها من الأمراء، ودخل مع المشطوب خلق من الأمراء وأعيان من الخلق وتقدم إلى كل من دخل أن يصحب معه ميرة سنة كاملة . . .) .[١٠٤]

هذا وقد زاد الموقف حرجاً احتلال ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد لجزيرة قبرص من أيدي البيزنطيين في نفس تلك السنة ١١٩١ م ومن ثم صارت قبرص قاعدة بحرية جديدة للصليبيين ومركزاً دائماً لتموين إماراتهم في الشرق العربي. وقد أثار هذا الحادث موجة من

---

(١٠٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب ج ٤ ص ١٧٥.

(١٠٣) أبو شامة ج ٢ ص ١٨٠ ـ ١٨٢ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٨٦٢.

(١٠٤) ابن شداد ص ٢٣٣ ٢٣٤ (وزارة الثقافة السورية ـ مستخرج من الكتاب الأصلي).

الفرح والحماسة في نفوس الصليبيين فشددوا هجماتهم على عكا واضطرت حامية المدينة أن توجه آخر نداء بالحمام الزاجل إلى صلاح الدين يقولون فيه: (إنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد ثامن الشهر (جمادي الأولى سنة ٥٨٧ هـ ١١٩١م، إن لم تعملو شيئاً نطلب الأمان وتسليم البلد). [١٠٥]

ولم تنجح جميع المحاولات العسكرية التي بذلها صلاح الدين لإنقاذ عكا فاضطر قائدها قراقوش إلى الإستسلام في تموز ١١٩١م بعد مقاومة دامت سنتين.

ثم واصل الملك ريتشارد زحفه جنوبا بحذاء الساحل وأساطيله تسير بجواره في البحر واستطاع أن يستولي على فلسطين من عكا إلى يافا ثم انحدر جنوباً نحو عسقلان وفي النهاية سيطر الصليبيون على معظم شواطيء الشام وفقد العرب سيطرتهم على البحر الأبيض المتوسط وتمكنت أوروبا الغربية من السيطرة على سواحل هذا البحر وجزره وتجارته بحيث صار بحراً أوروبياً نتيجة للحروب الصليبية، وقد اعترف ابن خلدون بهذا التحول بقوله: (... لما قام صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام باسترجاع ثغور الشام تتابعت أساطيلهم بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية فأمدهم بالعدد والأقوات ولم تقاوم أساطيل الإسكندرية لاستمرار الغلب لهم في ذلك الجانب الشرقي من البحر وتعدد أساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمن طويل عن ممانعتهم هناك. ولم يكن سلطان الفرنج على غرب البحر المتوسط بأقل منه على شرقه فلقد ملكوا الجزائر التي بالجانب الغربي من البحر الرومي وقويت ريحهم في بسط هذا البحر واشتدت شوكتهم وكثرت فيه أساطيلهم وتراجعت قوة المسلمين فيه إلى المساواة معهم ثم تراجعت بعد ذلك قوة المسلمين في الأساطيل لضعف الدول ونسيان عوائد البحر... وصار المسلمون فيه (يقصد البحر المتوسط) كالأجانب إلا قليلاً من أهل البلاد الساحلية. [١٠٦]

إن دراسة الهجوم على عكا وتحرير السواحل والقواعد البحرية الشامية ١١٧٩ م ودراسة حصار عكا وسقوط السواحل الشامية بأيدي الصليبيين ١١٩١م.

من وجهة نظر فن الحروب البحرية ومكانة الأسطول البحري في الفكر العسكري للناصر صلاح الدين الايوبي، تقودنا إلى الإستنتاجات التالية:

---

(١٠٥) ابن شداد (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) تحقيق جمال الشيال ص ٢٦٧ - ٢٦٨.

(١٠٦) مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٥ (دار القلم بيروت ١٩٨٤) بند قيادة الأساطيل.

أ ـ لم يكن صلاح الدين يقاتل بشكل عشوائي، بل كان يضع خططاً للقتال ويدرسه بدقة وعناية ثم يتحرك بحسبه.

ب ـ إن عملية الهجوم البحري على عكا في عام ١١٧٩م جزء من استراتيجية وضعها صلاح الدين والفتح بها الساحل الشامي، إذ كانت غايته فتح بيت المقدس واستعادته من الصليبيين، لكنه لم يبدأ بفتحه مباشرة بعد انتصار حطين خشية أن يحرك ويثير الغرب الأوروبي ضده فيفشل، بل رأى أن يبدأ بفتح المدن الساحلية فيضمها إليه ويبعد الصليبيين عنها، وبذلك يفقد القوات التي تحتل بيت المقدس إمكانية وصول إمدادات غربية عن طريق البحر. وفقدان الأمل هذا هو الذي ساعده على فتح القدس دون إراقة دماء أو فقدان أحد من جنوده. وقد أثبت التاريخ بعد نظره الاستراتيجي والتكامل في خططه السياسية والعسكرية.

وقد ظهر ذلك في موقعة حطين، اذ وضع في مخططه آن يفرض زمن المعركة ومكانها وشروطها لخدمة أغراضه الاستراتيجية اللاحقة ألا وهي تحرير السواحل الشامية ثم بيت المقدس وإنزال الهزيمة النهائية بالصليبيين.

ج ـ قاد صلاح الدين خلال الهجوم على عكا (١١٧٩ م ـ ١١٩١) عمليات بحرية مشتركة شارك فيها الأسطول البحري والجيوش البرية في عملية مركبة شملت:

د ـ تدمير قوى العدو البحرية في البحر (١١٧٩ م) وهذا نوع من أنواع العمليات البحرية في فنون الحرب البحرية الحديثة.

هـ ـ اختراق الحصار البحري.

و ـ التعاون بين القوات البحرية والقوات البرية في الأعمال التالية المشتركة واستدعاء الأسطول المصري للتعاون العملياتي بين مصر والشام.

ز ـ قطع (عرقلة) خطوط التموين البحري المعادي.

ح ـ استخدام الخداع والتمويه في الأعمال القتالية البحرية.

ط ـ تنظيم الإمداد والتموين البحري في ظروف الأعمال القتالية البحرية والبرية المعقدة.

ي ـ اعتمد صلاح الدين على شجاعة وتضحية البحرية العربية في قتالها ضد عدو يفوقها قوة وكثرة، واعتمد في المقاومة على عنصر المفاجأة والحيلة مع صدق العزيمة. وفي هذا

---

(١٠٧) ابن واصل: مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٥١.

الصدد يقول صلاح الدين في إحدى رسائله : (. . . وكان عدد مراكبهم كبيراً ولكن لقيناهم بأصدق منها عزمة، والقليل مع العزم الصادق كثير.[108] مشيراً بذلك إلى الهجوم على عكا عام ١١٧٩م.

ك ـ لجأ صلاح الدين إلى تبديل القوات المحاصرة المنهكة ١١٩١م بقوات جديدة لاستمرار الصمود والمقاومة (وهو نوع من تبديل المناوبة القتالية في العصر الحديث).

ل ـ أثبت صلاح الدين أن « الوحدة قوة» فوحد الصفوف العربية وجند إمكاناتها البرية والبحرية والإقتصادية وبث روح الحرب وعقيدة الجهاد فاستطاع الصمود في وجه الأطماع الصليبية االقوية المتحدة.

و ـ تحرير الثغور الشامية من السيطرة الصليبية بقيادة الملك الظاهر بيبرس (وسلاطين المماليك).

بعد انقراض الدولة الأيوبية على أثر مقتل آخر ملوكها[109] «توران شاه» في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي استولى المماليك على الحكم في مصر والشام وكان السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري (٦٥٨ ـ ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م) أول سلاطين المماليك اهتماماً بأمر الأسطول وإنشاء قواعد بحرية يتصدى بها لأعدائه الذين يغيرون على بلاده من جهة البحر الأبيض المتوسط. ويقول المقريزي في هذا الصدد: « أنه نظر في أمر الشواني الحربية واستدعى رجال الأسطول، وكان الأمراء قد استعملوها في الحراريق وغيرها وندبهم للسفر، وأمر بمد الشواني وقطع الأخشاب لعمارتها وإقامتها على ما كانت عليه في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأحرز على الخراج ومنع الناس من التصرف في الأخشاب وتقدم بعمارة الشواني في ثغرى الاسكندرية ودمياط وصار ينزل بنفسه إلى الصناعة بمصر ويرتب ما يجب ترتيبه من عمل الشواني ومصالحها، فبلغت زيادة على أربعين قطعة سوى الحراريق والطرائد فإنها كانت عدة كثيرة[110].

كذلك اهتم الظاهر بيبرس بتحصين الثغور وحفظ السواحل وتعمير الجسور المؤدية

---

(١٠٨) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٥١.

(١٠٩) عصر (المماليك ١٢٥٠-١٥١٧) ويقسمون الى قسمين : المماليك البحرية (١٢٥٠ ـ ١٣٨٢ م) والمماليك الشراكس (١٣٨٢ ـ ١٥١٧م).

(١١٠) المقريزي: الخطط ج ٢ ص ١٩٤ ، السلوك ج١ ق٢ ص ٤٤٧.

اليها، وعمر أسوار الإسكندرية ونصب عليها مئة منجنيق للدفاع عنها وجدد بناء المنار الذي بها.[111]

وقد اتسمت سياسة السلطان بيبرس نحو الصليبيين في الشام بطابع القسوة والعنف لأنهم أخذوا يتعاونون مع مغول فارس ضد دولة المماليك ويعملون أدلاء ومرشدين لجيوشهم المغيرة على الأراضي الشامية ، وساعدهم على ذلك موقعهم الجغرافي في الشام الذي أتاح لهم معرفة تحركات الجيوش المصرية والشامية وإحاطة المغول علماً بها مما سهل عليهم إحباط خطط المسلمين في كثير من الأحيان.[112]

بدأت الحرب بين بيبرس والصليبيين بمناوشات محلية، ويذكر المقريزي أن بيبرس ذهب بنفسه إلى الشام سنة ١٢٦٣ م وكانت حركاته وقتئذ تدل على أنه كان يتفقد قواته ويوزعها توزيعاً استراتيجياً خاصاً وعندما سارعت إليه وفود الإمارات الصليبية تطلب منه السلام والمهادنة قابلها بمنتهى الجفوة وقال لرسلهم : (ردوا ماأخذتموه من البلاد وفكوا أسرى المسلمين جميعهم فإني لاأقبل غير ذلك، ثم طردهم من مجلسه مما يدل على تصميمه على القتال[113].

وفي أوائل سنة ١٢٦٥ م دخل بيبرس في عمليات حربية واسعة النطاق ضد الإمارات الصليبية الساحلية فاستولى على مدينة قيسارية ثم على مدينة أرشوف جنوبها.

وفي سنة ١٢٦٦ م هاجم بيبرس قاعدة استراتيجية هامة في الشام وهي قلعة صفد التي كانت قاعدة لفرسان الداوية(*)، وبعد قتال عنيف تمكن من الإستيلاء عليها.

وبعد هذه الانتصارات سارعت بعض القوى الصليبية إلى عقد هدنة مع السلطان بيبرس على أساس مبدأ المناصفة أو لمشاركة معه في غلات بلادهم ومنتجاتها[114].

وفي سنة ١٢٦٨ م[115] (٦٦٦هـ) استولى بيبرس على مدينة يافا في الجنوب ثم وجه ضربة حاسمة في نفس السنة إلى أهم إمارة صليبية وهي إنطاكية في أقصى الشمال إذ هاجمها

---

(١١١) د. عبادي د. سالم ص ٢٩٦ .

(١١٢) د. عبادي د. سالم ص ٢٩٧ .

(١١٣) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٨٥ -- ٤٨٦ .

(١١٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٤٢ - ٥١ .

★ فرسان الداوية : الهيكليون (الفرسان **Templiers**) : جمعية عسكرية رهبانية تأسست عام ١١١٨م، أشتهر أعضاؤها أيام الحروب الصليبية في فلسطين، الغاهم البابا كلمينص الخامس عام ١٣١٢ م : (المنجد في اللغة والآداب والعلوم ص ٥٦٠).

(١١٥) المقريزي السلوك ج ١ ص ١٤٧ .

بثلاث فرق:
- اتجهت الفرقة الأولى إلى ميناء السويدية لقطع الصلة بين أنطاكية والبحر خوفاً من أساطيل العدو.
- قامت الثانية بسد الممرات بين قليقية والشام لمنع وصول إمدادات من أرمينيا الصغرى.
- هاجمت الثالثة وهي القوة الرئيسية بقيادة بيبرس - المدينة نفسها واستولت عليها سنة ١٢٦٨ م[١١٦] وقد استخدم بيبرس الحيلة (التمويه العملياتي) قبل التوجه بجيوشه إلى إمارة أنطاكية، إذ تظاهر بأنه يريد مدينة طرابلس، وحاصرها فعلاً فهرع صاحب أنطاكية بوهمند السادس باسطوله لينجدها وعندئذ ترك بيبرس خيامه ومتاعه عند طرابلس متظاهراً بالخوف والهزيمة واتجه من فوره إلى أنطاكية واحتلها بالطريقة التي ذكرناها، بينما كان أهل طرابلس يلهون ويقولون (الظاهر بيبرس خاف منا).[١١٧]

ولم يحاول بيبرس استخدام أسطوله في الهجوم على أنطاكية. بل اعتمد في ذلك على قواته البرية فقط، بدليل أنه عمد إلى استبعاد أسطول أنطاكيه من المعركة أولاً ثم وضع فرقة عسكرية بين المدينة والبحر لتمنع عنها المدد من هذه الناحية وبذلك تم له احتلال المدينة[١١٨] وهكذا كان دور الأسطول الإسلامي دوراً مساعداً في هذه العملية.

وكان سقوط إمارة أنطاكيه كارثة كبرى على القوى الصليبية لأنها كانت بحكم موقعها الجغرافي سنداً قوياً للدولة الصليبية منذ أوائل الحروب الصليبية.

وفي سنة ١٢٧٠م (٦٦٩ هـ) هاجم بيبرس إمارة طرابلس واستولى على المنافذ المؤدية إلى المدينة والحصون المحيطة بها ومن أهمها حصن الأكراد (Crac de chevallier) وحصن عكار فأصبح بمقدوره حينئذ حصار مدينة طرابلس نفسها ولكن الأنباء الواردة بوصول حملة صليبية إنجليزية بقيادة الأمير إدوارد إلى عكا جعلته يجيب صاحب طرابلس إلى طلبه بعقد صلح معه لمدة عشر سنوات سنة ١٢٧١ م[١١٩]. وفي أثناء المفاوضات التي دارت بين رسل بيبرس وبوهمند السادس (صاحب طرابلس)، كان بيبرس مندساً بين أعضاء الوفد الذي

---

(١١٦) المقريزي السلوك ج ١ ص ٥٦٨.

(١١٧) د. عبادي د. سالم ص ٣٠٢.

(١١٨) المقريزي: السلوك ج ١ ص ١٤٧.

(١١٩) هو ادوارد الأول ملك انكلترا فيما بعد.

يمثل بلاده ومتنكراً في زي خادم، كي تتاح له حرية التنقل بين حصون طرابلس ومعرفة مواضع القوة والضعف فيها تمهيداً لفتحها فيما بعد[١٢٠]

إن بعد نظر الظاهر بيبرس وتفكيره الاستراتيجي السليم قد أبعده أول الأمر عن التفكير بغزو قبرص القاعدة الصليبية التي يغيرون منها على سواحل الشام، وذلك لانشغاله بمجابهة خطر أشد وأدهى من الخطر الصليبي ألا وهو الخطر المغولي، وحتى لا يحارب على جبهتين قويتين في آن واحد فتتشتت قواه بين جبهة شرقية وجبهة غربية.

وفي سنة ١٢٧٢ توجه بيبرس لملاقاة التتر في أرضهم وحمل معه عدة مراكب مفصلة أجزاء على ظهور الجمال وأنزلها في نهر الفرات لتعبر بها جيوشه، واستطاع بيبرس وجنوده عبور النهر والإنتصار على الجيوش المغولية ومطاردة فلولها في الأراضي العراقية سنة ١٢٧٣م.

وفي عهد خلفه السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨ ـ ٦٨٩ هـ)، (١٢٧٩ ـ ١٢٩٠م) سقطت مدينة اللاذقية سنة ٣٨٥ هـ / ١٢٨٧م وهي آخر ما تبقى من إمارة أنطاكية الصليبية، وسقطت بعد ذلك مدينة طرابلس الشام سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩م).

ويروي المؤرخون أن السلطان قلاوون أطبق عليها بجيوشه ومجانيقه من جهة البر، ولم يحاول الإستعانة بالأسطول لمهاجمتها من ناحية البحر لدرجة أن الكثيرين من سكانها الصليبيين فروا من هذه الجهة على ظهر السفن إلى جزيرة قريبة من الساحل تعرف بجزيرة القديس نيقولا ولكن المماليك لحقوا بهم وقتلوهم عن آخرهم[١٢١]

وخلف قلاوون على عرش مصر والشام ابنه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩ ـ ٦٩٣ هـ) (١٢٩٠ ـ ١٢٩٣م) الذي وجه اهتمامه للقضاء على الامارة الباقية من دولة الصليبيين في الشام وهي عكا وقد هاجمها من ناحية البر وضرب حول أسوارها حصاراً قوياً مزوداً بالآت المجانيق الضخمة التي بلغ عددها ما يقرب من المائة منجنيق في نيسان ١٢٩١. وبعد شهر من الضرب المتواصل اقتحم المسلمون المدينة في ١٨ أيار ١٢٩١م (٦٩٠ هـ) وتجمع أهالي المدينة على ظهر السفن الراسية في مرفأ المدينة بغية الفرار الى قبرص أو إلى أي مكان آخر، وقد نتج عن ذلك غرق بعض السفن وحدوث اضطراب في جميع أنحاء الميناء.

ويستدل من دراسة معركة سقوط عكا أن البحرية الإسلامية لم تحاول قطع الطريق

---

(١٢٠) عبادي وسالم ص ٣٠٣.

(١٢١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢١، سعيد عاشور العصر المماليكي ص ٦٩.

على الصليبيين الفارين من عكا عن طريق البحر على غرار ما حدث تماماً في طرابلس وأنطاكية من قبل مما يدل على أن دور البحرية العربية الإسلامية في هذه الفتوحات الشامية كان دوراً مساعداً بالنسبة إلى ضخامة العمليات العسكرية البرية التي قام بها كل من بيبرس وقلاوون والأشرف خليل.

وتلى سقوط عكا احتلال المرافيء الصليبية القليلة الباقية مثل صور وصيدا وحيفا وبيروت وانطرطوس وبذلك يكون قد تم طرد الصليبيين من بلاد الشام.

إن امتلاك المسلمين لسواحل بلادهم جعلهم يشعرون بمسؤولية المحافظة عليها ويهتمون بوسائل الدفاع عنها خصوصاً بعد أن تركز الخطر الصليبي في الجزر القريبة من سواحلهم في البحر الأبيض المتوسط.

وهنا نلمس حركة إحياء جديدة للبحرية العربية، يشهد بذلك اهتمام المنصور قلاوون بطرابلس وجعلها نيابة سلطانية يحكمها نائب السلطان بمرسوم سلطاني، وكان من أهم اختصاصه شد البحر(١٢٢) وشد الشواني بمواني نيابته وهي: طرابلس الشام، واللاذقية وأنطرطوس وجبلة(١٢٣).

وخلف الأشرف خليل أخوه محمد بن قلاوون الذي واصل سياسة أخيه البحرية واهتم بإنشاء الأساطيل للدفاع عن سواحل بلاده(١٢٤) وكانت بعض فلول الصليبيين المنسحبة من الشام قد استقرت في جزيرة أرواد (أمام بلدة أنطرطوس) شمال طرابلس واتخذتها قاعدة يشنون منها الغارات على المواني الشامية وخاصة مدينة طرابلس؛ فقرر السلطان الناصر محمد احتلال تلك الجزيرة، فأعد الأسطول وشحنه بالمقاتلة والسلاح والنفط وأسند قيادته إلى أمير البحر سيف الدين كهرداش الزراق المنصوري، وأبحر الأسطول سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢م) متجهاً إلى ميناء طرابلس حيث انضم إليه نائب طرابلس أمير أسند مركرجي ومعه الرئيس البطراني المغربي ببعض القطع البحرية التي تحت قيادته ثم أطبقت الحملة على جزيرة أرواد واستولت عليها عنوة بعد أن حطمت أسوارها وقتلت ألفاً من أهلها وأسرت نحو خمسمائة(١٢٥)

---

(١٢٢) شد: تعني الإشراف أو الإعداد أي أنه يشرف على البحر وعلى إعداد السفن.
(١٢٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٢٢ ص ١٧٦.
(١٢٤) المقريزي: الخطط ج٢ ص ١٩٤ ـ ١٩٥.
(١٢٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٥٦.

وبذلك تم تحرير سواحل الشام من الصليبيين وبقيت القدس بأيدي المسلمين، وهما هدفان لم يتمكن الصليبيون من تحقيقهما وتكبدوا خسائر جسيمة في الأرواح والمعدات وانطبق عليهم قول المثل العربي:

« ذهبت النعامة تطلب قرنين، فعادت بلا أذنين».

نستنتج من معارك تحرير السواحل الشامية من وجهة نظر فن الحرب البحرية ما يلي:

أ ـ خطط الظاهر بيبرس ونفذ عملية متكاملة (برية بحرية) استهدفت طرد الصليبيين من الساحل الشرقي للمتوسط.

ب ـ كان دور الأسطول دوراً مساعداً لكنه كان موجودا في المعارك الأساسية (أنطاكية، طرابلس، عكا) وتحمل العبء الأساسي في تحرير أرواد.

ج ـ تميز الظاهر بيبرس ببعد النظر الاستراتيجي والتخطيط السياسي والعسكري السليم فهادن جبهة لصالح انتصار في جبهة أخرى وناور بعامل الزمن.

د ـ كان الاعتماد أساسياً على الشجاعة والمغامرة.

هـ أعير اهتمام كبير للدفاع الساحلي قبل بدء معارك التحرير وبعدها لاتقاء أي هجوم غادر.

و ـ استخدم التموية العملياتي (والحيلة) في معركة أنطاكية.

ز ـ لوحظ في وضع الخطط قطع الإمدادات البحرية المعادية.

ح ـ لم يزج السلطان بيبرس بالأسطول البحري الإسلامي في أي معركة بحرية مع الصليبيين نظراً لإمكانية التحرير بالقوات البرية ولتفوق الصليبيين في البحر.

ط ـ استخدم بيبرس طريقة المناورة بالسفن الحربية المفككة لعبور نهر الفرات وخوض معركة برية باستخدام وسائط بحرية.

الفصل السادس

تكتيك القتال في البحر

- إن المؤرخين المسلمين لم يذكروا شيئاً يتعلق بفنون القتال البحرية وبخاصة في العصر الإسلامي الأول وأن المصدر الأساسي لهذه الفنون هو كتاب الامبراطور ليو السادس(٩١٢م) المعروف باسم (Denavali practic)[1] على أن ما أورده المقريزي (المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣١٧) خاصاً بالأسلحة وآلات القتال البحرية وما أضاف اليه عبد العزيز سالم (السيد عبد العزيز سالم - البحرية المصرية في العهد الفاطمي ٢٩٧ - ٥٦٧ هـ ، ٩٠٩ - ١١٧١م ص ٥٠١ - ٥٠٣) . وما ورد من نصوص للحسن بن عبد الله خاصة بصعوبة القتال في البحر لترتفع إلى مستوى المعلومات التي وردت في كتاب ليو السادس الأنف الذكر، بل وتزيد عليها، وأن في نصوص العهد الذي ورد في كتاب الخراج لقدامة بن جعفر (كما أسلفنا) والصادر من الخليفة العباسي لأحد أمراء البحر في أوائل القرن الرابع الهجري لمادة طيبة كذلك عن (استراتيجية الحروب البحرية العربية)[2]

فقد أخذ العرب على أنفسهم بنظام التدريب العنيف على الحرب البحرية وعرفوا أساليب أعدائهم وتنظيماتهم وأمكنهم بذلك اختيار السلاح المناسب في الوقت المناسب والمكان المناسب واستخدام عنصر المفاجأة وقت اللزوم فيما يعرف اليوم بالحرب الخاطفة[3] .

ويذكر درويش النخيلي عن ابن هنكلي عن طاقم الغراب المهيأ للقتال : «ينبغي أن يكون في الغراب الغزواني الكامل عشرة ممن يسوسوه[*]، منهم رايس ريح وماسك ونقيبان

---

(١) على محمد فهمي (البحرية الإسلامية في شرق المتوسط من القرن ٧ - ١٠ الميلادي ص ٣٢٢

(٢) أنور عبد العلهم ص ١١٥ .

(٣) أنور عبد العليم ص ١١٥ .

★ كما وردت في النص بدلاً من (يسوسونه) .

وأربعة نجار وحكيم وجرائحي وجلفاط وثلاثون جلاسا من أهل الزعامةوالشهامة والخفة والخبرة بضرب السيف وقتال البحر وأربعون راميا»[٤]

كما أورد النخيلي نصاً نادراً لإحدى المناورات البحرية التي أشرف عليها السلطان أبو عنان المريني في مياه بجاية بالمغرب فيقول: (. . . امتثالاً لتعليمات أبي عنان اصطفت أساطيل البحرية المتوكلية يتقدمهم القائد الأعلى في طريدته ثم أسطول طنجة يتقدمه قائده ابن الخطيب في غرابة، وبعد هذا الأجفان التي يكسوها طلاء السواد الحالك وتظهر صواريها شبه المآذن، بينما شحن داخلها بالأبطال من رامٍ وسائف « أي حامل سيف»). ورامح، وقد لبسوا الحديد ورفعوا عقائرهم بالتحميد والتمجيد فما شوهد أبدع من تلك الأجفان وقد صدحت الموسيقى . . . الخ . ويقصد بالأجفان قطع الأسطول على اختلاف أنواعها[٥]

وقد جرت التقاليد البحرية في الدولة الفاطمية عند إعداد الدولة للغزو أن يقوم (النقباء) وهم أشخاص معروفون من (ديوان الجهاد) لجمع الجند للأسطول من بين الذين يعرفون الحرب البحرية، ويتصفون بالجرأة، ويوم سفر الأسطول يقام احتفال (المودعة) حيث يحضر الخليفة ومعه الوزير والأعيان وتقام مراسم الوداع.

وبعد أن تتجمع السفن بالميناء المخصصة للغزو يصدر أمير البحر أوامره للرؤساء بالإبحار، وكانت المهمة الأولى التي يضطلع بها أمير البحر في تلك المرحلة هي إخفاء أسطوله بشتى الطرق حتى يتقي إغارات سفن الأعداء وليستطيع اتخاذ المراكز التي تكفل له الغلبة. ومن التعليمات التي اتبعها أمير البحر لإجادة التخفي قبل المعركة هي: ألا يتخذ في المراكب ناراً ولايشعل مصباحاً ولا يترك ديكاً (حتى لا تجذب الإنتباه بصياحها). وإن اشتد الخوف عليه وأراد الإختفاء فليجدد قلوعاً زرقاً كي لاتظهر من بعد [٦].

وكانت تعبئة الأساطيل عبارة عن قلب وجناحين ومقدمة وساقة، أشبه بالجيش البري، وإما تصطف السفن على هيئة نصف دائرة، حتى إذا حاول العدو الإقتراب منها أحاطت به وحطمته وفي بعض الأحيان كانت سفن الأسطول تقف صفوفاً مستقيمة لتنطح مراكب العدو باللجام وتغرقها[*](أي بترتيب النسق انظر ص ١١).

---

(٤) درويش النخيلي. السفن الإسلامية على حروف العجم ص ١٠٧ ـ ١٠٨ العدوي ص ١١٥

(٥) درويش النخيلي ص ٢٤ ، عبد العليم ص ١١٦ .

(٦) الحسن بن عبد الله «اثار الأول» ص ١٩٦ ، العدوي ص ١٦٨ .

★ كان قدماء المصريين (في عهد الفراعنة) يتبعون أسلوب صدم مركب العدو في وسطه بمقدم مركبهم حتى يفرق المركب المصدوم أو يكسر بعض المجاديف فيعتريه الضعف، وكانت مقدمات سفنهم من معدن تعلوه صورة المعبود الذي كانوا يستبشرون به (جميل خانكي : تاريخ البحرية المصرية ص ٢٦ ـ ٢٧)

غير أن الأساطيل العربية اتبعت منذ عهد مبكر أسلوباً آخر في المعارك أثبت أنه سلاح قوي، ذلك أن السفن الحربية عمدت إلى الإقتراب من مراكب الأعداء وجذبها اليها بواسطة الكلاليب ثم وضع ألواح بين جوانب السفن أشبه بالجسر بحيث تمكن للجند العرب الإنتقال إلى العدو ومحاربته وجهاً لوجه على نحو ما حدث في وقعة ذات الصواري . وهذا الفن الحربي من قتال البحر يكشف عن ملكات العرب الفذة وقدرتهم على الإستفادة من النظم الحربية القديمة، ذلك أن محاربة العدو على ظهر سفينة من ابتكار روما حين اصطدمت مع قرطاجنة في الحرب البونية(**) ٢٦٤ - ١٤٦ ق.م فقد تخلى الرومان في تلك المعارك عن طريقة دق أو قطم مجاذيف الأعداد والاستعاضة عن ذلك باتخاذ نوع من الكباري الطويلة (أو كما سميت باسم (Corvus) القابلة للرفع تشدها بكرة إلى سارية المركب وبنهايتها خطاطيف تثبت بواسطتها في سفن الأعداء حين تقترب منها، ثم ينتقل الجند عليها إلى العدو.(٧)

وقد أدخل العرب عدة تحسينات على هذا الفن الحربي الذي ابتكره الرومان والذي عجز خلفاؤهم من الروم عن الإستفادة منه. إذ كان الروم يخشون الإقتراب من سفن الأساطيل العربية، ويجتهدون قدر طاقتهم على تفرقة المراكب بعضها عن البعض الآخر . ومما حفز العرب على استخدام هذا الفن الحربي طبيعة الملاحة في تلك العصور الوسطى، حيث اعتمدت اعتماداً عظيماً على الرياح. فكانت السفن الحربية تواجه أحياناً رياحاً لا توافقها، أو تهب من ناحية لاتوافق خططها. واعتمد امراء البحار العرب في تلك الحالات التي تركد فيها الرياح على تسيير سفنهم بقوة المجاذيف ووضعها في الأماكن التي تكفل لها النصر

على أن الفوز في تلك المعارك لم يكن سهل المنال كما ورد في نص للحسن بن عبد الله في كتاب آثار الأول « إن الحرب في البحر شديد صعب‌عسير، لأمور منها أن المجال ضيق ، ولاتكاد السهام والأحجار تخطىء ، وكل رشق ينكيء ، ومنها اختلاف الرياح بما يضر، وسكونها عند وقت الحاجة اليها ومنها أنه لايمكن فيه الهرب والفرار إن اقتضت المصلحة ذلك. . . ولذا(فان الشطرنج وضع لتمثيل حرب البر. والنرد وضع لتمثيل حرب البحر،

---

(٧) ولز معالم تاريخ الانسانية (ترجمة عبد العزيز جاوية) ص ٤٤٢ - ٤٤٣ ج١ العدوي ص ١٦٩ .

★★ الحرب البونية : هي الحرب التي وقعت بين قرطاجة وروما بسبب مطامع روما التوسعية ورغبتها في انتزاع صقلية من القرطاجيين (Guerres Pumiques)



الأسطول المصرى فى معمعان إحدى المعارك البحرية فى عهد الفراعنة

فإن صاحب النرد وإن وضع المهارك في المواضع الجيدة واحترز فإذا جاءت الفصوص بما لايوافق الغرض لم ينتفع باحترازه وبطل عليه تدبيره كاختلاف الريح واضطراب البحر)[8]

وبالجملة يجب على والي البحر أن يستجيد المراكب ويستجدها ويكثر تقويتها وادخار آلاتها حتى إذا تلف شيء من ذلك وجد ما يخلفه ويحتاط في تقييدها وإحكام مايلاقي في الماء منها ، فإنه الأصل الذي يعول عليه. ويتخير القواد والرؤساء العارفين بمسالك البحر ومراسيه وعلامات الرياح وتغيرات الأنواء والحركات البحرية من المد والجزر ويحترس من هجوم العدو عليه في الليل فلا يتخذ في المراكب ناراً ولا يشعل مصباحاً ولايترك فيه ديكاً[9].

وإن اشتد الخوف عليه وأراد الإختفاء فليجدد له قلوعاً زرقاء كي لاتظهر من بعد. وينبغي أن لايهجم على المراسي لئلا تكون مراكب العدو بها كامنة ولايتقدم إلى البر إلا بعد المعرفة والإحتراز من الأحجار والنشاب والأحارس التي تنكسر عليها المراكب، ويكثر من الماء والزاد ليستظهر على طول المدة إذا دعت الحاجة إليه كادخار أصحاب الحصون. وإن كان القتال بقرب البر والسواحل والجزائر فليجعل عيونه وطلائعه على الجبال[**]. فيتأهب لذلك. ويعمل مقدم المركب على تأليف أصحابه ووعدهم واستمالتهم وتحريضهم[***] قبل الحرب كما يفعل والي البر، وأبلغ من ذلك، لأن هذا لامنجى منه ولا مخلص إلا بصدق القتال ـ إما كاسر وإما مكسور.

والمراكب الكبار إن سكن الريح عنها جذبتها الشواني إلى مواضع القتال ، والمراكب الصغار والشواني لاينبغي أن تأتي خلف البطس والمسطحات فانها تغرق في واديها، وأما من جانبها فلا يمكنها الإلتصاق بها بل تقابلها عن بعد وتنطحها بالقياس الذي يقال له اللجام.

وإذا أمكنتهم الفرصة تأخروا به قليلاً ثم قذفوا قذفة واحدة قوية فينطح المركب فيغرقه ويدخل الماء فيه فيطلبون الأمان.

وإذا تقرب الشيء من الشيء طرحت فيه كلاليب من الحديد فيها سلاسل معقودة إلى المراكب فتوقفه. ثم يطرح الألواح بينها كالجسر ويدخلون إليه ويقاتلون . . . . وليس في الحرب البحرية شيء أصعب من النفط بسبب الزفت والقير الذي يطلى به المركب فيحتاط

★ هذا القول لأحد حكماء الفرس ويدعى جاماسب.

(٨) الحسن بن عبد الله، آثار الأول ص ١٦٥ ، د. أنور عبد العليم ص ١٠٨ علي محمد فهمي ص ٤١١ .

(٩) سبق ذكره.

★★ وهو مايعرف بالإستطلاع.

★★★ وهو مايعرف بالتوجيه المعنوي السياسي.

لدفع ذلك باللبود المبلولة بالخل والشب والنطرون، ومما يدفعه الطين المخلوط بالورق والنطرون والطمي المعجون بالخل. والأصل في قتال البحر معرفة الرياح حتى يتقدم خصمهم أو يعلو عليه فوق مهب الريح. وأما القول في الخلجان وفي الأنهار فهو دون هذا وهو قريب من قتال البر وإنما يصعب فيه السلوك في الرحال والمضايق ويكون العدو على البر فيجذب بالكلاليب والخطاطيف ويرمي بالسهام والحجارة - فأما الكلاب (الكلاليب) فتضرب بفأس صغير فولاذ يقطعه. وأما الدحال والأجسام فلا سبيل إلى دخولها إلا بدليل من أهلها، ويتوقى المراحل التي فيها والمضايق ويقصد الأطراف»[10]

وتشكل هذه التعليمات إرشادات «تكتيكية» مفصلة مهمة لمقدمي الأساطيل توضح ما يجب عمله في أوقات الشدة وما يجب الاحتراس منه عند ملاقاة العد وفي البحر في أحواله المتقلبة.

وقد اهتم بعض قادة المسلمين بتربية الجيل الناشىء وإعداده للحرب والجهاد (أي التدريب بكل مستوياته) فيروي المؤرخون أن الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي أنشأ في مراكش مدرسة لتخريج رجال السياسة وقادة الجيش والأسطول يتدرب فيها الرجال على فنون الحرب المختلفة وخوض المعارك البحرية، وذلك في بحيرة خاصة قرب قصره وضع فيها السفن الكبيرة والصغيرة للتدريب على القتال البحري وفنون البحر وقيادة السفن [11]

وقد أورد لنا المقريزي وصفاً دقيقاً للقوانين التي كان على الربان أن يتبعها في الحروب البحرية:

« أما الحروب البحرية بين السفن فكان لها قوانين في دولة المماليك البرجية والبحرية في مصر، منها: أنه إذا كانت الحرب بين الشواني وبين البطس والمسطحات فإنهم لايأتون بالشواني ولا بالمراكب الصغيرة خلف البطس والمسطحات لئلا تغرق في واديها، ولا يأتون بها من جانبها فإنها لايمكنها الإلتصاق بها بل تقابلها عن بعد وتشطحها بالفأس الذي يقال له اللجام فيدخل عند الحرب في اسطام المركب، وهي الخشبة التي في مقدم الشين. وإذا أمكنتهم الفرصة تأخروا به قليلاً ثم قذفوا قذفة واحدة قوية فينطح المركب ويدخل الماء فيه، وإذا كانت الحرب بين الشواني وبعضها تقرب الشيني من الشيني فتوقفه ثم تطرح الألواح

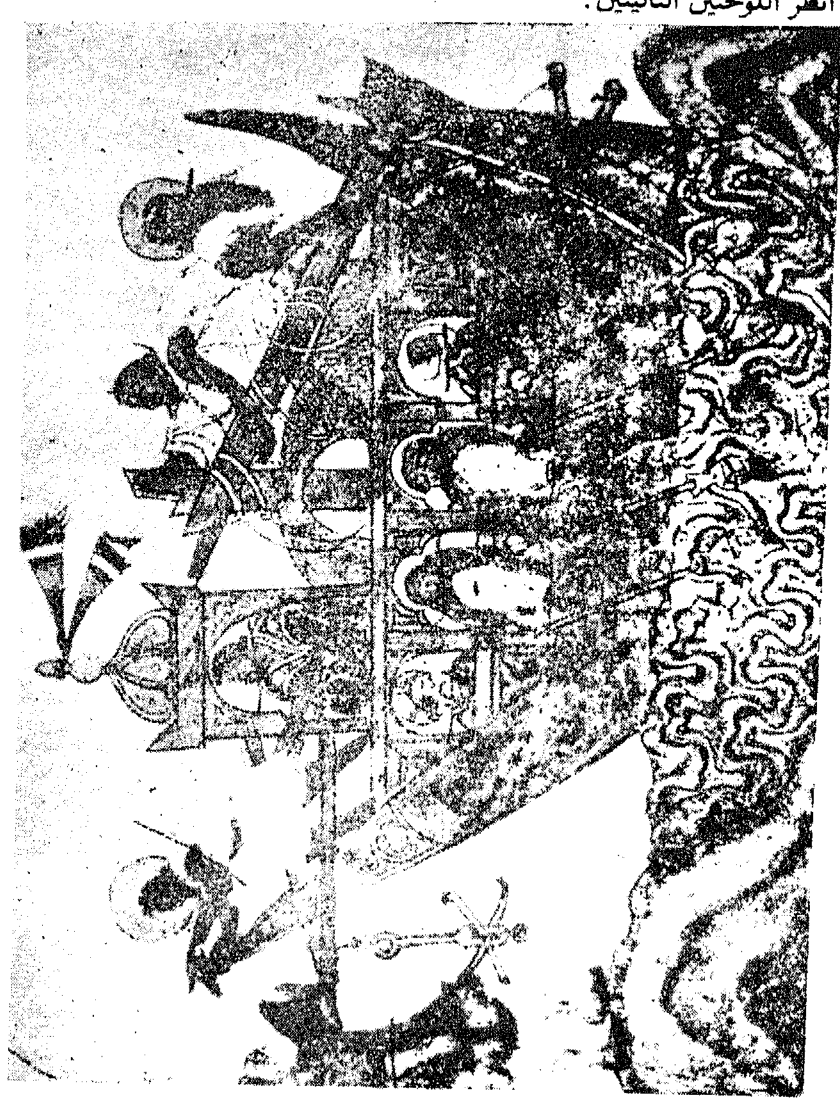
(١٠) الحسن بن عبد الله ص ١٦٥ ، عبد العليم ص ١٠٨ - ١٠٩.
علي محمد فهمي ص ٤١١.

(١١) حول تفاصيل ذلك انظر عبادي وسالم (البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس)ص ٢٥٩ - ٢٦٠. وتعتبر هذه البحيرة مع تجهيزاتها ومحتوياتها حقل تدريب قتالي بحري (ميدان تدريب قتالي) بالمفهوم الحديث. وربما كان ذلك أول حقل بحري (أو ميدان) من نوعه في التاريخ العربي الإسلامي.

بينها كالجسر ويدخلون إليه ويقاتلون .[١٢]

وكانت المراكب الكبار إذا سكنت الريح عنها جذبتها الشواني إلى موضع القتال . وكان الأصل عندهم في قتال البحر هو معرفة الرياح ، فكانوا يحركون المراكب بالأرجل حتى يتقدم مركب خصمه أو يعلو عليها فوق مهب الريح[١٣] .

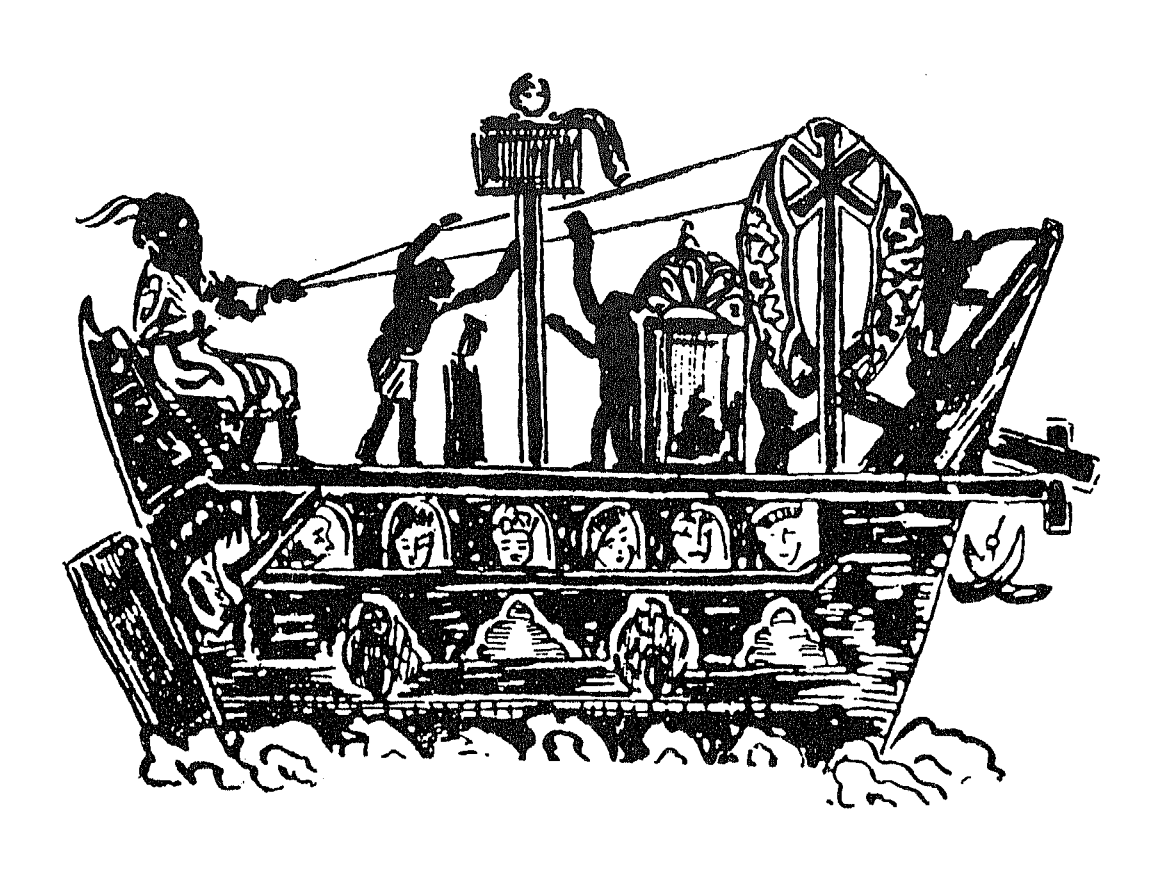
انظر اللوحتين التاليتين.



(١٢) يعني ذلك تحويل المعركة البحرية إلى معركة برية كما في ذات الصواري .

(١٣) المقريزي ج١ ص ٤٣٨ .

انظر أيضاً سعاد ماهر (البحرية في مصر الإسلامية) ص ٢٨١ .



وكان أفضل من وصف الحرب البحرية والمعركة البحرية في الشعر العربي الإسلامي هو البحتري.

(أبو عبادة الوليد بن عبيد: ٢٠٥ ـ ـ ٢٨٤هـ / ٨٢٠ ـ ٨٩٧م) في قصيدته المشهورة (الميمـون)التي يصف فيهـا معركة أسطول المتوكل بقيادة أحمد بن دينار بن عبد الله ضد أسطول الروم حتى قال عنه النويري صاحب نهاية الأرب (ج ٦ ص ١٩٧) «لم يصف أحد من المتقدمين والمتأخرين القتال في المراكب إلا البحتري». فجاءت قصيدته نفيسة القدر في شعر الحماسة العربية، لاسيما كونها في الحرب البحرية.

ومن دراسة القصيدة المذكورة من وجهة نظر فن الحرب البحرية نستنتج ما يلي:

أ ـ حدد البحتري أسلوب (المراقبة والإنذار واستكشاف طريق البحر) ومكان وقوف النوتي في أعلى صاري السفينة لتنفيذ تلك المهمة، وما زجرة النوتي إلا (الأوامر العسكرية) للجنود البحرية:

إذا زجر النّوتي(*) فوق علاته[١٤]   رأيتَ خطيباً في ذؤابة مِنْبَرِ

ب ـ صور البحتري نظام البحارة واصطفافهم لتلقي الأوامر من رئيسهم الإشتبام فمثله في وصفه بأن النوتيين وهم في حضرته كانوا يغضون أبصارهم وهم (في صفين متقابلين) كأنهم وقوف في سماط انتظاراً لمرور الأمير العظيم :

يغضُّون دون الاشتبام[١٥] عيونهم   وقوف السّماط[١٦] للعظيم المؤمَّر

ج ـ صور البحتري تصرف البحارة عندما تهتز سفن الأسطول لهبوب الريح العاصفة حيث يتسلق الإشتبام (رئيس المركب) أعالي الصواري ليشد القلاع كي تصمد للريح العاتية فكأنه على جناح عقاب :

إذا عصفت فيه الجنوب(**) اعتلى لها   جناحا عقاب في السماء مهجر[١٧]

د ـ وصف البحتري جنود البحر وهم ملتفون حول قائدهم ابن دينار ركابون للهول معاقرون لكؤوس المنايا (أي تتوفر فيهم الشجاعة والقوة وهم قادرون على القتال في البحر العاصف) كذلك حدد البحارة بمدرعين وغير مدرعين حسب الحاجة وطبيعة العمل في السفينة أثناء المعركة :

★ أنظر تراتيب القتال في الأساطيل العربية ص ١١ (احتمال) .

★★ لاحظ التشابه في فن الحرب البحرية بين أسطول الفراعنة والأسطول العربي الإسلامي (فاصل زمني يزيد عن ألف عام) إذ تدل دراسة الصورة المنشورة في ص ٧٣ على استخدام نفس أسلوب القتال الذي استخدم في معركة ذات الصواري من حيث تقارب وتلاحم السفن والاقتتال بالأسلحة البرية، أي تحويل المعركة البحرية إلى معركة برية وبصورة عامة فإن لذلك علاقة مباشرة بطبيعة الأسلحة المستخدمة في تلك العصور ومداها المحدود.

(١٤) العلاة : سندان الحداد . ومن شكله أراد به البحتري برج الصاري في السفينة ، الذي يكون فيه المرصد ومكان النوتي الآمر، ووقفة النوتي فيه كوقفة الخطيب في رأس المنبر. وجاء في نهاية الأرب ج ٦ ص ٩٧ العلاة الموضع الذي يركب فيه الملاح السفينة.

(١٥) الأشتيام : كلمة معربة وردت في لسان العرب : رئيس المركب.

(١٦) السماط : الجنود المصطفة.

(١٧) يذكر المؤرخون أن المعركة كانت محفوفة بالعواصف المهلكة.

وحــولــك رَكّــابــون للهــول عاقــروا كؤوسَ الــردى من دارعــين وحُسَّرٍ[18]

هـ ـ وصف البحتري استخدام الجنود للسلاح الفردي وهم يميلون بالنشاب، فحيثما مالت أكفهم بحد الحديد مالت المنايا وهو هنا يحدد بدقة (أن أسلحة البر قد استخدمت في البحر) ثم ينتقل إلى ذكر النار (رشق النار، قذف اللهب) فأحرقوا السفن وجسوم من فيها حتى شم القتار (اللحم المشوي) وهو يقصد (النار البحرية). أي حدد البحتري الأسلحة المستخدمة في المعركة البحرية (أسلحة برية وأسلحة بحرية):

تميل المــنــايا حيث مالــت أكــفــهــم إذا أصــلتــوا حد الحــديد المــذكــر
إذا رشقــوا (بــالــنــار) لم يك رشقهم ليقــلــع إلا عن شواء مقــتــر
كأن ضجيج الــبــحــر بين رمــاحــهــم إذا اخــتــلــفــت ترجيع عود مجرجــر

و ـ وصف البحتري صراع السفن الحربية في المعركة البحرية فكانت السفن المتقارعة في هذه المعركة الهائلة تتدانى رؤوسها فكأنها أعناق وحوش نافرة يؤلف بينها أحمد بن دينار، ثم يذكر أن القائد الإسلامي لم يترك المعركة البحرية حتى انتهت الحرب عن أعناق مقطعة ورؤوس مطيرة والهام المقطعة تدلنا على أن العرب خالطوا بسفنهم سفن الروم فقفزوا إليها وأعملوا السيوف في رجالها فقطعوا رقابهم (أي حولوا المعركة البحرية إلى معركة برية).

(تــقــارب من زحــفــيهــم) فكــأنــما تؤلــف من أعــنــاق وحــشٍ منــفــر
فما رمتَ حتى أجلت الحــربُ عن طلً مقــطعــة فيهــم وهــامٍ مطيرّ

وهكذا يكون الشاعر قد جمع في أبيات قصيدته عناصر عديدةً هامةٍ من عناصر فن الحرب البحرية العربية الإسلامية.

---

(١٨) دارعون : يلبسون الدروع الواقية من أسلحة العدو في المعركة وهم المقاتلون.
حسر : لايلبسون الدروع وهم قادة الآلات الذين ليس عليهم الحرب.

★ النوتي : الملاح الذي يدير السفينة في البحر. ونوتي من نات ينوت أي تمايل. وقد سمي الملاح نوتياً لأنه يميل مع السفينة من جانب إلى جانب وهو معرّب من الكلمة اللاتينيه (Nauta) والكلمتان الفرنسيتان (Naute) و (Nautonier) بمعنى بحار وملاح. انظر سعاد ماهر حاشية (١) ص ٢٧٣.

★★ الجنوب ريح الجنوب.

١ ـ المراقبة والإنذار واستطلاع طريق البحر.

٢ ـ الإنضباط العسكري والإلتفاف حول القائد في المعركة.

٣ ـ التصرف الواجب اتباعه في السفن عند هبوب العواصف الهوجاء، وقدرة البحار العربي على القتال في البحر العاصف.

٤ ـ الشجاعة الخارقة في الحرب البحرية.

٥ ـ الأسحلة المستخدمة في الحرب البحرية (النشاب ، الرماح، الدروع، النار البحرية) وبين أن أسلحة البر تستخدم في البحر أيضاً.

٦ ـ تكتيك قتال السفن في المعركة البحرية وتقاربها وتلاحمها بحيث يحول البحارة العرب المعركة البحرية إلى معركة برية للإستفادة من قوتهم وشجاعتهم وأسلحتهم وخبرتهم في حرب البر.

الفصل السابع

الاستطلاع والتجسس في المعارك البحرية

ينظم وينفذ أي عمل في البحر وفقاً لقرار القائد المسؤول، ويتم اتخاذ القرار حول العملية البحرية استناداً لتقدير الموقف ولايمكن تقدير الموقف قبل توفر المعلومات عن العدو ومنطقة الاعمال القتالية، وتجمع هذه المعلومات بالقيام بتدابير خاصة منظمة تسمى أعمال استطلاعية.

وقد استخدم قادة البحرية العربية الإسلامية الإستطلاع بكل مستوياته الاستراتيجية والعملياتية والتكتيكية في كل عملياتهم البحرية الشهيرة لمعرفة مسارح العمليات وقوات العدو. وتاريخ الحروب البحرية التي خاضتها الأساطيل العربية غني بالأمثلة البارزة على ذلك والتي كانت سبباً في تحقيق انتصاراتهم الباهرة. على أن إغفال هذا العنصر الهام من عناصر التأمين القتالي في فن الحرب البحرية قد أدى في بعض الأحيان إلى هزائم وخسائر كبيرة . ومن ناحية أخرى لجأوا إلى استخدام التجسس لجمع المعلومات عن العدو وقواته ومراكز انتشاره وتحركاته وشؤونه الداخلية، كما لجأوا إلى اتباع أساليب الخداع ومكافحة التجسس لتضليل العدو ومنعه من جمع المعلومات عن القوات البحرية الصديقة ومواقعها وتحصيناتها.

فبالإضافة إلى مارأيناه في دراستنا لمعركة القسطنطينية نستطيع أن نرى الكثير من الأمثلة على ذلك في العديد من المعارك والغزوات البحرية:

أ ـ أثناء حصار عمرو بن العاص للإسكندرية في عام ٦٤٥م (٢٥هـ) يوم قام الروم بأشد غاراتهم على مصر والشام بتدبير من الإمبراطور قنسطانز الثاني لإخراج العرب من مصر طاردهم عمرو حتى ألجأهم الى الإسكندرية وأخذوا يمطرون العرب بوابل من القذائف

يساعدهم أسطول متمركز في مياه الإسكندرية، فلجأ عمرو إلى استخدام أحد المرشدين الموالين للعرب ليرشدهم إلى أحد الأبواب الضعيفة الحراسة فاستطلع الأمر ودخلت القوات العربية إلى المدينة وقتلت القائد الرومي (مانويل) كما فاجأوا سفن الروم في ميناء الإسكندرية ودمروا عدداً كبيراً منها.

ب ـ لقد وجد معاوية أن خير طريقة للإستيلاء على مدن الشام الساحلية هو تشديد حلقة الحصار البري عليها وانتهاز الفرصة المواتية لاقتحام أسوارها (لم يكن الأسطول العربي قوياً بما فيه الكفاية في ذلك الحين) لأن أسطول الروم يقف من خلف تلك المدن ويشد أزرها.

وقد سار معاوية إلى حصار قيسارية (في فلسطين) واستمر حصاره لها عدة سنوات بسبب مناعتها، حتى تمكن أخيراً من اقتحامها سنة ١٩ هـ / ٦٤٠م بفضل خيانة يهودي بها يدعى يوسف، إذ أتى ذلك الرجل إلى العرب ليلاً ودلهم على طريق يمكن مهاجمة المدينة منه بعد أن أخذ منهم أمانة لنفسه وأهله. ونجح معاوية بذلك في اقتحام قيسارية التي كان لسقوطها في يد العرب فرحة كبرى عند الخليفة عمر بن الخطاب[٢]

ج ـ في سنة ٤٩ هـ / ٦٦٨م أرسل معاوية حملة استطلاعية برية بحرية لدراسة الطرق المؤدية الى القسطنطينية (سبق ذكره).

د ـ في عام ٦٩هـ / ٦٨٨م سار زهير بن قيس البلوي خليفة عقبة بن نافع إلى شمال أفريقيا لتدعيم الفتوحات البحرية العربية وكانت خطة الروم تجري على أساس استغلال افتقار العرب إلى أسطول يساند فتوحاتهم وزحفهم على شمال أفريقيا، فلم يتعرض أسطول الروم لقوات زهير أثناء توغلها في بلاد المغرب حتى صارت خطوط التموين العربية طويلة ومن السهل مهاجمتها من جهة البحر ولم يتنبه زهير لهذا الخطر الكامن له من ناحية البحر وتابع فتوحاته وعندما فرغ من حملته قفل عائداً إلى برقة. وفي تلك الأثناء تجمعت سفن الروم بالقرب من ساحل برقة لمهاجمة قوات زهير وهي منهكة القوى بالإنقضاض عليها فجأة. وقد علم زهير عندمااقترب من برقة بنزول جند من الروم على ساحلها دون أن يتوقع قوة استعداد الروم البحري إذ اعتقد أن سفناً ضئيلة للروم قد رست بشواطيء برقة ولاضير من مهاجمتها.

وذهب إلى الساحل على رأس نفر يسير من قواته ليستطلع الأخبار فوجد الروم في سفن كثيرة العدد ومعهم عدد من الأسرى المسلمين، ولم يكد هؤلاء الأسرى يرون زهيراً حتى

---

(١) العدوي ص ٦ ، المقريزي الخطط ج١ ص ١٦٧.

(٢) البلاذري فتوح البلدان ص ١٤٧، العدوي ص ٩.

استغاثوا به فأخذته الحمية وأسرع بمهاجمة سفن الروم لتخليص الأسرى ، غير أن الروم كانوا قد أعدوا معسكراً على الشاطيء بعيداً عن أعين العرب ، ولذا ما كادت أقدام زهير ومن معه تطأ الساحل حتى فاجأه جند الروم المختفي بالمعسكر ودارت معركة قاسية استشهد فيها زهير[٣] .

وهكذا فإن إغفال مسألة الإستطلاع أثناء العودة قد أدى إلى سوء تقدير العدو وبالتالي إلى النتيجة المحزنة المذكورة .

هـ ـ رأى موسى بن نصير بعد استقرار الحكم العربي في بلاد المغرب أن يفتح شبه جزيرة إيبريا (إسبانيا) فكتب بذلك إلى الخليفة الأموي بن عبد الملك بدمشق يستأذنه في الفتح ، فأذن له على أن يبدأ الفتح بحملة «استطلاعية صغيرة» واستجاب موسى لنصيحة الخليفة فبعث سرية صغيرة بقيادة أبي زرعة طريف المعروف ، الذي نزل في جزيرة (بالوماس) وقد أصبح اسمها منذ ذلك الحين جزيرة طريف (تاريفا) وعاد طريف منتصراً بالغنائم ، فعوّل موسى على أن يبدأ غزو إيبريا وبالتالي غزو القارة الأوروبية ، وبدأ عبور الجيش العربي بقيادة طارق بن زياد في ربيع سنة ٧١١م (رجب ٩٢هـ)[٤]وأحرزت انتصاراتها التاريخية .

و ـ شهد عهد الخليفة المعتصم العباسي (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ) نشاطاً هجومياً بحرياً صاحبه جولات حربية مع الإمبراطور ثيوفيل (٨٢٩ ـ ٨٤٢م) وكان أشهرها فتح عمورية ، اذ بدأت أساطيل إقريطش (كريت) تهاجم أساطيل الروم في بحر إيجه . وأثبت عرب إقريطش في تلك المرحلة فهماً للأحوال الداخلية لدول الروم والإفادة منها في نضالهم . ومن ذلك ما حدث سنة ٨٤٣م ، إذ أعد أحد قادة الروم ممن يتولون منصب الوصاية على الإمبراطور ميخائيل الثالث حملة للهجوم على إقريطش بهدف المجد والشهرة ونجح هذا القائد ويدعى ثيوكيستوس(Theoakistas)في مهاجمة خندق عاصمة إقريطش وإلقاء حصار شديد عليها بأساطيله وجنوده . ولكن عرب إقريطش حملوه على رفع هذا الحصار والقضاء على خطته التي كادت تنجح بسبب غيبة الأسطول العربي في جزر بحر إيجه . إذ دبرت السلطات العربية في الجزيرة خدعة تجسسية أشاعوها بين جند الروم مستهدفين وصولها إلى قائدهم ، وذلك بأن رشوا بعض ضباط الروم على أن يرددوا بين القوات وبحارتهم المحاصرين للخندق شائعة مؤداها أن الأمبراطورة الأم الوصية على ميخائيل الثالث رفعت أحد القادة من منافسي ثيوكيستوس إلى مرتبة شريكها في مجلس الوصاية وأبعدته بذلك عن

(٣) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٧٨ ، العدوي ص ٦٩ .
(٤) د. علي حسني خربوطلي (الاسلام في حوض المتوسط). ١٩٧ دار العلم للملايين ص ٣٣ .

ميدان النفوذ والسلطان. وما أن بلغت تلك الوشاية مسامع القائد الروماني حتى أسرع عائداً إلى القسطنطينية تاركاً جيشه وأسطوله تحت رحمة عرب إقريطش. واستطاعت القوات العربية في الجزيرة هزيمة أسطول الروم وتدمير قواته واستردت مكانتها وسيطرتها على قواعد الروم البحرية.[5]

ز - عاود الأسطول المصري الفاطمي نشاطه البحري في غزو السواحل الشامية الخاضعة للصليبيين منذ سنة (٥٥٠ هـ) ففي هذه السنة أقلع الأسطول المصري إلى سواحل الشام الجنوبية وأغار على ميناء صور وذلك رداً على غارة قام بها الصقليون على مدينة تنيس في غفلة من أهلها في جمادى الأول سنة ٥٤٩ هـ[6] وتفصيل هذه الغارة أن مقدمي الأجناد من جيش الوزير الصالح طلائع بن رزيك اختاروا مقدماً مشهوراً بالشهامة والصرامة والبسالة وحسن السياسة «ارتضى لتولية الأسطول المصري مقدماً من البحرية شديد البأس بصيراً بأشغال البحر، فاختار جماعة من رجال البحر يتكلمون بلسان الإفرنج، وألبسهم لباس الإفرنج وأنهضهم في عدة من المراكب الأسطولية، وأقلع في البحر لكشف الأماكن والمكامن والمسالك المعروفة بمراكب الروم وتعرف أحوالها (أي استطلاعها)، ثم قصد ميناء صور، وقد ذكر أن فيه شختورة رومية كبيرة فيها رجال كثيرة ومال كثير وافر، فهجم عليها واستولى على ما حوته وأقام ثلاثة أيام ثم أحرقها وعاد عنها في البحر[7]».

ح - لجأ ملك قبرص بطرس الأول لوزينان (١٣٥٠ - ١٣٦٩م) إلى بث جواسيسه باتجاه الإسكندرية قبل غزوها (في ١٠ تشرين أول سنة ١٣٦٥ - ٢٢ المحرم سنة ٧٦٧ هـ) لاستطلاع حصونها ونقاط القوة والضعف فيها:

- ضبط شخص في داخل خندق سوق الإسكندرية يقيسه ولكنه لم يقر بشيء رغم تعذيبه.

- شوهد شخص إفرنجي في أعلى سور الإسكندرية من جهة دار الصناعة يقيس ارتفاع السور بحبل فلما قبض عليه أشهر إسلامه فأخلي سبيله، وقد نزل القبارصة من نفس هذا المكان الذي تدلى فيه الحبل.

وجد ناحية أبي قير شرقي الإسكندرية قبل الواقعة فقير زاهد تبارك به أهل الناحية من الصيادين واعتقدوا فيه، ثم طلب منهم سمكاً فجاؤا له بسمك كثير، فأشعل ناراً على

---

(٥) العدوي ص ١٠٢.

(٦) عبادي وسالم ص ١٢٥، الروضتين ج١ ص ٢٤٩.

(٧) عبادي وسالم ص ٣١٠ - ٣١١.

الساحل لشي السمك ثم أعطاه لهم، فلما ذهبوا إلى منازلهم جاء غرابان (نوع من السفن) للفرنج إلى هذا المكان ونهبوه وأسروا عدداً كبيراً من سكانه فلما بحثوا عن هذا الفقير لم يعثروا عليه فأيقنوا أنه جاسوس.

- عثر على سقا أشقر أزرق العينين مستعرب اللسان فلما سئل عن أمره أجاب بأنه من جزيرة قبرص وأنه اعتنق الإسلام، فلما كشفوا أمره أودعوه السجن وعذبوه فاعترف بأنه من جملة جواسيس متفرقة بمصر والشام أرسلهم ملك قبرص بطرس الأول قبل وقعة الإسكندرية واستطاع أن يحصل على معلومات خطيرة من كبار رجال المسلمين بحيل مختلفة.

وتشير هذه الحوادث إلى أهمية التجسس ومكافحة التجسس في منع استطلاع العدو من الحصول على معلومات تفيده في الأعمال القتالية.

ط - في سنة ٦٦٣ هـ بعث الفقيه أبو القاسم العزفي في أسطوله إلى مدينة أصيلا (بعد أن استقل بسبتة وأعمالها سنة ٦٤٧ هـ ١٢٤٩م) فهدم أسوارها وقصبتها خوفاً من احتلال الإسبان لها، ثم أعقب ذلك باحتلال طنجة سنة (٦٦٥هـ - ١٢٦٧م) وصار مسيطراً بذلك على السواحل الشمالية للمغرب[8] ومن هذا الموقع الاستراتيجي الهام: أخذ ابو القاسم يبث سفنه في انحاء المضيق (جبل طارق). للتجسس على تحركات الأساطيل الإسبانية المعادية، واستطاع بفضل هذه السياسة **اليقظة** أن يحذر أهالي المراسي والسواحل المغربية قبل وقوع الغارة عليهم بوقت كاف، ومثال ذلك تحذيره لأهالي مدينة سلامن الغارة البحرية التي شنها عليهم ملك قشتاله الفونسو العاشر العالم (Elsabio) سنة ٦٥٨ هـ قبل وقوعها بأيام قلائل[9] وهكذا نجد أن العرب المسلمين قد استخدموا الإستطلاع البحري والدوريات البحرية القتالية والإنذار البحري منذ مدة تزيد عن ثلاثة عشر قرناً في المغرب العربي.

تجدر الإشارة إلى أنه كان من بين أنواع السفن الإسلامية سفينة تدعى (جاسوس)[10] تستخدم في عمليات الكشف والإستطلاع البحري، وقد استعمل الغراب أيضاً لهذه الغاية[11].

(٨) السلاوي (محمد بن علي الدكالي): الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٣ ص ٣٤ - ٣٥، عبادي وسالم البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ص ٢٩٠.

(٩) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٤٢٣.

عبادي وسالم ص ٢٩٠ (المرجع السابق).

(١٠) د. النخيلي ص ٢١.

(١١) د. النخيلي ص ١٠٩.

الفصل الثامن

التعاون والتنسيق في العمليات والفتوحات البحرية

ينحصر جوهر التعاون بتنسيق أعمال القوات وفقاً للهدف (الغرض) والمكان والزمان وطرق تنفيذ المهام الموضوعة وتوجيه جهودها لتحقيق الهدف العام.

وقد عرف قادة البحرية العربية كل أشكال التعاون والتنسيق في المجالات البحرية المختلفة: في صناعة السفن الحربية والتعاون بين الأقطار في العمليات البحرية والتعاون بين الأساطيل البحرية وكذلك بين الأساطيل والقوات البرية في الأعمال القتالية المشتركة. أي التعاون الاستراتيجي والعملياتي والتكتيكي.

وكان لهذا التعاون أثره الفعال في بناء المجد العربي، والتاريخ يعطينا أمثلة كثيرة على ذلك.

أ ـ لقد استفاد العرب من تجارب الأمم السالفة حتى في مجال التعاون، فعندما فتح العرب الشام ومصر وجدوا لها نظاماً بحرياً موحداً يمكن اتخاذه أساساً لقوتهم البحرية. ذلك أن التقسيم الاداري لدولة الروم قبل ظهور الإسلام جمع بين الشام ومصر في العمليات البحرية بحيث قضي بتعبئة أساطيلهما معاً لإخضاع العناصر التي تشق عصا الطاعة على سلطات الروم في أي بلد من البلدان التابعة لهم في البحر الأبيض المتوسط. واتخذ العرب من تلك الظاهرة السالفة أساساً للتعاون البحري بين الشام ومصر في نضالهم ضد الروم، فاختصت مصر أولاً ببناء سفن الأسطول العربي، حيث كانت دور الصناعة فيها آمنة، وبعيدة عن إغارات الروم، ثم اختصت الشام باستقبال السفن التي صنعت في مصر فتتجمع في موانيها وتشحن بالمقاتلة والعتاد، لأن قواعد الشام البحرية قريبة من أراضي الروم وجزرهم في البحر الأبيض المتوسط.

وتسهل بذلك مهاجمة الروم من تلك القواعد الشامية، كذلك دخل التعاون البحري

بين مصر والشام في دور جديد ذلك أن البحارة والمقاتلة الذين عملوا في الأسطول العربي جاؤوا من سكان الشام ومصر وحاربوا جنباً إلى جنب دون أية تفرقة، وكان اعتماد العرب في تلك الفترة المبكرة من نشاط أسطولهم على أقباط مصر وسكان الشام القدامى الذين مهروا في ركوب البحار وتدربوا على فنون القتال فيه[1].

وتعزز هذا التعاون أيام معاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن أبي سرح أيام ولايتهما لهذين الإقليمين على عهد الخليفة عثمان بن عفان.

ولقد كشفت أوراق البردي التي وجدت بمصر، وترجع إلى ولاية قرة بن شريك، الوالي الأموي على مصر سنة ٥٩ هـ، كشفت تلك الأوراق عن حرص الأمويين على المحافظة على التعاون البحري بين الشام ومصر ثم أن تلك الأوراق أظهرت حقيقة أخرى هامة وهي اشتراك المصريين إلى جانب أهل الشام في الحروب البحرية.

ب ـ يشكل التعاون في معركة «ذات الصوارى» بين القطرين الشامي والمصري وأسطوليهما بقيادة عبد الله بن أبي سرح ومعاوية بن أبي سفيان تعاوناً على المستوى الاستراتيجي والعملياتي وقد أدى ذلك إلى الإنتصار الكبير في تلك المعركة الفاصلة في تاريخ البحر الأبيض المتوسط (سبق دراسة المعركة)، واشترك الأسطول المصري مع الأسطول الشامي في غزو قبرص[2].

ج ـ إن التعاون بين الأساطيل البحرية العربية وبينها وبين القوات البرية في حصار القسطنطينية يشكل مستوى راقياً من فنون الحرب البحرية وحتى بمنظور الحرب الحديثة (سبق دراسة المعركة).

د ـ كانت الأساطيل العربية الأموية تقابل الأساطيل البيزنطية وفق تنسيق وتوزيع يتفق مع مواقع تمركزها ومسارح نشاطها، فأسطول الشام يقابل أسطول (كيبير هايوت)[*] في آسيا الصغرى، وأسطول شمال أفريقيا العربي يقابل أسطول صقلية،

---

(١) العدوي ص ١٨.

(٢) ابن الأثير ج ٣ ص ٩٦، فتحي عثمان ج ٢ ص ٣٣٨ عبادي وسالم ص ٤٥.

★ أجبرت السياسة التوسعية التي انتهجها معاوية القسطنطينية على إعادة تنظيم الأسطول وقد قام قسطنطين الثاني بذلك:

كانت هناك قيادة بحرية عليا تمثلت بأمير البحر (stratejos) الاستراتيجوس، الذي كان قائداً لسفن منطقتين وكان لكل منهما أسطول بقيادة نائب لأمير البحر درونجاريوس (Drunjarius) وكانت ولاية (كيبرهيوتس (cibyrrhaeota) التي تضم بامفيليا (Pamphylia) هي الولاية الأكثر أهمية والولاية الثانية هي منطقة بحر إيجه التي تتألف من الساحل الشمالي لآسيا الصغرى والجزر (فهمي ٩٩).

وأسطول مصر يقابل الأسطول الإمبراطوري في القسطنطينية، وانعقد لواء كل من هذه الأساطيل لأمر من أمراء البحار[٣].

هـ ـ اشتهر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ) في تدعيم الأسطول العربي وأقصى (المردة) عن مواقعهم في جبل اللكام ومنع الروم من استغلالهم في شل التعاون بين القوات البرية العربية والأسطول العربي [٤]وعندما توفى سنة ٨٦ هـ ترك لابنه الوليد (٨٦ ـ ٩٦هـ) دولة ثابتة الأركان فتابع سياسة تقوية الأسطول العربي وخلق تعاون بينه وبين القوات البرية واتخذ الوليد من بلاد الروم في آسيا الصغرى ميداناً تتدرب فيه القوات البحرية العربية والبرية على التعاون في الهجوم على معاقل الروم تمهيداً للزحف على القسطنطينية[٥]وبعد وفاة الوليد وتولي أخيه سليمان (٩٦ ـ ٩٩ هـ) عمد الخليفة الجديد إلى خلق تعاون وثيق بين الأساطيل العربية في مصر والشام والإستعانة كذلك بالأسطول العربي الفتي في شمال أفريقيا فأبحر أسطول من مصر إلى شواطيء الشام لجمع أخشاب من سواحل لبنان لتصنع منها سفن حربية جديدة في دور الصناعة بمصر لتعزيز الأسطول العربي المتجه إلى القسطنطينية. [٦]

و ـ أصبحت جزيرة قوصرة [٧] قاعدة أمامية هامة لأسطول الأغالبة (١٨٤ ـ ٢٩٧ هـ / ٨٠٠ ـ ٩٠٩ م) تجاه جزيرة صقلية بعد أن استولى عليها العرب أيام ولاية موسى بن نصير وبالتالي أصبح زحف الأسطول الأغلبي ميسراً وآمناً. فأعد زيادة الأول سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م أسطولاً يتألف من مئة سفينة تحت إمرة أسد بن فرات قاضي القيروان لفتح جزيرة صقلية تحت ستار مساعدة يوفيموس[٨] واليها الثائر على إمبراطور الروم.

خرج الأسطول الأغلبي يحمل حوالي ١٠,٠٠٠ مقاتل و٧٠٠ فرس من ميناء سوسة وبذلك بدأ الغزو الحقيقي لجزيرة صقلية وألقى الأسطول مرساه عند مازر ثم تقدم نحو سرقوسة وألقى عليها الحصار، غير أن أسطولاً للروم خف لنجدة تلك المدينة وجعل الحصار العربي مهمة شاقة ثم أن وباءً انتشر في المعسكر العربي قضى على أسد بن فرات وعدد كبير

---

(٣)خربوطلي ص ٢٨.
(٤) العدوي ص ٥٧.
(٥) العدوي ص ٥٨.
(٦) العدوي ص ٦٠.
(٧) جنوب صقلية.
(٨) وهذا النوع من التمويه السياسي والعسكري في الأعمال القتالية.

من الجيش وكادت تلك الحملة البحرية تفشل لولا أسطول أندلسي توجه إلى جزيرة صقلية (سوف يرد ذكره عند دراسة احتلال صقلية).

وتلك الحقيقة تكشف عن ظاهرة هامة وهي أن التعاون البحري قد بدأ بين أساطيل المغرب وأساطيل الأندلس في تلك المرحلة الجديدة من نشاط العرب البحري في غرب البحر الأبيض المتوسط غير أن هذا التعاون كان يعوزه التنظيم بسبب افتقار الأسر العربية المستقلة بالمغرب والأندلس إلى التفاهم والتضامن ، ومهما يكن من أمر فإن وصول الأسطول الأندلسي أنقذ جيش الأغالبة وقواتهم البحرية من المأزق الذي حل بهم[9]

ثم جاءت النجدات من تونس وساعدت الأسطول الأغلبي على الاستيلاء على (بلرم) أو بالرمو (Palermo) سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م بعد حصار دام عاماً[10] وقد هيأ سقوط (بالرمو) قاعدة هامة للأسطول العربي في صقلية بسبب ما تتمتع به من موقع استراتيجي ممتاز، وأصبحت قاعدة بحرية تساعد القوات العربية على تلقي الإمداد والزحف منها على سائر جزيرة صقلية.

ز ـ عندما حاصرت القوات البيزنطية. مدينة طرابلس الشام في سنة (٣٨٩ هـ) براً وبحراً هاجمتها السفن المصرية في مياه المدينة ونشب القتال في البر وفي البحر في أول محرم ٣٩٠ هـ / ٩٩٩م وانتهى بهزيمة البيزنطيين وعدول الإمبراطور «بَسيلْ» عن متابعة حصاره لطرابلس[11]

ج ـ كان صلاح الدين الأيوبي (١١٣٧ ـ ـ ١١٩٣م) يعمل على جمع كلمة العرب والمسلمين وتوحيد الممالك العربية الإسلامية المتفرقه في الشرق الأدنى واستطاع أخيراً أن يكون جبهة عربية متحدة تمتد من برقة غرباً إلى الفرات شرقاً، ومن الموصل وحلب شمالاً إلى النوبة واليمن جنوباً وكانت الخطوة المنطقية التالية لهذه الوحدة هي أن يقوم صلاح الدين بهجوم إسلامي عام على مملكة الصليبيين في بيت المقدس، وكان انتصار حطين في تموز ١١٨٧م / ٥٨٣ هـ[12].

ولقد فتح انتصار حطين الطريق الى بقية الممتلكات الصليبية واختار صلاح الدين أن

---

(٩) ابن عذارى : البيان المغرب في اخبار المغرب ج ٢ ص ٩٦ ـ ـ ٩٧ العدوي ص ٧٨ ـ ٧٩.
(١٠) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج ٦ ص ١٢٤.
(١١) عبادي وسالم ص ١٠٠.
(١٢) عبادي وسالم ص ٢٧٩.

يبدأ بالمدن الساحلية ليحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التي تربطهم بالعالم الخارجي وخاصة غرب أوروبا قلب الحركة الصليبية فيصبحوا محصورين داخل بلاد الشام ويسهل القضاء عليهم، وهذا فضلاً عن أن استيلاء صلاح الدين على موانىء الشام سيمكنه من الإتصال البحري السريع بين شطري دولته في مصر والشام[13]

ولقد تعاونت البحرية المصرية مع الجيوش الشامية على استرداد عكا فبينما كان صلاح الدين يقاتل في عكا في أواخر تموز ١١٩٠م إذا بقطع الأسطول المصري تهرع إلى نجدته من مصر وما كاد الصليبيون يسمعون بقربه حتى جهزوا أسطولاً ليلقاه في طريقه ويقاتله، فركب صلاح الدين في العساكر جميعها وقاتلهم في كل جهة لينشغلوا بقتاله عن قتال الأسطول فيتمكن من دخول عكا (وهذا تعاون بين القوات البرية والقوات البحرية في العملية البحرية) فلم ينشغلوا وخرج أسطولهم[14]. «وقد ألتقى الأسطولان في البحر والجيشان في البر واضطرمت نار الحرب واستعرت وباع كل فريق روحه ودار قتال شديد انجلى عن نصرة الأسطول الإسلامي[15]». ودخل الأسطول المنصور إلى عكا وكان قد صحبه مراكب من الساحل فيها مير وذخائر.

وتابع صلاح الدين استرداد المدن الساحلية فاسترد قيسارية وبيروت وجبيل وعسقلان وغيرها من الثغور الساحلية ولم يستعص على صلاح الدين سوى مدينة صور لأنها محاطة بالبحر من معظم نواحيها واضطر صلاح الدين إلى استدعاء الأسطول المصري المرابط في عكا لمحاصرة صور من جهة البحر بينما حاصرها هو بجيوشه من جهة البر[16]. «وهذا تعاون آخر في العملية البحرية بين القوات البرية والقوات البحرية».

ط ـ وهناك قصة طريفة عن التعاون بين القوات البرية البحرية وردت في سيرة الملك الظاهر بيبرس (ص ١٨٨ ـ ١٨٩ طبعة شعبية صادرة عن مكتبة الحضارة ومكتبة المهايني بدمشق) خلاصتها:

أن ملك اللاذقية الإفرنجي كان يأمر مراكبه بالقيام بأعمال القرصنة والسطو على المراكب العربية الإسلامية في حوض المتوسط الشرقي وخاصة المتجهة من الإسكندرية إلى السويدية ويصادر أموال التجار ويأخذ السفن إلى اللاذقية، فأمر الملك الظاهر أمير البحر

---

(١٣) المقريزي السلوك ج ٢ ص ٩٣ ـ ٩٦، أبو شامة (الروضتين) ج ٢ ص ٨٩، ٩٢.
(١٤) خانكي ص ١٥٢ ـ ١٥٣.
(١٥) بهاء الدين بن شداد (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) وزارة الثقافة ص ١٧٩ ص ١٨٠.
(١٦) بهاء الدين بن شداد (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) وزارة الثقافة ص ١١١.

أبو علي البطرلي والفارس جمال الدين شيحة باحتلال المدينة وتحريرها.

وجهز أمير البحر سفناً كثيرة بالمدافع والبارود كما جمع جمال الدين شيحة (١٢٠٠٠) مقاتلاً من أبطال بني اسماعيل في قلعة صهيون، وبعد التنسيق والإعلام المتبادل بدأ الهجوم من البر والبحر (في عملية برية ـ بحرية مشتركة) في وقت واحد وفق تخطيط تم الاتفاق عليه بين القائدين العربيين واحتلوا مدينة اللاذقية وهرب ملكها وأصبحت الميناء مرسى للسفن العربية الإسلامية. والجدير بالذكر أن أمير البحر هذا مدفون في جامع صغير في حرم مرفأ اللاذقية ويلفظ اسمه البطرني (بدلا من البطرلي).

ي ـ إن دراسة المعارك البحرية في المغرب العربي والأندلس تقدم لنا أمثلة عديدة عن المستوى المتطور للتعاون والتنسيق بين الأساطيل العربية الإسلامية وبينها وبين القوات البرية:

ـ قام الخليفة الموحدي الأول عبد المؤمن بن علي منذ سنة ٥٤٦هـ ـ ١١٥١م بعمليات عسكرية برية وبحرية واسعة النطاق انتهت بتوحيده المغرب العربي لأول مرة في تاريخ المغرب منذ أن افتتحه العرب، وبذلك تم له توحيد المغرب الكبير من الحدود المصرية شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً وإلى الصحراء الكبرى جنوباً.

وقد شارك الأسطول الموحدي مشاركة فعالة في تلك العمليات لاسيما في حصار «المهدية» التي كانت محاطة بالبحر من معظم جهاتها وكأنها كف في البحر وزندها متصل بالبر. ويروي المؤرخون أن عبد المؤمن زحف بجيوشه والأسطول يحاذيه في البحر وكان يتكون من سبعين شينياً وطريده وسلندي (أنواع من المراكب البحرية الإسلامية) بقياد محمد بن عبد العزيز بن ميمون وابن الخراط وأبي الحسن الشاطبي وغيرهم وضرب حول المهدية حصاراً من البر والبحر، ثم ركب عبد المؤمن سفينة حربية من أسطوله وطاف بالمدينة من ناحية البحر ليتفقد حصانتها من هذه الناحية فهاله أمرها وعلم أنه لاتفتح بقتال وليس لها إلا مطاولة الحصار، فتمادى حصاره لها ستة أشهر[١٧] محققاً بذلك تعاوناً أساسياً بين الجيش والأسطول في الهجوم والحصار.

ـ بعد انتصار البرتغاليين على المسلمين في جبال منديجا (mandiga) عام ٥٧٦ هـ

---

(١٧) عبادي وسالم: البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ ـ ٢٥٣ كذلك كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار نشر سعد زغلول ص ١١١.

وقد اصطحب عبد المؤمن معه في تلك الحملة الكبيرة مصحف عثمان بن عفان (انظر فصل الجهاد البحري).

(١١٨٠م) واستيلائهم على تسع قطع من مراكب المسلمين وأسر أمير البحر غانم بن مردنيش مع أخيه أبو العلا « خرج القائد عبد الله بن جامع بأسطول سبتة عام ٥٧٧ هـ ١١٨١م كما خرج القائد أبو العباس الصقلي من إشبيلة بأسطولها أيضاً واجتمعوا عند ثغر قادس، وقد استعملوا أربعين قطعة فنهضوا منها بجميعهم إلى جهة شلبس (silves) والتقوا بالأسطول البرتغالي في نفس المكان والزمان الذي أسر فيه غانم بن مردنيش . . وقد نصر الله المسلمين في هذا اليوم نصراً مبروراً. . . وانصرفوا ظافرين إلى موضعهم» .[١٨]

وهكذا تم التعاون والتنسيق بين الأسطولين العربيين الإسلاميين من مواقع «الإنتشار العملياتي» في المعركة البحرية ثم العودة إلى مواقع الانتشار السابقة.

ـ بدأ الخليفة الموحدي المنصور (أبو يوسف يعقوب المنصور). ٥٨٠ ـ ٥٩٥هـ ـ ١١٨٤ ـ ١١٩٩م حركته الجهادية سنة ٥٨٧ هـ بمملكة البرتغال فهاجمها براً وبحراً واكتسح أراضيها. . . .

وكان للأسطول الموحدي قصب السبق في هذه الحملة، إذا استطاع قبيل المعركة بقليل أن يحرز نصراً على الأسطول البرتغالي سنة ٥٨٦ هـ كذلك شاركت البحرية خلال هذه الحملة بنقل المعدات وآلات الحصار ثم التعاون مع القوات البرية في الهجوم على السواحل البرتغالية، وقد انتهت هذه العمليات باستعادة مدينة شلبس (silves) والاستيلاء على القاعدة البحرية الهامة «قصر أبي دانس». عام ٥٨٧ هـ ـ ١١٩١م[١٩] وذلك بفضل العمليات البرية والبحرية المشتركة.

---

(١٨) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١١٦ ـ ١١٧ ـ ١١٨.
وكذلك راجع التفاصيل في عبادي وسالم (المرجع السابق) ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

(١٩) راجع عبادي وسالم (المرجع السابق) : ص ٢٧٦ ـ ـ ٢٧٧ كذلك راجع ابن عذارى (المرجع السابق) ص ١٧٧ ص ١٨٤.

الفصل التاسع

الدفاع الساحلي

الدفاع الساحلي هو جزء من منظومة الدفاع عن ساحل الدولة ومياهها الإقليمية. وقد عرف القادة العرب هذا العنصر الهام من عناصر فن الحرب البحرية منذ فجر الإسلام ثم تدرجوا في فن تنظيمه وتجهيزه عبر مراحل تطور استراتيجيتهم البحرية وبصورة خاصة في مرحلة الاستراتيجية البحرية الدفاعية مما كان له أبلغ الأثر في نجاح تحصيناتهم ودفاعاتهم في درء أخطار الغزوات البيزنطية. وقد تضمن نظام الدفاع الساحلي العربي الإسلامي نظاماً متكاملاً من التحصينات والتجهيزات الهندسية والمواقع والخنادق والمرابط الأمينة والقواعد البحرية الرئيسية والفرعية المحصنة، ذلك أن العرب لم يفكروا في ذلك الوقت المبكر من فتوحاتهم بركوب البحر والإقدام على المغامرات البحرية التي لا يأمنون عواقبها.

أ ـ عمد العرب في أوائل فتوحاتهم إلى انتهاج سياسة بحرية دفاعية لمواجهة الخطر البيزنطي الماثل على ثغور المسلمين وتوسلوا في ذلك بادىء ذي بدء بوسائل دفاعية برية[1] فاتجهوا إلى مرمة الحصون الساحلية في الشام ومصر وإقامة الأربطة والمناظر والمسالح على طول الساحل وشحنها بالمقاتلة واتخاذ المواقيد للإنذار باقتراب سفن الروم من السواحل[2] بل إن معاوية وهو بعد وال على الشام نقل أهالي المناطق الداخلية إلى هذه السواحل[*] ومنحهم فيها الإقطاعات الواسعة مستهدفاً من وراء ذلك تشجيعهم على ركوب البحر[3] وعلى هذا النحو أصبحت السواحل الشامية مبثوثة بالقلاع والأبراج التي كانت أشبه شيء بسور يمتد بحذاء الساحل اعتمد عليه العرب في الدفاع البحري وحظيت سواحل

(١) مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص ٢.

(٢) عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ص ٣٣.

★ لقد ساعدت هذه الخطوة على ارتباط الناس بسواحل الدولة الإسلامية وهؤلاء بدورهم ساهموا في مكافحة التجسس الذي كانت تقوم به العناصر الغربية (روم وغيرهم).

(٣) العبادي (دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص ٣ عبد العزيز سالم تاريخ الدولة العربية ص ٥٣٦.

الإسكندرية ورشيد والبرلس وتنيس ودمياط في مصر وسواحل عكا وصور وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وغرقة وأنطاكية في الشام بقلاع ومحارس شحنت بالحاميات المرابطة[4].

ب ـ وضع معاوية للمدن الساحلية نظاماً عرف بالرباط وهو ما يقصد به الأماكن التي يتجمع فيها الجند والركبان استعداداً للقيام بحملة على أرض العدو. واعتنى معاوية بهذا النظام حتى أصبح جزءاً مرتبطاً بالجهاد أو الحرب المقدسة. وجاء إعداد الرباط عملاً يتفق مع خطة معاوية البحرية التي تستهدف تأمين السواحل أولاً واعداد قواعد بحرية للمستقبل ثانياً، فكان الرباط حصوناً يتجمع فيها الجند للدفاع عن المناطق المعرضة لإغارات أساطيل الروم ولتكون ملجأً يحتمي بها الأهالي في المناطق التي يدهمها العدو وخصصت حاميات الرباط لإنذار الأهالي في المناطق الساحلية بأن يأخذوا حذرهم إذا ما لاح خطر سفن الروم في المياه الإقليمية . فكان الحصن في الرباط يضم حجرات للجند ومساكن لهم ومخازن للأسلحة والمؤن وبرجاً للمراقبة . غير أن «الرباطة لم تلبث أن اتسعت وازدادت أهميتها حتى صارت قواعد للهجوم البحري وشن الغارات.»[5]

ج ـ عمل صلاح الدين الأيوبي على تحصين الثغور المصرية المطلة على البحر المتوسط مثل الإسكندرية ودمياط وتنيس . فأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وحفر الخنادق حولها. وحرص صلاح الدين على تفقد سير العمل فيها بنفسه، فزار دمياط في سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦م) وصحبه ولداه الأفضل والعزيز وأقام فيها يومين متفقداً حصونها[6]وكذلك أمر بإخلاء مدينة تنيس المجاورة لها وإعادة بناء أسوارها ولم يترك فيها سوى المقاتلة فقط[7]، أما أسوار الاسكندرية فكان البدء في عمارتها وتجديدها سنة ٥٦٦هـ (١١٧٢م) حينما كان صلاح الدين وزيراً للخليفة العاضد الفاطمي، ثم زارها للمرة الثانية سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) عقب زيارته لمدينة دمياط وذلك لمباشرة سير العمل في أسوارها.[8]

د ـ أقام العرب مجموعة من القواعد البحرية في الشام ومصر ثم بلاد المغرب

---

(٤) عبادي وسالم ص ٥.

(٥) العدوي ص ١٢ ـ ١٣ .

(٦) أبو شامة (الروضتين) ج ١ ص ٦٨٩، عبادي وسالم ص ٧٥.

(٧) المقريزي السلوك ج ١ ق ١ ص ١١١.

(٨) عبادي وسالم ص ٢٧٦.

والأندلس، بالإضافة إلى تدعيم القواعد البحرية القديمة فيها تساعد على تعزيز نشاطها وتهيء لها أسباب الفوز والسلامة .

وكانت لدى العرب على امتداد شواطىء البحر الأبيض المتوسط التابعة لهم قواعد بحرية علا ذكرها في التاريخ القديم وأسهمت بنصيب وافر في خدمة القوى العظمى التي شاهدها هذا البحر.

وتمتعت تلك القواعد بالموقع الممتاز والحصون القوية، وذكر على سبيل المثال اهتمام أحمد بن طولون (والي مصر ثم حاكم مصر والشام) بتقوية قاعدة عكا البحرية :

« إن أحمد بن طولون (٨٣٥ - ٨٨٤م) كان رأى صور ومنعتها واستدارة الحائط على مينائها فأحب أن يتخذ لعكا مثل ذلك الميناء، فجمع صناع الكورة (قرب عكا) وعرض عليهم ذلك فقيل لايهتدي أحد إلى البناء في الماء في هذا الزمان، ثم ذكر له جدنا (أي جد المقدسي) أبو بكر البناء. . . .

فكتب إلى صاحبه عن بيت المقدسي حتى أنهضه اليه ، فلما صار إليه وذكر له ذلك قال :

هذا أمر هين، علي بفلق الجميز الغليظة، وضعها على وجه الماء بقدر الحصن البري ، وخيط بعضها ببعض، وجعل لها باباً من القرب عظيمة، ثم بنى عليها بالحجارة والشيد، وجعل كلما بنى خمس دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليشتد البناء، وجعلت الفلق كلما ثقلت نزلت، حتى إذا علم أنها قد جلست على الرمل تركها حولاً كاملاً حتى أخذت قرارها . ثم عاد فبنى من حيث ترك، كلما بلغ البناء إلى الحائط القديمة داخله فيه وخيط به، ثم جعل على الباب قنطرة، فالمراكب في كل ليلة تدخل الميناء وتجر السلسلة كما في صور[9]. وهذا يدل أنهم عرفوا بناء القواعد في مياه البحر وحراسة مداخل الميناء بالسلاسل (كما في الحرب العالمية الاولى والحرب العالمية الثانية).

وقد وجدت الأساطيل العربية في قواعدها الحصينة كافة أسباب القوة والبأس فاستطاعت أن تخرج منها تباعاً للهجوم على بلاد الروم وإعلاء شأن العرب.

هـ - سجل إنشاء مدينة المهدية في سنة ٣٠٣ هـ أول إجراء عملي قام به الفاطميون لتطبيق سياسة بحرية حيث تتمتع بموقع استراتيجي هام بين سفاقس والمنستير في جزيرة

---

(٩) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٦٢، ١٦٣.

متصلة بالبر كصورة «كف اتصل بزند»[10]، وقد أقيمت بشكل يؤمن لها الدفاع الساحلي وذلك بوجود مرسى منقور في حجر صلد يتسع لثلاثين مركباً ويقوم على طرفيه برجان تمتد بينهما سلسلة من حديد تحميه من طروق مراكب الروم[11] ودار للصناعة منقورة في الجبل كانت تسع مئة شيني[12]، **وكان لانشاء المهدية اعظم الأثر في تدعيم اسطول افريقيا للدفاع عن سواحل المغرب الاسلامي والانطلاق منها لمهاجمة الأساطيل المعادية.**

و ـ اهتم الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي (٥٢٤ ـ ٥٥٠هـ ١١٣٠ ـ ١١٦٣م) بوسائل الدفاع الساحلية لمنع نزول الصليبيين الأراضي المغربية فأنشأ القصور والقلاع والرباطات ذات المناور أو الطلائع التي تشعل النار على قممها ليلاً وينبعث منها الدخان نهاراً لإنذار الأهالي في حالة وقوع غارة بحرية معادية، هذا إلى جانب استخدام الطبول الضخمة للغرض نفسه. ومن أمثلة تلك الحصون نذكر رباط تيط على ساحل المحيط الأطلسي جنوبي الجديدة (مازيغان) بنحو ١٢ كم[13].

وقد ربط عبد المؤمن قصبة المهدية بمدينة سلا المقابلة لها بجسر من السفن المشدود بعضها ببعض بالسلاسل عبر وادي الرمان (أبو الرقراق الحالي) وعليها ألواح خشبية كي تمر عليها جيوشه ومعداته المتجهة إلى إسبانيا[14].

على أن العمل العسكري الهام الذي توج أعمال عبد المؤمن وخلد ذكراه هو تلك المدينة الحصينة التي بناها على سفح جبل طارق سنة ٥٥٥ هـ ١١٦٠م وسماها مدينة الفتح لتكون قاعدة عسكرية كبرى لتجمعات جيوشه القادمة من المغرب. ومنذ ذلك الوقت صار جبل طارق يعرف أيضاً بجبل الفتح[15]

ز ـ بلغت البحرية المرينية ذروتها وقوتها في عهد السلطان أبي الحسن علي المريني

---

(١٠) ياقوت الحموي معجم البلدان مجلد ٥ ص ٢٣٠، المقريزي: اتعاظ الحنفا تحقيق الدكتور الشيال القاهرة ١٩٦٧ ص ٧٠.

(١١) الاستبصار تحقيق الدكتور سعد زغلول ص ١١٧ ـ ١١٨.

ميخائيل عواد: المآصر في بلاد الروم والإسلام بغداد ١٩٤٨ ص ٥٩.

(١٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص ٧٠.

(١٣) عبادي وسالم (البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس) جامعة الإسكندرية ص ٢٥٦.

(١٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٤٥٠.

(١٥) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢١٣.

(٧٣١ ـ ٧٤٩ هـ ١٣٣١ ـ ١٣٤٨م) وبلغ عدد أساطيل هذا السلطان التي جاز بها في حملته على تونس في أواخر أيامه نحو الستمائة قطعة.

ولم تقتصر عنـاية هذا السلطان على بناء الأساطيل بل اهتم أيضاً بإنشاء المحارس والمناظر على طول الساحل المغربي، كما بنى أبراجاً للمراقبة في داخل البحر أمام ميناء سبتة ليحول دون دخول سفن العدو في مرساها.

« وقد أنشأ من المحارس والمناظر مالم يعهد بمثله في عصر من الأعصار وحسبك أن مدينة آسفي وهي آخر المعمور إلى بلاد الجزائر جزائر بني مزغنان، آخر وسطى الغرب، وأول بلاد افريقيا، محارس ومناظر إذا وقعت النيران في أعلاها تتصل في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة، وذلـك على مسافة تسير فيها القوافل نحواً من شهرين، وفي كل محرس منها رجال مرتبون نُظَّار وطلاع يكشفون البحر فلا تظهر في البحر قطعة تقصد بلاد المسلمين إلا والتنيير يبدو في المحارس يتحذر أهل كل ساحل من السواحل ساحلهم فأمنت السواحل في أيامه السعيدة... ومن أعجب ما أنشاه في هذا النمط الأبراج ... ومنها برج الماء الذي أنشأه داخل البحر ووسط الأمواج ببحر بسول من ساحل سبتة ... ثم أمر بعمل جسر يمر من الساحل إلى هذا البرج... وصان ذلك البرج جميع المرسى فلا يتهيأ لأحد من المراكب الدخول إلى ذلك المرسى إلا أن يكون صديقاً... »[١٧]

---

(١٦) قامت دولة بني مرين بالمغرب بعد أن قضت على نفوذ بني عبد المؤمن نهائياً سنة ٦٦٧هـ ١٢٦٩م.

(١٧) عبادي وسالم (البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

الفصل العاشر

بطولات عربية في المعارك البحرية

العرب مقاتلون أشداء في البر والبحر على السواء وتشهد لهم كتب التاريخ بذلك، وتعززت شجاعتهم في القتال بفضل إيمانهم بالجهاد في سبيل الله. وقد أوردت المصادر عدداً كبيراً من البطولات التي قام بها البحارة العرب نورد فيما يلي بعضاً منها:

أ ـ في معركة ذات الصواري الشهيرة (سبق دراستها) وبعد أن نفذت ذخيرة العرب **من الحجارة وأصبح العدو بعيداً عن متناول سفنهم وربطوا سفنهم بعضها ببعض وقذفوا خطاطيف في البحر جذبوا بها سفن الروم وعندما أدرك الإمبراطور قنسطانز فشل خطته وقرب هزيمته بفضل البسالة التي أبداها البحارة العرب أمر جنده بقذف خطاف علق بسفينة أمير البحر عبد الله بن أبي سرح وأخذ الروم يجذبون المركب العربي اليهم.**

وكاد الروم ينجحون في أسر مركب القيادة العربي لولا شجاعة أحد الجنود العرب ويدعى (علقمة بن يزيد العطيفي) وكان مع عبد الله بن أبي سرح في المركب ـ فرمى هذا البحار العربي بنفسه على السلاسل التي كانت تجذب سفينة القيادة العربية وأخذ يعمل فيها القطع برغم ما تعرض له من ضربات العدو وسهامه وكلل عمل علقمة بالنجاح، اذ قطع السلسلة وأنقذ السفينة العربية من الوقوع في الأسر[1].

وسأل عبد الله أمراته بعد ذلك. بسيسه بنت حمزه بن يشرح وكانت مع عبد الله يومئـذ ـ وكـان العـرب يستصحبون نساءهم في المراكب: «من رأيت أشد قتلاً» قالت: «علقمة صاحب السلسلة» والجدير بالذكر أن عبد الله عندما خطب بسيسه إلى أبيها قال له «إن علقمة قد خطبها وله علي فيها رأي فإن تركها أفعل» فكلم عبد الله علقمة فتركها، فتزوجها عبد الله بن سعد ثم هلك عنها عبد الله فتزوجها بعده علقمة بن يزيد[2](سبق ذكر الحادثة في دراسة ذات الصواري).

---

(١) العدوي ص ٤٠ ـ ٤١ ولقد أوردنا الحادثة في هذا البند ليصبح متكاملاً يشمل البطولات البحرية الرئيسية.

(٢) المقريزي (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار ج١ص ٦٩، خانكي ص ١٣٨، ١٣٩.

ب ـ كان «الضفدع البشري» عيسى العوام يشد على وسطه الرسائل والذهب ثم يغوص ليلاً في البحر على غرة من العدو ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو، ويدخل عكا حيث يسلم الرسائل إلى رجال الحامية. بينما كان الذهب يصرف نفقة للمجاهدين . (في عهد صلاح الدين الأيوبي).

وفي ذات يوم حمل عيسى العوام أكياس الذهب والكتب وعام في البحر فجرى عليه أمر أهلكه ولم يسمع له خبر، فأيقن البعض بهلاكه بينما ظن البعض الآخر بفراره بالأموال. وبعد أيام بينما كان الناس على طرف البحر في المدينة وإذا البحر قد قذف اليهم ميتاً غريقاً، فتفقدوه فوجدوه عيسى العوام ووجدوا على وسطه الذهب والكتب، فبرأه الله مما قالوا وقدر له أداء الأمانة بعد وفاته كما كان يؤديها في حياته .[3]

ج ـ في إحدى المعارك (عهد صلاح الدين) تخلفت سفينة الأمير جمال الدين محمد بن أرككز عن بقية الأسطول المصري فأحاطت بها مراكب العدو ، واضطر ملاحوها إلى القفز في الماء طالبين النجاة بأنفسهم بينما ظل أميرهم يقاتل ويقاوم ، فعرض عليه الصليبيون، الأمان إذا استلم لهم (فقال ما أضع يدي إلا بيد مقدمكم الكبير ، فلا يخاطر الخطير إلا مع الخطير فجاء اليه المقدم الكبير وظن أنه قد حصل له الأسر فعاقره وعانقه، وقوى عليه وما فارقه، ووقعا في البحر وغرقا وترافقا وعلى طريق الجنة والنار افترقا)[4]

د ـ خرج يعقوب الحلبي من بيروت على رأس سفينة كبيرة (بطسة) مشحونة بالآلات والميسرة والرجال لإمداد حامية عكا، فاعترضه ملك انكلترا ريتشارد وحاصره بسفنه التي كانت تبلغ الأربعين قطعة، فقاتلهم المسلمون قتالاً عنيفاً، وأحرقوا لهم سفينة كبيرة غرقت بمن فيها. ولما تكاثر العدو على سفينة المسلمين وكاد أن يستولي عليها، قال المقدم يعقوب : «والله لانقتل إلا عن عز ، ولانسلم اليهم من هذه البطسة شيئاً » ثم حطموا جوانب البطسة بالمعاول حتى فتحوها فامتلأت ماء وغرق جميع من فيها وما فيها ولم يظفر العدو منها بشيء[5] .

هذه البطولات وأمثالها تعطينا صورة واضحة لما بذلته البحرية العربية من شجاعة وتضحية ضد عدو يفوقها قوة وكثرة في هذا الميدان . ولهذا اعتمدت في مقاومته على عنصري

---

(٣) أبو شامة (كتاب الروضتين ج٢ ص ١٦٢، بهاء الدين بن شداد ص ٢٠٩ .

(٤) أبو شامة (كتاب الروضتين) ج ٢ ص ١٨٢ .

(٥) ابن واصل مفرج الكروب : ج ٢ ص ٣٥١، بهاء الدين بن شداد ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

المفاجأة والحيلة مع صدق العزيمة، وفي هذا يقول صلاح الدين الأيوبي نفسه في إحدى رسائله: « وكان عدد مراكبهم كبيراً ولكن لقيناهم بأصدق منها عزمة. والقليل مع العزم الصادق كثير[٦]».

---

(٦) أبو شامة (الروضتين) ج ٢ ص ١٨١، ١٨٢، عبادي وسالم ص ٢٨٨.

الفصل الحادي عشر

الخداع والتمويه في الأعمال القتالية البحرية

التمويه العملياتي من أهم الوسائل المتبعة لتحقيق المفاجأة على سرية الخطط الحقيقية وسرية التحركات . وتكون المفاجأة بالزمان والمكان والأسلحة الجديدة وأساليب القتال الجديدة وبالتالي خداع العدو « الحرب خدعة »(*) وقد طبق قادة البحرية العربية الإسلامية هذه القاعدة في بعض معاركهم البحرية :

أ ـ في سنة ١٢٦٨م (٦٦٦هـ) استولى الملك الظاهر بيبرس على مدينة يافا في الجنوب ثم وجه ضربة حاسمة في نفس السنة إلى أهم إمارة صليبية وهي أنطاكية في أقصى الشمال . ويروي المؤرخون أنه هاجمها بثلاث فرق: إحداها اتجهت الى ميناء السويدية لقطع الصلة بين أنطاكية والبحر خوفاً من أساطيل العدو والثانية سدت ممرات قليقية والشام لمنع وصول إمدادات من أرمينيا الصغرى ، والثالثة وهي القوة الرئيسية بقيادة بيبرس هاجمت المدينة نفسها واستولت عليها سنة ١٢٦٨م(١) وقد استخدم بيبرس الحيلة قبل التوجه بجيوشه إلى أمارة أنطاكية إذ تظاهر بأنه يريد مدينة طرابلس وحاصرها فعلاً ، فهرع صاحب أنطاكية بوهمند السادس بأسطوله لنجدتها وعندئذ ترك بيبرس خيامه ومتاعه عند طرابلس متظاهرا بالخوف والهزيمة واتجه من فوره إلى أنطاكية واحتلها بالطريقة التي ذكرناها بينما كان أهل طرابلس يلهون ويقولون (الظاهر بيبرس خاف منا) .(٢) ويفهم من هذه النصوص أن بيبرس

★ حديث شريف

« التموية العملياتي هو: نوع من أنواع التأمين القتالي وهو عبارة عن مجموعة من الإجراءات القتالية المنظمة والموجهة لضمان عنصر المفاجأة في أعمال قواتنا وعرقلة أعمال استطلاع العدو وتقليل فاعلية استخدام سلاحه وبالتالي فالغرض منه هو إخفاء نوايانا وأعمالنا الحقيقية ومكان أهدافنا وقواتنا في العملية المخطط لها وتضليل العدو.

(١) المقريزي السلوك ج ١ ص ٥٦٨ .

(٢) عبادي وسالم ص ٣٠٢ ـ ذكرت الحادثة في بند التعاون .

لم يستخدم أسطوله في الهجوم وعمد إلى استبعاد أسطول أنطاكية (فحافظ على أسطوله وأبعد أسطول العدو) ووضع فرقة عسكرية بين المدينة والبحر لتمنع عنها أي مدد من هذه الناحية، وبذلك تم له احتلال المدينة، وشكل سقوط أنطاكية كارثة كبرى على القوى الصليبية وبعد ذلك أخذ بيبرس في مهاجمة إمارة طرابلس سنة (١٢٧٠م / ٦٦٩هـ)

ب ـ عندما كلف القائد جمال الدين مكي بن حسون بغزو قبرص في عام ١٢٧٠م (٦٦٩هـ) لجأ هذا القائد إلى سلاح الحيلة والخدعة لمباغتة العدو على حين غفلة وذلك بأن طلى ظاهر السفن بالقار ورسم على أعلامها الصلبان كما كان يفعل الصليبيون في سفنهم، وقد أنكر بعض المجاهدين على قائدهم هذا العمل ولكنهم اضطروا إلى تنفيذ أوامره بعد اقتناعهم بأن (الحرب خدعة) وأن من مصلحة المسلمين إيهام العدو بأن سفنهم مسيحية[٣] لكن عاصفة هبت وتحطمت السفن (على نحو ما تقدم ذكره).

ج ـ عندما تستكمل استعدادت الأسطول تتجمع السفن في الميناء المخصصة للغزو ويصدر أمير البحر أوامره للرؤساء بالإبحار. وكانت المهمة الأولى التي يضطلع بها أمير البحر في تلك المرحلة هي إخفاء أسطوله بشتى الطرق وتمويهه حتى يبعده عن أعين العدو وبالتالي يتقى غارات سفنه. ومن التعليمات التي اتبعها أمير البحر لإجادة التخفي والتموية قبل المعركة هي أن لايتخذ في المراكب ناراً ولايشعل مصباحاً ولايترك ديكاً (حتى لاتجذب الإنتباه بصياحها) وان اشتد الخوف عليه وأراد الاختفاء فليجدد قلوعاً زرقاً[*] تظهر من بعد[٤] وهذا يتفق مع ما تضمنه قول الرسول (ص): «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان» من توجيه صريح للمحافظة على سرية العمل والكتمان وكذلك قوله (ص): «إذا كان عدوك غيلة فلا تنم له».

د ـ يروى العماد الأصفهاني أن السلطان صلاح الدين الأيوبي

(كان قد أمر نواب الإسكندرية بتجهيز سفن كبار وتعميرها بالغلال والأقوات وتسييرها إلى عكا ولكنها أبطأت عن الموعد المطلوب مما أضر بالمقيمين بمدينة عكا. وفكر صلاح الدين فيما يتعجل به الغرض، فكتب إلى متولي بيروت عز الدين سامه، فجهز بطسة

---

(٣) الحسين بن عبد الله آثار الأول ص ١٩٦ العدوي ص ١٦٨.

(٤) عبادي وسالم ص ٣٠٤.

★ لونها مشابه للون مياه البحر فتصعب رؤيتها من بعيد.

كبيرة ملأها ميسرة وغلة كثيرة وأركبها جماعة على زي الفرنج ممسوحي اللحي وأصحبهم صلبانـاً وخيل بهم رهباناً، وكانت هذه البطسة من الفرنج مأخوذة وهي بساحل بيروت منبوذة، فأمر السلطان صلاح الدين بترميمها وتتميمها، فملئت بالشحوم واللحوم وأربعمائة غرارة غلة وأحمال من النشاب والنفط ورتب فيها (رجالاً مسلمون ونصارى من أهل بيروت وأرادوا أن تتشبه ببطس العدو في البحر، فشدوا زنانير واستصحبوا خنازير وساروا في البحر بمراكب الفرنج مختلطين وإلى محادثتهم ومجاذبتهم منبسطين. . .) ولما جاؤابها عكا صوبوا بها نحوها والريح تسوقها، والفرنج من مراكبهم تقول (ماهذه طريقها) وهي كالسهم النافذ قد سدد فوهها[5] فخرجوا اليهم واعترضوهم في الحراقات وقالوا: (تراكم قاصدين البلد.) واعتقدوا أنهم منهم، فقالوا: (ولم تكونوا قد أخذتم البلد؟) فقالوا: (لالم نكن نأخذ البلد بعد.) فقالوا: (نحن نرد القلوع إلى المعسكر وورائنا بطسة أخرى في هوائنا، فأنذروهم حتى لايدخلوا البلد) وكان ورائهم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم قاصدين المعسكر فنظروا فرأوها فقصدوها لينذروها فاشتدت البطسة الإسلامية في السير واستقامت لها الريح حتى دخلت الميناء وكان ذلك في العشر الأخير من شهر رجب سنة ٥٨٦ هـ.)[6]

---

(٥) أبو شامة (الروضتين) ج ٢ ص ١٦١.

(٦) بهاء الدين بن شداد ص ٢٠٤ ص ٢٠٥.

الفصل الثاني عشر

المناورة العملياتية بالسفن الحربية المفككة والجاهزة عبر البر إلى البحر

لجأ قادة البحرية العربية الإسلامية إلى تطوير فنون الحرب البحرية بما يلائم الحاجة والموقف واستفادوا في ذلك من وسائل التقدم الصناعي والعملي الذي توصلوا اليه. وبالإضافة إلى براعتهم في الحشد والتركيز بالقوات البحرية في مسارح العمليات فقد لجأوا إلى أسلوب ذكي في استخدام قواتهم البحرية وهو المناورة بالسفن الحربية المفككة ونقلها من مسرح عمليات إلى آخر وقاتلوا بها وانتصروا وهنالك أمثلة عديدة على ذلك:

أ ـ في سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠م) عزم صلاح الدين على احتلال قلعة أيلة (العقبة)[1] والتي تقع على فوهة البحر الأحمر ومداخل العقبة، وكانت بأيدي الصليبيين، فعمر لها المراكب الحربية في دور صناعة مصر (الفسطاط) ثم نقل أجزاءها وأخشابها مفككة على الجمال إلى ساحل البحر الأحمر حيث تم تركيبها وشحنها بالآلات والرجال. ومن هناك «هاجم القلعة المذكورة وفتحها واستباح بالقتل والأسر أهلها، وملأها بالعدد والعدد وحصنها بأهل الجلاد والجلد لأنها في ممر حجاج مصر»[2] وبعد سنوات من فتح أيله أرسل صلاح الدين حملة احتلت اليمن.يمنة. ٥٦٩ هـ (١١٧٣م) ثم بسط نفوذه على الحجاز. ولاشك أن هذا التدخل في البلاد المطلة على البحر الأحمر جنوباً وشمالاً، كان الهدف من ورائه السيطرة على مداخل هذا البحر وحماية تجارته وحجاجه من الخطر الصليبي المرابط في سيناء وجنوب فلسطين لذا فإن اللجوء إلى هذا الأسلوب من المناورة بالسفن المفككة ونقلها إلى مسرح عمليات البحر الأحمر يعبر عن المستوى الراقي في التفكير العسكري الاستراتيجي

---

(١) عبادي وسالم ص ٢٦٠ (العقبة ويحتمل أن يكون المقصود إيلات حاليا

(٢) أبو شامة (كتاب الروضتين) ج١ ص ١٩١ ـ القلقشندي صبح الأعشى ج ٢ ص ٢٧.

ـ العملياتي لدى قادة البحرية العربية الإسلامية.

وتشاء الصدف أن العدو الاسرائيلي قد لجأ في حرب (١٩٦٧) إلى نقل بعض الزوارق الحربية من مسرح عمليات البحر الأبيض المتوسط إلى ميناء ايلات (أيله) لاستخدامها ضد الأسطول المصري في البحر الأحمر، لكنه نقلها جاهزة على وسائط نقل برية ميكانيكية وأنزلها في الميناء المذكور واشتركت في الحرب مباشرة (أي بفارق زمني مقداره ثمانية قرون).

ب ـ في سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م) حاول الأمير الصليبي أرناط (Remaud de chatil-lon)[٣] صاحب حصن الكرك جنوب فلسطين مهاجمة مكة والمدينة عن طريق البحر (فبنى سفناً حربية حملها جمال الأعراب المجاورين بكراء اتفق معهم عليه، فلما بلغ ساحل البحر الأحمر أكمل إنشاءها وتأليفها ودفعها في البحر، ثم أوقف منها مركبين عند قلعة أيلة لمنع أهلها من استقاء الماء، بينما سارت بقية السفن جنوباً نحو عيذاب ... وأحدثوا حوادث لم يسمع في الإسلام بمثلها ولا وصل قبلهم رومي إلى ذلك الموضع فإنه لم يبق بينهم وبين المدينة النبوية سوى مسيرة يوم واحد... ثم مضوا إلى الحجاز يريدون دخول مدينة الرسول (ص) وإخراجه من الضريح المقدس، وأشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم[٤] فلما وصل الخبر إلى مصر وبها الملك العادل نائباً عن أخيه صلاح الدين أمر الحاجب لؤلؤ (وهو من أصل أرمني اعتنق الإسلام) فعمر المراكب بمصر وسار بها براً إلى أيله حتى أنزلها (جاهزة) في البحر هناك وشحنها بالرجال ذوي التجربة من أهل الدين والحمية مع انجاد من المغاربة البحريين[٥] وسار الى ايله فظفر بالمركب الفرنجي عندها فحرق السفينة وأخذ جندها ثم عدى إلى عيذاب وشاهد بأهلها العذاب ودلوه على مراكب العدو فتبعها فوقع بها بعد أيام فأوقع بها وواقعها... وعاد إلى القاهرة بالأسرى في (ذي الحجة ٥٧٨ هـ، ١١٨٢م) وقد أنشد أبو الحسن بن الذروي في الحاجب لؤلؤ بسبب هذه الواقعة قصيدة منها:

مرّ يوم من الزمان عجيب ... كاد يبدي فيه السرور الجماد

قلت بعد التكبير لما تبدى ... هكذا هكذا يكون الجهاد

حبذا لؤلؤ يصيد الأعادي ... وسواه من اللآلي يصاد[٦]

(٣) عبادي وسالم ص ٢٦١.

(٤) المقريزي: ج ١ ق ٢ ص ٧٩.

(٥) رحلة بن جبير ـ طبعة بيروت ص ٣٤، عبادي وسالم ص ٢٦٢

(٦) أبو شامة (الروضتين) ج ٢ ص ٣٦.

ج - في عام ١٢٧٠ م (٦٦٩هـ) أرسل السلطان بيبرس أسطولاً لغزو قبرص وعندما اقترب المسلمون من ميناء ليماسول على الشاطيء الجنوبي للجزيرة هبت عليهم ريح عاصفة فاصطدمت معظم سفنهم بشعب الميناء وتحطم منها أحد عشر شينياً وعرف القبارصة من صياح البحارة أنها سفن إسلامية فأسروا جميع من فيها وعدتهم ألف وثمانمائة رجل أما الشواني الستة الباقية فانها نجت وعادت سالمة وعليها قائد الحملة الرئيس جمال الدين مكي بن حسون. وشمت ملك قبرص (هيو الثالث لوزجنان) بالظاهر بيبرس وكتب اليه يقرعه ويوبخه ولكن بيبرس رفض أن يجعل من هذا الحادث هزيمة واعتبره إصابة عين لأن رايته لم تخذل أبداً[٧].

وتصادف في ذلك الوقت أن استولى بيبرس على حصن القرين بالشام فرد على ملك قبرص يقارن فيه بين العمليتين ويقول:

« وما العجب أن يفخر بالإستيلاء على حديد وخشب - وإنما الإستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب. . . . وما النصر بالهواء مليح ، وانما النصر بالسيف هو المليح ونحن ننشىء في اليوم الواحد عدة قطائع ولاينشأ لكم من حصن قطعة ، ونجهز مئة قلع ولاتجهز لكم في مئة سنة قلعة، وما كل من أعطي مجدافاً جدف ، وما كل من أعطي سيفاً أحسن الضرب به أو عرف. وأنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول[٨]

وقد أمر الظاهر بإعادة بناء الأسطول حتى كان شهر تموز ١٢٧٢م حيث لعبت الشواني بين يديه فكان يوماً مشهوداً[٩]

لكن السلطان انشغل بخطر أشد من الخطر الصليبي ألا وهو الخطر المغولي لذا قرر في نفس السنة (١٢٧٢م) التوجه لملاقاة التتر في أرضهم وحمل معه عدة مراكب مفصلة أجزاء على ظهور الجمال وأنزلها في نهر الفرات لتعبر بها جيوشه واستطاع بيبرس وجنوده عبور النهر والإنتصار على الجيوش المغولية ومطاردة فلولها في الأراضي العراقية سنة ١٢٧٣م. ويبدو أن نجاح بيبرس في هذه الحملة مكنه من جذب عدد من كبار رجال الدولة المغولية إلى جانبه[١٠]إن هذا النجاح الذي تحقق كان بفضل المبادأة التكتيكية والمناورة بسفن محمولة براً إلى الفرات .

---

(٧) عبادي وسالم ص ٣٠٤.

(٨) المقريزي : السلوك ج ٢ ص / ٥٩٤، سعيد عاشور قبرص والحروب الصليبية ص ٤٧ - ٤٩.

(٩) المقريزي الخطط ج ٢ ص ١٨٥، ١٩٤.

(١٠) عبادي وسالم ص ٣٥.

د ـ وهناك حادثة شهيرة في تاريخ الحرب البحرية حول نقل السفن الجاهزة برا إلى البحر:

خلال حصـار السلطان العثماني محمد الفاتح للقسطنطينية (ثم فتحها في ٢٩ أيار ١٤٥٣م) وبعد الخسائر التي مني بها الأسطول العثماني في معرة «غلسطة» في نيسان ١٤٥٣م برزت لديه فكرة بارعة لنقل السفن من مرساها في بشكطاس (البوسفور) إلى القرن الذهبي وذلـك بجـرها على الطريق البري الواقع بين الميناءين (طوله نحو ثلاثة أميال من الوهاد والتلال)، فأمر بتعبيد الأرض وتسويتها وأتى بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم ثم وضعت على الطريق الممهد لها بطريقة تسهل انزلاق السفن وجرها. واستطاع السلطان في ٢٢ نيسان ١٤٥٣ م أن ينجح في نقل سبعين سفينة من البوسفور إلى القرن الذهبي تحت غطاء كثيف من قذائف المدفعية.[11]

هـ ـ أما عن تحركات الأسطول ووصف مناوراته البحرية فنورد بعض النصوص على سبيل المثال. يقول السلاوي في وصف عبور السلطان أبي الحسن بجيوشه إلى الأندلس: ثم شرع السلطان أبو الحسن في أجازة العساكر، وانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة من العدوة إلى العدوة، ولما تكاملت العساكر بالعبور وكانت نحو ستين ألفاً أجاز هو في أسطوله مع خاصته وحشمه آخر سنة أربعين وسبعماية ونزل بساحة طريف[12]

كذلـك يصف أحد المعاصرين المناورة البحرية التي أشرف عليها أبو عنان في مياه بجاية فيقول:

« امتثـالاً لتعليمات أبي عنان اصطفت أساطيل البلاد البحرية المتوكليه[13] يتقدمهم القائد الأعلى ابن الأحمر في طريدته، ثم أسطول طنجة يتقدمه قائده ابن الخطيب في غرابه، وبعد هذا ترتبت بقية الأساطيل وقوادها حسبما اقتضته المدن التي تولوا أمر بحرها وقد لزم قائد كل أسطول مكانه من مصطف الأجفان التي كان يكسوها طلاء السواد الحالك ، وتظهر

---

(١١) د. عبد السلام عبد العزيز فهمي ، فتح القسطنطينية « المكتبة الثقافية العدد ٢٢٨)
دار الكاتب العربي ـ القاهرة ١٩٦٩ ص ٥٨ وحتى ٦٢.
أوردنا الحادثة لأهميتها التاريخية وللمقارنة ، ولقد ساعد العثمانيين على نجاح فكرتهم صغر مراكبهم مما سهل حركتها ونقلها.

(١٢) ابن الخطيب : لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله. نفاضة الجراب ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

(١٣) نسبة إلى لقب أبي عنان وهو المتوكل على الله.

صواريها شبه المآذن بينما شحن داخلها بالأبطال : بين رام وسائف ورامح ، وقد لبسوا الحديد ورفعوا عقائرهم بالتحميد والتمجيد . . . وقد صدحت موسيقى فقرعت الطبول ، وعلت أصـوات الأنفـار والبوقات، كما دوت طلقات الأنفاط ، بكل متأجج السواط، والرايات خفقت حول أعالي الرماح، وقد تنوعت ألوانها ، كأنها قوس قزح، سوى طريدة القائد فقد كانت رايتها بيضاء[١٤]

(١٤) عبادي وسالم (البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس) ص ٣٠١ ـ ـ ٣٠٢.

الفصل الثالث عشر

أسلحة الحرب البحرية في الأساطيل العربية الإسلامية

سُلِّحَتْ سفن الأسطول العربي بادىء ذي بدء بالأسلحة التي كانت تستخدمها القوات البرية عدا تعديلات تجعلها تتفق مع حرب البحار[1] وبعد اكتسابهم الخبرات خلال حروبهم مع الروم البيزنطيين تطورت صناعة الأسلحة البحرية وتعددت وبرع البحارة العرب في استخدامها في مختلف العهود . ومن تلك الأسلحة :

أ ـ أسلحة المقاتلين في البحر:

ـ اللتوت والدبابيس والمستوفيات : وهي عمد من الحديد لها رؤوس مستطيلة الشكل مضربة مصنوعة أيضاً من الحديد[2] وقد تكون مقابض هذه اللتوت من الخشب المحكم التدوير، ولكن فرزتها تكون في هذه الحالة من الحديد وتلبس في المقبض ، وقد تضرس تدويرة الخرزة أو تسنن. أما الدبابيس فلا تختلف عن اللتوت إلا في رؤوسها فهي مدورة مضرسة[3] وأما المستوفيات فهي عمد من الحديد مربعة الشكل طويلة يبلغ طول العمود منها ذراعين، وله مقبض مستدير[4] وتستخدم هذه الأسلحة في تهشيم الخوذات المعدنية.

---

(١) العدوي ص ١٦٢

(٢) المقريزى الخطط ج ٢ ص ٣١٧، عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ص ٦٥ عبادي وسالم ص ١٤٠ .

(٣) المقريزي ج ٢ ص ٣١٧ .

(٤) المقريزي ج ١ ص ٣١٧.

ـ السيوف والرماح والفؤوس : السيوف أنواع منها الصماصم[٥] المصقولة ومنها السيوف المحدبة وكانت السيوف من أهم أسلحة البحريين. أما الرماح فأنواع كثيرة ، منها الرماح القنا ومنها القنطاريات المدهونة المذهبة. وهي الرماح القصيرة، ومنها المزاريق والفريجيات والضواري والصبريرات ، وهي الرماح الطويلة المخصصة للطعن[٦] أما الفؤوس فسلاح له رأس نصف مستدير مبطط حاد النصل ومقبضه خشبي مستدير وأحياناً يتخذ من الحديد وتسمى الفأس بلطة أو طبر[٧]

ـ الأقواس والنشاب : الأقواس آلات لقذف النشاب ذات النصول مثلثة الأركان وهي أنواع : منها قسي الزيار المصنوعة من خشب السنديان وهي أشد القسي رمياً وأعظمها جرماً وأنكأها سهماً وتنصب عادة على الأبراج وما شابهها . ومنها القوس العقار والجرخ وهما دون الزبار في القوة ويجذب وترهما بلولب ومنها قسي الرِّجل وتوتر بدفع الرجلين لها وتصنع عادة من خشب التخش[٨] ومنها قسي رمي قوارير النفط ، وتصنع من خشب الصنوبر.

ـ الكلاليب والباسيلقات : الكلاليب نوع من الخطاطيف الحديدية كان يستخدمها البحريون للرمي على مراكب العدو لجذبها وشدها والعبور إليها عن طريق ألواح خشبية أو سلالم من الحبال لمقاتلة ملاحيها[٩] وقد استعمل أهل صور الكلاليب عندما حاصرهم الإفرنج في سنة ٥٠٥ هـ ، وتفصيل ذلك أنه لما اشتد حصار الفرنج لصور وإلصاقهم الكبش والأبراج على أسوارها صنع رجل من مقدمي البحرية عارف بالصنعة من أهل طرابلس كلاليب من الحديد لإمساك الكبش الصليبية من جانب رؤوسها فكان يربط هذه الكلاليب بحبال ويقذفها على الكبش ثم يجذبها فتميل الأبراج وتنكسر[١٠] أما الباسليقات فسلاسل تنتهي عند رؤوسها برمانة من الحديد كانت تستخدم في القتال على سطح السفن[١١]

---

(٥) جمع صمصم وصمصامة وهو السيف القاطع أو السيف الصارم (لسان العرب طبعة بيروت ٥٦ ص ٣٤٧.

(٦) عبادي وسالم ص ١٤١ .

(٧) عبادي وسالم ص ١٤١ .

(٨) عبادي وسالم ص ١٤١ .

(٩) فتحي عثمان ج ٢ ص ٣٧٥

(١٠) عبادي وسالم ص ١٤١

(١١) فتحي عثمان ج ٢ ص ٣٧٤

ـ ويتسلح البحريون عند نشوب القتال في البحر بالدروع المسبلة والزرديات ذات المغافر الملثمة والكراغندات المدفونة بالزرد المغشاة بالديباج والجواشن المبطنة المذهبة، ويتقي البحريون أنفسهم من سهام الأعداء وسيوفهم بالتراس الواقية. وهي أنواع من حيث الشكل فمنها المدور والواسع التدويروالبيضي، وكذلك تختلف التراس من حيث مادة الصنع، فمنها المصنوع من الحديد والخشب المكسو بالجلود المغطاة بالدهن والأصباغ. وقد تكون التراس من جلود اللمط. وتسمى التراس المدورة الطوارق ويصل ارتفاعها إلى ارتفاع قامة الرجل، وهي مستديرة الشكل من أعلى ومدببة من أسفل، وقد تكون هذه التراس مثورة من أدنى وتسمى في هذه الحالة بالجنويات[12]

وفي العصر الفـاطمي كان رجـال الأسـطول يحمـون أنفسهم من الحـريق بدهن أجسامهم بالبلسان[13]

ب ـ آلات القتال البحري التي كانت السفن تزود بها:

ـ التوابيت : (جمع تابوت) وهي صناديق مفتحة من أعلاها تنصب بأعلى الصواري يصعد اليها البحريون ومعهم قطع من الحجارة يضعونها في مخلاة تعلق إلى جانب التابوت ويرمون بها الأعداء ثم يتجمعون في التوابيت. وقد يحملون معهم قوارير من النفط أو جرار النورة (وهو مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ) يرمون بها في مراكب العدو فتعمى الرجال بغبارها[14]

ـ النفط البحـري : وهو نفط خاص بإحراق المراكب ويجهز من قطران وكبريت ومواد أخرى مختلطة شديدة الإلتهاب، لاتنطفىء النيران التي تنشأ من قذف هذا النفط بملامسة الماء[15]ويطلق النفط من آلة من النحاس أو الحديد تعرف بالنفاطة.

وكثيراً ما يقذف النفاطون النفط بالسهام والنشاب وأحياناً بالمنجنيق[16]

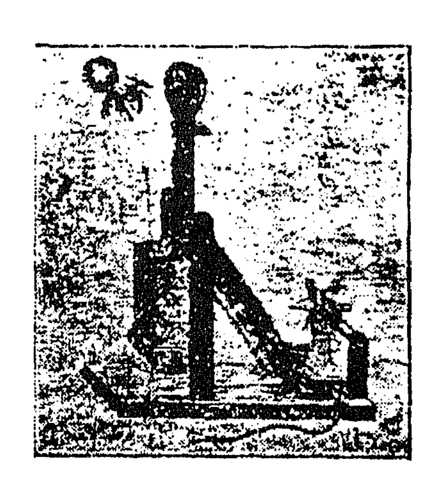
---

(١٢) عبادي وسالم ص ١٤٣، المقريزي ج ٢ ص ٣٢٩ ص ٢٦٧

(١٣) د. ماجد نظم : الفاطميون ورسومهم في مصر ص ٢٢٧

(١٤) المقريزي ج ٢ ص ٢٦٧، خانكي ص ١٣٣

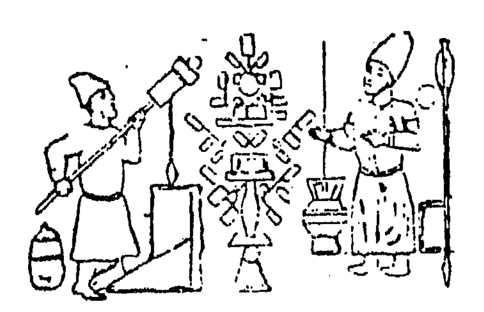
(١٥) عبادي وسالم ص ١٤٢



صورة منجنيق لرمي النفط



آلة حصار حربية لاطلاق النار اليونانية



صورة رجلين حربيين يشتغلان في الأسلحة النارية . (عن مخطوط في مكتبة ليلينغراد)

ـ المجانيق والعرادات : (*) هي آلات لقذف الأحجار الضخمة المضرسة التي توضع على الكفة ثم تقذف إلى الأهداف بواسطة الشد على لوالب وتستخدم المجانيق والعرادات لقذف النفط أو جرار الزيت المغلي أو القلفونية وكذلك تقذف القدور المجهرة حصيصاً لقذف المراكب البحرية .

والعرادة آلة تشبه المنجنيق ولكنها دونه في الحجم وتستخدم كذلك لرمي الحجارة والسهام وقدور النفط . (١٧)

ـ اللجام : وهي حديدة طويلة محددة الرأس وأسفلها مجوف كسنان الرمح تدخل من أسفلها في خشبة كالقناة بارزة في مقدم المركب يقال لها (الاسطام) فيصير اللجام كأنه سنان رمح بارز من مقدم السفينة فيحتالون في طعن المركب العدو به فإذا أصاب جانب المركب بقوة خرقه وخشي معه غرقه مما قد ينصب فيه من الماء فيبادر أصحابه بطلب الأمان (١٨)

ـ الدبابة : وهي شبة برج متحرك له أربعة أدوار : أولها الخشب وثانيها من الرصاص وثالثها من الحديد ورابعها من النحاس الأصفر ، ويتحرك هذا البرج الهائل على عجلات وتصعد إلى طبقاته الجنود لمهاجمة الحصون وتسلق الأسوار وكانوا يصفونها بالشواني (١٩)

---

(١٦) فتحي عثمان ج ٢ ص ٣٧٢

(١٧) فتحي عثمان ج ٢ ص ٣٧٤

(١٨) الحسن بن عبد الله (آثار الأول في ترتيب الدول) ص ١٩٧ ، خانكي ص ١٣٣ ، د. سعاد ماهر ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤

(١٩) الحموي ص ٦٦

★ حول المجانيق أنظر د. سعاد ماهر (ص ٢٢١ حتى ٢٢٩) وكان من التقاليد المرعية عن المسلمين أنهم يكبرون ويتلون بعض آيات قرآنية أثناء رميهم بالمجانيق ، فإذا كان المنجنيق يرمي الحجارة قالوا : «وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد» هود آية ٨٢ ـ ٨٣ وإذا كان المنجنيق يقذف النفط قالوا« واعتدنا لهم عذاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير. سورة الملك آية ٥ » د. سعاد ماهر ص ٢٢٩ مرجع سابق وجاء في كتاب السيره (السيرة النبوية لمحمد بن هشام ج ٤ ص ١٢٦ أن المسلمين استخدموا المنجنيق لأول مرة في غزوة الخندق نزولاً على مشورة (سليمان الفارسي) الذي قام بصناعة أول منجنيق إسلامي بنفسه ولكن جاء في الطبري (ج ٣ ص ١٣٧) أن المسلمين استعملوا المنجنيق لأول مرة في حصار الطائف وأن الرسول (ص) كان أول من رمى به من المسلمين وأيده في ذلك ابن الأثير (الكامل لابن الأثير ص ٦٣).



سفينة بيزنطية تستخدم النار اليونانية (نقلاً عن مخطوطة من القرن الرابع عشر الميلادي)
من كتاب Ships and Seamanship in the Ancient World *(By : Lionel Casson)*

ـ مكاحل البارود: هي المدافع التي يرمى عنها النفط وحالها مختلف فبعضها يرمى عنه بأسهم عظام تكاد تخرق الحجر وبعضها يرمى عنه ببندق من حديد من زنة عشرة أرطال (بالمصري)(**) إلى ما يزيد على مئة رطل(٢٠)

ـ وقاية بدن السفينة: كانوا يعلقون حول المركب من الخارج الجلود أو اللبود المبللة بالخل والماء والشبب والنطرون لدفع أذى النفط، وقد يحتاطون لذلك بالطين المخلوط بالورق أو النطرون أو الخطمي المعجون بالخل نظراً لمقاومة هذه المواد فعل النفط(٢١)

كما أن المراكب الفاطمية كانت تحتمي من نار العدو وقذائفه بتغطية هيكلها بدرع من الخارج يسمى (لبوساً) عليه غطاء يسمى (لبوداً) من جلود البقر الطرية أو من البسط.(٢٢)

ـ احتياطات تتخذها السفن أثناء الحرب: إذا جن الليل لايشعلون في مراكبهم ناراً ولايتركون فيها ديكاً واذا أرادوا المبالغة في الإختفاء أسدلوا على المراكب قلوعاً زرقاً فلا تظهر من بعد. وكانوا يسمون هذه القلوع (السفاير) وهي آلات الوقاية من الطوارىء وما في معناها ما يستتربه على الأسوار والسفن التي يقع فيها القتال(٢٣) وكانوا أيضاً يسدلون على المراكب قلوعاً زرقاً كي لاتظهر للأعداء من بعد(٢٤)

ـ النار اليونانية: وعرفت باسم النار الإغريقية أو النار البحرية، واستحدم الروم هذا السلاح وزودوا به أساطيلهم ومخترعه هو رجل من بعلبك يسمى كالينيكوس، هاجر إلى القسطنطينية عندما استولى العرب على بلاده وكان ممن حذق في الهندسة والكيمياء، واستطاع الروم الإحتفاظ بسر هذه النار حتى القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري).

وتوصل العرب إلى سر هذا السلاح بما لايختلف عما ذكره أحد كتاب الروم إذ قال: إذا أخذت كبريتاً نقياً من حامض الطرطريك والصمغ الفارسي والقار الخام والنترات ثم مزجت الخليط معاً وغمست في هذا الخليط نسيج كتان، ثم أشعلت فيه النار انتشر اللهب في الحال ويطفىء هذه النار الرمل فقط أو الخل.(٢٥)

** حوالي نصف كيلو غرام

(٢٠) الحموي ص ٦٧ أنظر أيضاً د. سعاد ماهر ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ ـ ٢٣٧

(٢١) خانكي ص ١٣٣

(٢٢) د. ماجد: نظم الفاطميين ص ٢٢٧، عدوي ص ١٦٦

(٢٣) خانكي: ص ١٣٣

(٢٤) حموي: ص ٧١، سبق ذكره

(٢٥) العدوي ص ١٦٥ ـ ١٦٦

ثم تطور هذا السلاح فيما بعد وظهر منه نوع أشبه بالمفرقعات وكانت تتكون من وحدات كل منها تحوي رطلاً من الكبريت المسحوق مع رطلين من الفحم البلدي أو ست حصن من نترات البوتاس وملح البارود ثم يوضع المزيج في غلافات طويلة ضيقة محكمة أشبه بالخرطوشة تغطى بسلك حديدي. وتشعل هذه الأنابيب وتقذف في الهواء بواسطة المجانيق ويسمع لها انفجار مدوي يصحبه دخان كثيف مسبوق بلهب خاطف[٢٦]غير أن النار التي زودت بها السفن البحرية كانت من أنابيب النحاس موضوعة في مقدمة السفينة فيقذفون منها السائل مشتعلاً أو يطلقونه على شكل كرات مشتعلة أو قطع من الكتان المدهون بالنفط فيقع على السفن ويحرقها. ومن ميزات هذه النار أنها كانت تشتعل في الماء والهواء كالنفط وتدمر أهدافها[٢٧]

وظهر تقدم الأسطول العربي في استخدام هذا السلاح الجديد خلال العصر الفاطمي ، وقد أشاد الكتاب والشعراء المعاصرون بقوة هذا السلاح البحري وكيف أنه جعل من سفن الأسطول الفاطمي قوة هائلة أفزعت الروم.[٢٨]

من قصيدة للشاعر ابن حمديس :

وحــربــية ترمــي بمـحــرقِ نَفْـطهِـا   فيغشى سعــوط المـوت فيهـا المعـاطسـا

ومن ناحية أخرى يذكر أن الأمير يلبغا الخاصكي الذي كان يعد لغزو قبرص لم يتردد في حشد كل ما يضر العدو من المكائد: ومن ذلك مثلاً أنه ملأ قدوراً من الفخار بالثعابين والحيات الكبار والصغار كي يرمي بها على الفرنج فيقتل بصكها من صادفته ثم تنكسر وتسعى الأحناش بينهم تنهشهم وتدهشهم وتحيدهم عن مواقفهم في الحرب وتكون لهم مشغلاً شاغلاً فتورثهم العطب وسوء المنقلب.[٢٩]

هذا وقد وصف شلمبرجه في كتابه عن الإمبراطور البيزنطي نيسفور في الصفحات

---

(٢٦) العدوي : ص ١٦٥

(٢٧) خانكي : ص ١٣٠

(٢٨) عدوي : ص ١٦٥

(٢٩) عبادي وسالم ص ٣٢١

★ حول معدات السفن الحربية أنظر أيضاً د. سعاد ماهر (مرجع سابق) ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ ـ ٢٠٥

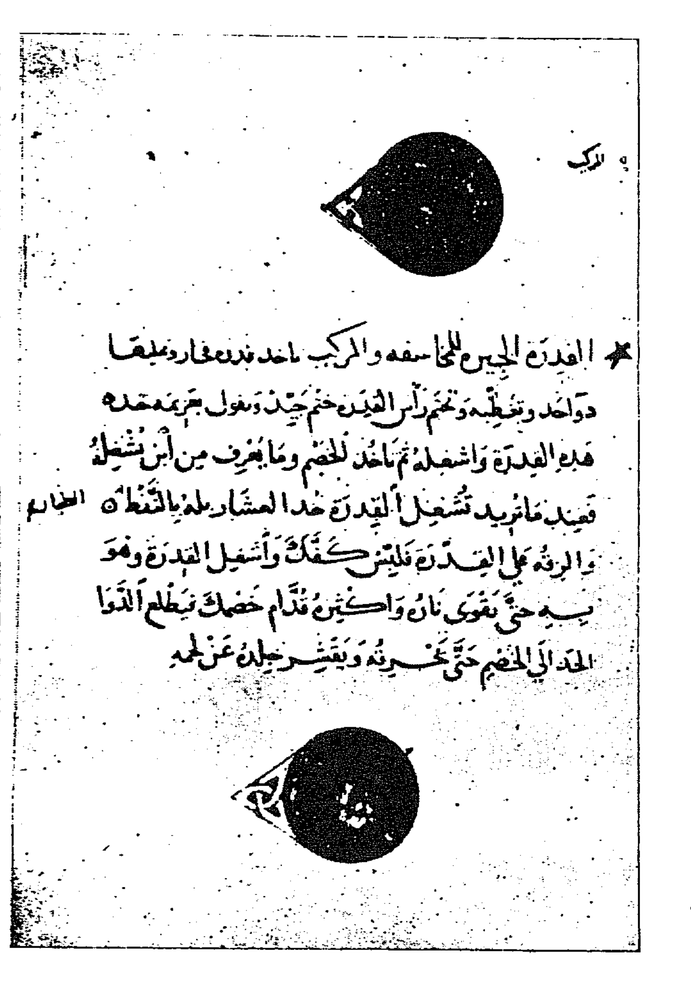
(٨٥، ٨٦، ٨٧) القذائف التي كان العرب يستخدمونها في أساطيلهم فقال بأن العرب افتنوا فناً في القذائف النارية لم تعرفه الروم ، وذلك أنهم اخترعوا الرمانة العربية «يصنعونها من الفخار وكان عندهم ثلاثة أسماء لها: الزيت المحرق، النار البحرية، الشعلة الذائبة، تشتعل وهي على سطح الماء وقد تلحق بالجنود السابحين الهاربين» ويقول: « إن هذه الرمانه قنبلة تحشى بالنفط يرميها العرب على الأساطيل البيزنطية ، أوعلى الحصون المحاصرة وحين تنفجر تنفذ شعلتها من كل الجهات في الأسفل والأعلى فتصدع كل شيء وهي على شكل الجرة الصغيرة ذات فروع وفي كل فرع ثقوب وقد صففت على أخشاب على ظهر السفن».

كما جاء في كتاب «الأنيق في المجانيق»[٣٠] شرح للمقذوفات التي تستعمل لقذف المراكب البحرية فيقول: «قدر سقوط تأخذ قدرة مدورة فخار وتملأها حب القطن محمص باللزاق وتملأ به القدرة ويظخره بظخيرة مؤقته مقلبة في الكبريت ويعطيه النار من الظخيرة قدر سقوط المراكب تأخذ القدر الفخار أكبر ما يكون وتحط فيها حبات عتيق وأحماص ونواشيد وتختم رأسها وتسقطها في الثقوب في المركب فأي من لسعته قتلته والله أعلم صفة المركب» ويذكر نوعاً آخر من القدور التي تقذف على المراكب فيقول: «القدرة الجبرية للمخاسفة والمركب تأخذ قدرة فخار وتملأها دواحد وتغطيه وتختم رأس القدرة ختم جيد وتقول بعزيمة خذ هذه القدرة وأشعله ثم تأخذ الخصم وما يعرف من أين تشعله فعندما تريد تشعل القدرة حد العشار بله بالنفط ، والزقه على القدرة فلبس كفك وأشعل القدرة وهو به حتى تقوى ناره وأكثره قدام خصمك فيطلع الدوا الحد إلى الخصم حتى يحرقه ويقشر جلده عن لحمه» انظر اللوح التالية.

---

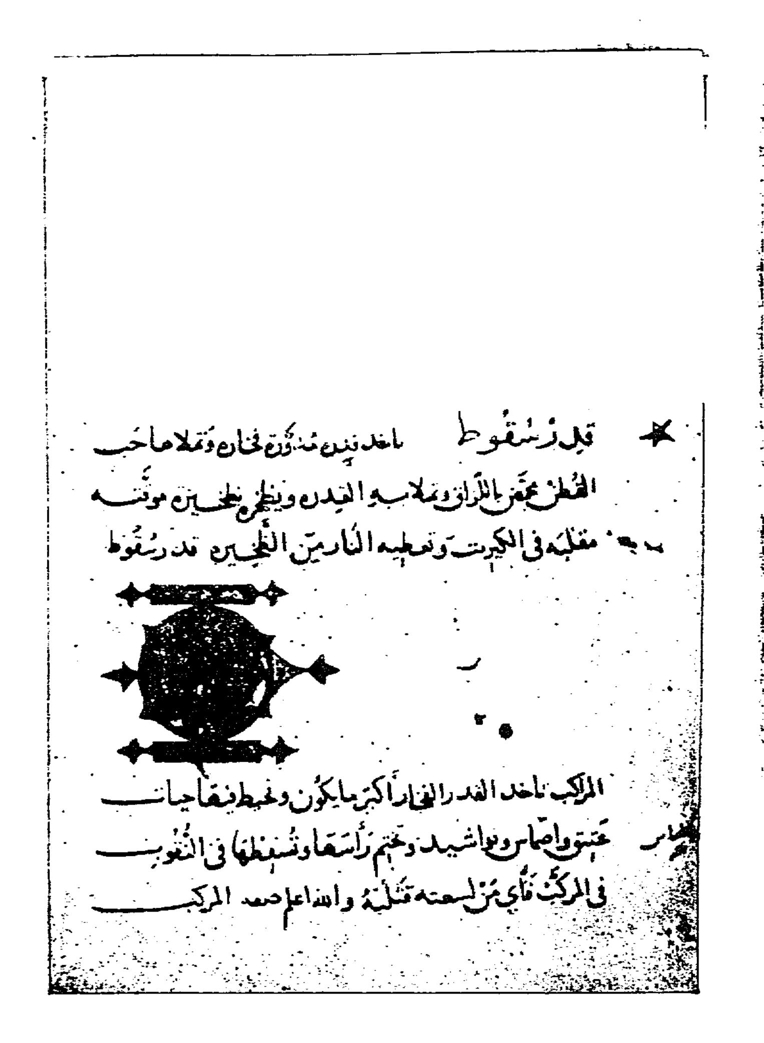
(٣٠) أرنبغا الزردكاش: الأنيق في المجانيق ص ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، (مخطوطة وصورة بالجامعة العربية تحت رقم ٩٧٠).

انظر أيضاً د. سعاد ماهر فصل المجانيق ص ٢٢١ وحتى ٢٢٩



الركب

القدرة الجيرة للمحاسفه والمركب تاخذ قدرة فخار وتطبقها
دواخد وتغطيه وتختم راس القدرة ختم جيد وتقول بعزيمة هذه
هذه القدرة واشغله ثم تاخذ للخصم وما يعرف من اين تشغله
فعند ما تريد تشغل القدرة هذا المشار اليه بالنفط الطابع
والرقه على القدرة فلبس كفك واشعل القدرة وهو
بيده حتى تقوى نارها واكتين قدام خصمك فيطلع الدوا
الحد الى الخصم حتى تحرقه ويقشر جلده عن لحمه



قيل رسقوط تاخذ قدر مدور فخار وتملاها حب
القطن محشو بالزرازير ملابسه القدرة وتطرح النحاس موثقه
مقلبه في الكبريت وتغطيه النار من النحاس قدر سقوط

المركب تاخذ القدر الفخار اكبر ما يكون وتحيط فيها حيات
عتيق واصابع ونواشيد وتختم راسها وتسيطها في الثقوب
في المركب فاي من لسعته قتلته والله اعلم صفة المركب

الفصل الرابع عشر

السفن الحربية في الأساطيل العربية الإسلامية (*)

انتشرت دور صناعة السفن في مصر والشام وفي وقت لاحق في شمال أفريقيا وقد زودت تلك الترسانات الأساطيل العربية بالسفن التي خاضوا بها حروبهم وفتوحاتهم البحرية . إن «دار الصناعة» هي الكلمة العربية المستخدمة للدلالة على مكان صناعة السفن[1] وقد دخل هذا التعبير في اللغات الأخرى شأنه شأن العديد من المصطلحات البحرية العربية . فهي في الإيطالية (ARsenule) أو (Arsena) وفي الاسبانية (Arsenal) وهو الشكل الذي اتخذته الكلمة في جميع اللغات الأوروبية تقريبا وكانوا من فبل يلفظونها Darcinah ثم عاد العرب فأخذوها عن الأسبان Tarsanah واستقر لفظ ترسانه حتى يومنا هذا[2]

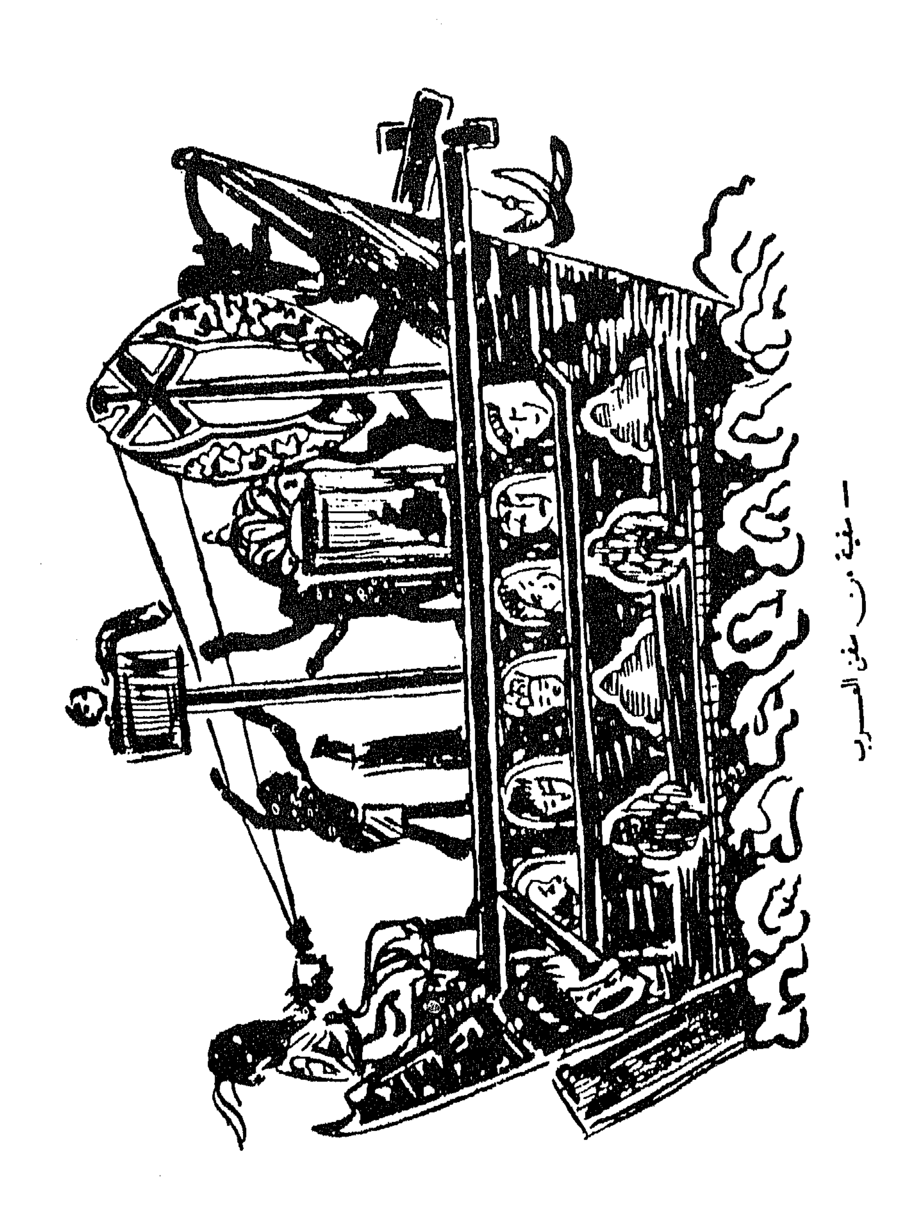
وعندما وصل المسلمون بفتوحاتهم إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط كان عليهم أن يجابهوا المشكلات البحرية الجديدة . وبمجرد أن فتحوا المدن الفينيقية القديمة واستحوذوا على المدن المصرية أدركوا بسرعة مدى الأهمية الحيوية للقوة البحرية لدولة غازية تتوسع بسرعة وقرروا أن يستخدموا نفس الأسلحة التي يستخدمها أعداؤهم وبدأوا يتقدمون في بناء السفن ثم تقدموا في الملاحة ، . وفي سبيل بناء قواعد برية مناسبة تطلعوا إلى بناء القوة البحرية التي كانت ضرورة لاغنى عنها[3] ومن المحتمل أن السفن الإسلامية زمن الخلافة الباكرة كانت

★ حول جميع أنواع السفن الإسلامية انظر : د. درويش النخيلي (السفن الإسلامية على حروف المعجم) دار المعارف ١٩٧٩

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق ص ٩٣

(٢) د. علي محمود فهمي (التنظيم البحري الاسلامي في المتوسط ص ٣١) د. سعاد ماهر البحرية في مصر الإسلامية ص ٣١١

(٣) فهمي ص ١٣٠



— سفينة من سفن الحرب

تشبه النمط العام لسفن الإغريق والرومان.

وكانت الإمبراطورية البيزنطية تحتفظ بأحواض لبناء السفن في الإسكندرية والقلزم (السويس) ويبدو من البرديات أن المسلمين قد استفادوا من هاتين الترسانتين وبدأوا في بناء أسطولهم بمساعدة صناع السفن من اليونانيين والأقباط[٤] ثم بنوا دور الصناعة الخاصة بهم التي أمدت أساطيلهم بأفضل السفن الحربية وأكثروا من أنواعها بحسب الحاجة إليها والمكان الذي تبحر فيه وملأوا البحار (بالجواري المنشآت) ووضعوا لها الأسماء بحسب اختلاف أشكالها وتباين أجرامها وحجومها، فمنها ما صنعوه على أشكال بعض الطيور كالعقاب ومنها ماصنعوه على أشكال بعض الأسماك والحيتان والحيات والحيوانات والأسد[**] والفيل والفرس والدلفين[٥] وكلها وردت في قصائد الشعراء.[*]

وكانت مراكب الأساطيل العربية على أنواع عدة نذكر منها[٦]

السفينة: (جمعها سفائن وسفن وسفين) وهي الجارية من المراكب الكبيرة (من سفن الشيء أي قشرة) وقد سميت كذلك لقشرها وجه الماء وقد وردت في القرآن الكريم (**فأنجيناه**

---

(٤) فهمي ص ١٣٠

(٥) الحموي ص ٢٩

★★ ذكر أبو الفداء المؤيد أن الأمين عمل خمس حراقات في دجلة على صورة أسد وفيل وعقاب وحية وفرس،

فقال أبو نواس يصف هذه السفن

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب

فإذا ماركابه سرن براً سار في الماء راكباً ليث غاب

عجب الناس إذا رأوك عليه كيف لو أبصروك فوق العقاب

ذات سور ومنسر وجناحين تشق العباب بمد العباب

(٦) المراجع الخاصة بأنواع السفن (فهمي، الحموي، عبادي وسالم، خانكي)

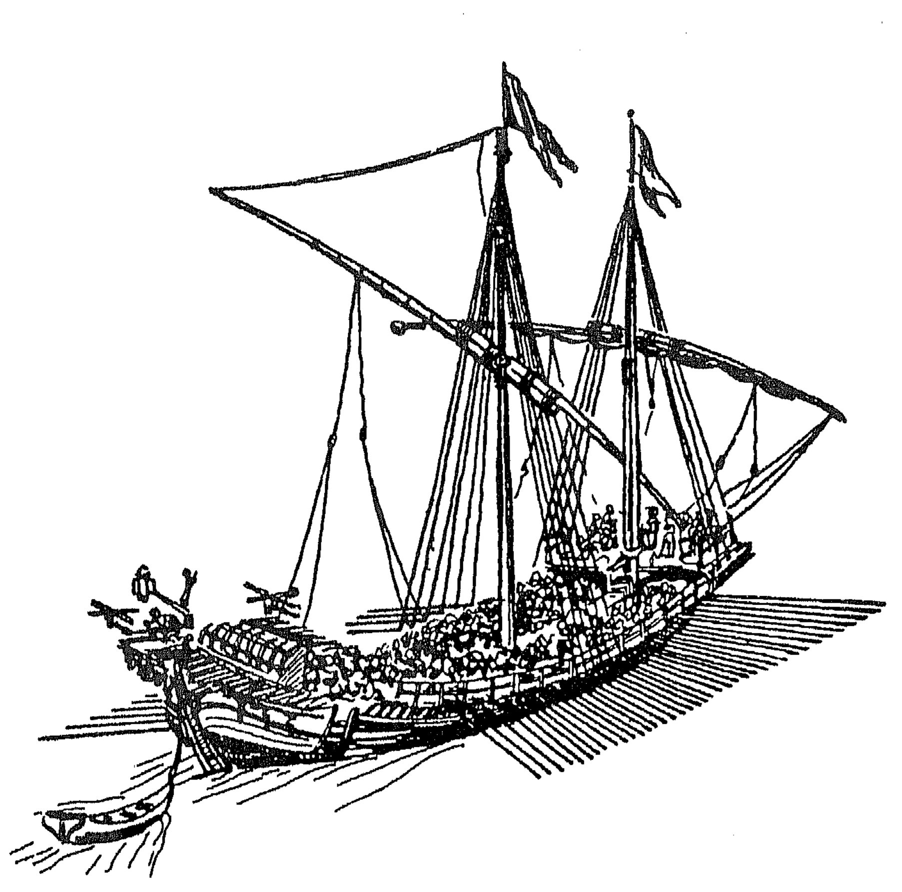
★ عجب الناس اذ رأوك على صورة ليث تمر مر السحاب

سبحوا إذ رأوك سرت عليه كيف لو أبصروك فوق العقاب، (الشاعر أبو نواس في مدح الخليفة)

★ قد ركب الدلفين بدر الدجى مقتحما في الماء قد لججا

خص به الله (الأمين) الذي أضحى بتاج الملك قد توجا

(الشاعر أبو نواس في مدح الخليفة).



- شانيـــة من شواني العـــرب

وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين الآية ١٥ . (العنكبوت)

ـ الفلك (Felouque) : وهي السفينة .

ـ **القراق أو القرقور (Caraque)** : جمعها قراقير وهي من السفن الكبيرة التي كانت تستعمل في تموين الأسطول بالزاد والمتاع والذخيرة ومنها ماكان بثلاثة ظهور وبثلاثة قلاع لاتخشى معها الرياح العاصفة .

ـ الشيني أو الشونه (Galere) : جمعها شواني وهو مركب حربي كبير ذو أبراج وقلاع يستعمل للدفاع والهجوم ويجهز في أيام الحرب بالسلاح والنفطية ويحشد بالمقاتلة والجنود البحرية ، وكان من أهم قطع الأسطول الإسلامي ، متوسط ما يحمله ١٥٠ رجلاً ويجدف بمئة مجداف وقد ظل اسم الشيني متداولاً في الملاحة حتى أيام الدولة العثمانية[٧]

ـ العدولية : وهي سفينة مسوبة إلى قرية في البحرين يقال لها عدولي أو إلى قبيلة من قبائل العرب تحمل هذا الأسم .

ـ الخلية (Galasse) جمعها خلايا وهي السفينة الشراعية الكبيرة التي تسير من غير أن يسيرها الملاح أو التي يتبعها زورق صغير.

ـ الزورق أو البوصي : (Ganat) سفينة صغيرة مع أصحاب السفن البحرية تستخف لحوائجهم فهي من توابع الأسطول .

ـ الطريدة : (Tartan) : مركب حربي كبير الحجم كان يستخدم لنقل الخيل والفرسان ويتسع لزهاء ٦٥ حصاناً وكان مفتوح المواخير بأبواب خاصة تسمح بدخول الخيل وخروجها . وقد أخذ الإفرنج عن العرب هذه التسمية فعرفت بالإسبانية باسم (Tarida) وبالإيطالية باسم (Tartana) وعرفت في بعض المصادر العربية بـ (الطراد) .

ـ الحراقة (Brulat) : جمعها حراقات وحراريق وهي سفينة حربية كان بها مرام تلقى

---

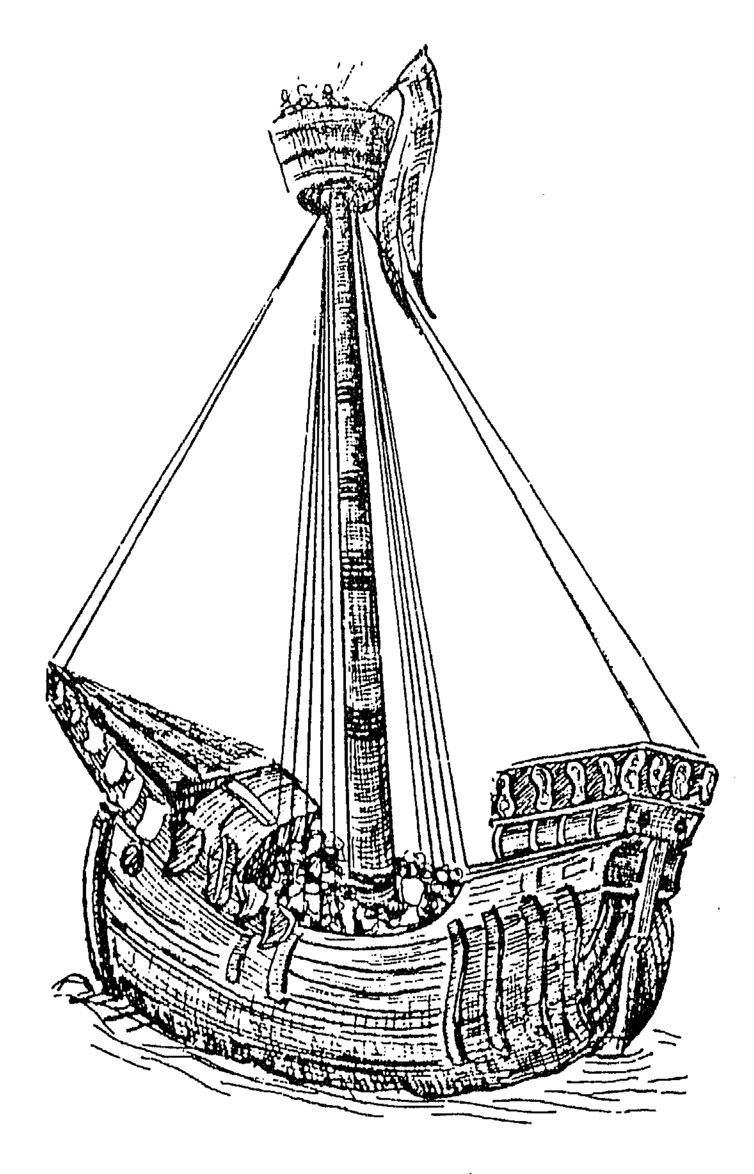
(٧) وصف ابن حمديس الصقلي الشواني الحربية وأبراجها التي يقذف النفاطون منها النفط فقال مخاطباً الأمير الحسن بن علي من أمراء بني زيري في المغرب الأدنى :

أنشأت شواني طائرة وبنيت على ماءٍ مُدُنا

ترمي ببروجٍ إن ظهرت لعدوٍ مُخْرِقَةً بطنا

وبنفط أبيضَ تحسبه ماء وبه تذكى السكنا

ديوان ابن حمديس · تصحيح وتقديم الدكتور إحسان عباس



– حراقة من حراريق العرب

منها النيران على العدو كما كانت تستعمل في حمل الأسلحة النارية كالنار الإغريقية (Feu gregeais) .

ـ الشلندي أو الصندل : (chaland) : جمعها شلنديات وهو مركب حربي كبير مسطح كان مخصصاً لنقل المقاتلة والأسلحة ويسمى باللاتينية (Chelandium)

ـ الماعونة (Mahonne) : نوع من الشلنديات كان يستعمله الفرنج في نقل البضائع وله ساريتان أو ثلاث صوارٍ ويبلغ طولها ١٩٥ قدماً وعرضها ٣٣ قدماً ، وكانوا يجهزونها بأربعة وعشرين مدفعاً وحمولتها ٦٠٠ شخص وقد عرفت عند البنادقة باسم (Maona) وسماها الطليان (Mahuna)

ـ العشيري أو العشاريات : وهو نوع من المراكب التي تسير في النيل (الأنهار) ويبحر بعشرين مجدافاً ويتبع الأسطول.

ـ الجلاسة أو الفياسة (Guléasse) : نوع من السفن الكبيرة تسير بالشراع وبالمجاديف وهي أثقل وأقوى من الشيني وكانت شائعة في البحر الأبيض المتوسط لغاية القرن الثاني عشر.

ـ الغراب أو القدرعة (Corbeau : جمعها أغربة وغربان . وهو نوع من المراكب أخذه العرب من القرطاجنيين والرومان وقد سمي بهذا الاسم لأن مقدمه كان يشبه رأس الغراب أو الطائر ويمثل في الماء الطير في الهواء ، وكان يحمل الغزاة ويسير بالقلع كما يسير بعدد من المجاديف لايتجاوز ١٨٠ مجدافاً ومن خصائصه أنه كان مزوداً بجسر من الخشب يهبط على مركب العدو ويمر على ظهره الجند فيقاتلون بالأساليب البرية ، ويقال للغربان أيضاً شواني وعني شعراء المشرق والمغرب الأسلاميين بتشبيه السفن بأنواع الطير ومنها الغربان ، وقد استخدمت أيضاً في الاستطلاع وتغنى بها الشعراء(*)

★ قال ابن الساعاتي:

وركبت بحر الروم وهو كحلبة والموج تحسبه جواداً يركض

كم من غراب للقطيعة أسود فيه يطير به جناح أبيض(٨)

وقال ابن أبي حجلة من أبيات يخاطب فيها السلطان أبا عنان المريني:

فلله ما أنشأت من مراكب ترادفها في البحر منه تكاوس

قطائعها مثل النجوم قلوعها وغربانها قطع من الليل دامس

كأن مجاديف الغراب قوادم يطير بها والنسر في الأفق كانس(٩)

ـ البطسة (Naveou Nef) . جمعها بطس : وهي ضرب من مراكب البحر الكبيرة عديدة القلوع وقد يصل عدد القلوع في الواحد منها إلى أربعين قلعاً ، واشتهرت في الحروب الصليبية وكانت تستعمل . في نقل المنجانيق والمقاتلة والسلاح والذخيرة وسائر آلات الحرب والحصار ، ويعد محمولها بمئات الرجال ولها أسطحة عالية وطبقات ، كل طبقة منها خاصة بفئة من الجيش.

ـ المسطح : (Mistic àu Mistiquek) جمعها مسطحات وهو نوع من السفن الكبيرة الحجم يشبه البطسة وكانوا يجرونها في البحار وقت الحرب خلف المراكب الكبيرة خشية أن تغرق هذه في واديها.

المرمّة (جمعها مرمّات) وهي نوع من السفن الكبار.

الشُّباك أو الشَّباك (chebec) : مركب حربي صغير الحجم استخدم في البحر الأبيض المتوسط.

ـ الحمالة : (Transport) جمعها حمالات وهي نوع من المراكب كان مخصصاً لنقل المؤونة والزاد لرجال الأسطول.

ـ البارجة (Barge) : نوع من المراكب أسفلها مستو مسطح أول ماأنشأه الهولنديون واستخدم في الأعمال الحربية ، وبكل سفينة ثلاثة نفاطين ونجار وخباز وتسعة وثلاثون رجلاً من الجدافين والمقاتلة وكان في كل سفينة ما مجموعه ٤٥ رجلاً.

ـ الشذاوة أو الشذاة (جمعها الشذوات أو الشذا) وهو ضرب من السفن كانت تستعمل في الحروب في عهد الدولة العباسية لنقل آلات الحرب والسلاح والمقاتلة والملاحين والرماة وكان بها حوالي أربعين مجدافاً.

ـ الشُميرية أو الشيارة (جمعها شميريات أو شيارات): وهو نوع من السفن عرف في

وقال:

عربانها سود وبيض قلوعها يصفر منها العدو الأزرق[10]

وقال شاعر آخر

أسطول غربان وأفروطة قد هيئا للحرب ثم القتال[11]

(٨) ابن منكلي: الأحكام الملوكية ، لوحه ٤٦ وقد ورد نفس البيتين في الحموي تاريخ الأسطول العربي ص ٣٩

(٩) د. العبادي دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧

(١٠) الخفاجي: شفاء الغليل ص ١٤٢، الحموي تاريخ الأسطول العربي ص ٣٩

(١١) النخيلي : السفن الإسلامية على حروف المعجم ص ١٠٦

أواخر القرن الثالث للهجرة وكان في كل شميرية مقاتلان ومع ملاحيها السيوف والرماح والتراس ولما انقطعت الحروب البحرية في أواخر الدولة العباسية صاروا يستعملونها في التجارة والأسفار.

ـ الغليون : برز هذا النوع كمركب حربي في الفترة من أواخر القرن الخامس عشر إلى أوائل القرن السابع عشر، وكان يشكل إحدى قطع الأساطيل العثمانية والأوروبية في البحر المتوسط ثم دخل تشكيلة الأسطول المصري الحربي وشاركت في حرب القرم في عهد عباس وكان كل غليون منها مزوداً بمئة مدفع ويحتوي على ١٠٤٠ مقاتلاً[١٢] وهو في الأساس ليس مركباً إسلامياً أو عربياً وإنما أدخل في عداد الأساطيل العربية الإسلامية فيما بعد.

ـ الفرقاطه: نوع من السفن الحربية الخفيفة المتوسطة الحجم استعملها الأوروبيون والعثمانيون في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود منذ أوائل القرن السابع عشر وعرفت مصر هذا[١٣] النوع من السفن الحربية منذ أوائل القرن التاسع عشر وأدخلته ضمن قطع أسطولها أي أنه في الأساس ليس عربياً إسلامياً لكنه أدخل في عداد الأساطيل العربية الإسلامية فيما بعد .

ـ العكيرى: نوع من المراكب وأصله من الهند وكان يشبه الغراب ولكنه أوسع ، ويسع ٦٠ مجدافاً ويسقف وقت القتال حتى لاينال الجدافين شيء من السهام والحجارة.

ـ الجفن (جمعها أجفان) : نوع من السفن الحربية كان يستعمله العرب في بحار الهند

ـ السمبوك أو الصمبوك (Sam bouk) سفينة صغيرة من ملحقات الأسطول كانت تسير في البحار والأنهار.

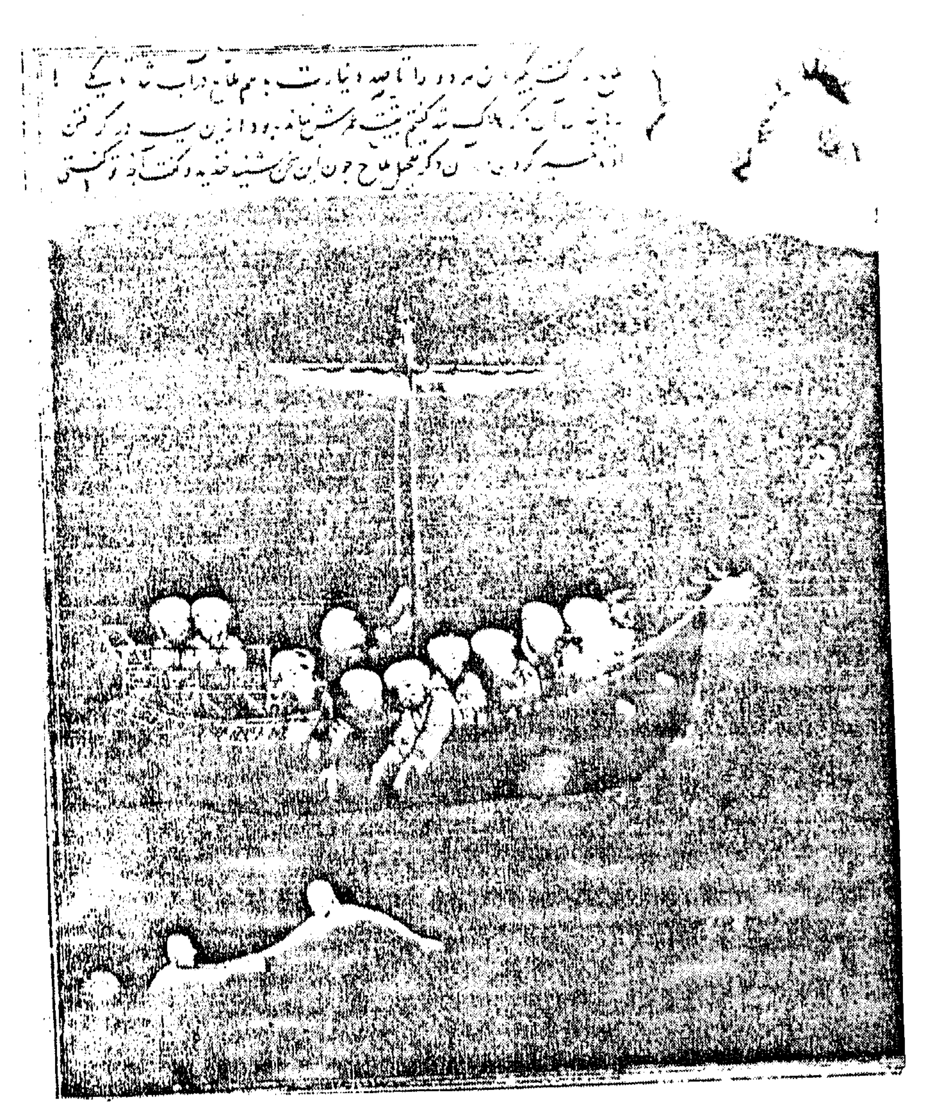
ـ الشيطي : نوع من المراكب يسير بـ ٨٠ مجدافاً ووظيفته كشف العدو وإبلاغ خبره للقراقير والغربان وغيرها من السفن (سفينة الإستطلاع).

ـ المعبر : نوع من السفن الصغيرة تعبر على ظهرها العساكر من شاطيء إلى شاطيء

---

(١٢)د. النخيلي : ص ١١٣ ـ ١١٤

(١٣) المرجع السابق ص ١١٥



سفينة إسلامية

أو من مكان إلى مكان وكانت تستعمل في نقل الذخيرة والأسلحة . (أي سفينة نقل وإنزال).

وهنالك أسماء مراكب أخرى كثيرة عرف منها في المغرب في عصر الأغالبة وعرفها الفاطميون بحكم نشأة دولتهم في المغرب وبحكم انتقال تراث البحرية الأغلبية اليهم . ومن هذه المراكب النواشي والفتاش وهنالك أسماء مراكب معروفة في مصرالأيوبية مثل الأعذارى وهو مركب صغير يحمل الأزوار والركوش (لنقل مياه الشرب)[14]

هذا وقد أورد المقدسي أسماء العديد من السفن (٣٦ نوعا) نذكر منها ما ذكر عن استخدامه في القتال:

- جاسوس : إن المعنى الحرفي لهذه الكلمة يوحي بأن السفينة كانت تستخدم للإستكشاف أو الخدمة السرية[15](استطلاع وتجسس).

- شذا : وهي مركب صغير ، ويمكن أن يكون مركباً حربياً .

- ولجيه: ربما يكون المصطلح مشتقا من (ولجة) وجمعها أولاج أي ولج الشاطيء أو مكان الرسو وفي هذه الحال فانها قد تعني سفينة إنزال على الساحل.

- زيزب : جمعها زيازب وهي من المراكب التي يمكن للرجال أن يقاتلوا على ظهرها .

هذا ومن الجدير بالذكر بأن نماذج السفن التي استخدمت في البحر الأبيض المتوسط كانت تربط سوياً بالمسامير ، أما في المحيط الهندي فتخاط مع بعضها البعض وكان هذا الاختلاف وليد التقاليد المتبعة ، وإن كان ينسب عدم استخدام المسامير إلى القول بأن الماء الملح يأكل المسامير. وكانت سفن البحر المتوسط أكبر من سفن البحر الأحمر والمحيط الهندي[16]

---

(١٤) عبادي وسالم ص ١٣٧

(١٥) فهمي ص ١٦٩

(١٦) المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص ٣٦٥

الفصل الخامس عشر

تنظيم الأساطيل العربية الإسلامية

أطلق العرب على مجموع السفن كلمة «الأسطول» وهو لفظ يوناني (STOLOS) عربوه واستخدموه بمعنى مجموعة سفن الحرب التي تعمل سوياً[*] ومع نهاية القرن الهجري الأول (بداية القرن الثامن الميلادي) كانت الإدارة البحرية للخلافة قد نظمت تنظيماً جيداً ، فقد تم تقسيم القوة البحرية إلى أساطيل ذات قيادة مستقلة[1] ويكشف ابن خلدون هذه الحقيقة : « وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته واستحدثوا بصراء بها فشرهوا إلى الجهاد فيه وأنشأوا السفن فيه والشواني وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر واختصوا لذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وأفريقيا والمغرب والأندلس[2]

أ ـ توزيع الأساطيل:

انقسم الأسطول العربي الإسلامي في العصر الأموي (٤١ ـ ١٣٢هـ ، ٦٦١ ـ

★ كان الأسطول يطلق على المراكب الحربية مجتمعة كما في قصيدة البحتري الرائية «يسوق أسطولاً كأن سفينه سحائب صيف في جهام وممطر.» كما يطلق لفظ أسطول على مجموعة السفن أيء كان نوعها (انظر سعاد ماهر ص ٢٧٢). وأحياناً يطلق الأسطول على سفينة حربية واحدة كما قال صاحب شفاء العليل «والأسطول مركب تهيأ للقتال ونحوه» ويورده ابن خلدون في تاريخه بهذ المعنى فيقول : «وصلة من مرية بعشرة أساطيل» «وجهز له مئة وثمانين أسطولاً» ولكـل أسـطول قائد ورئيس يقال له أمير البحر أو والي البحر أو أمير الماء وقد انتقل الإصطلاح الأخير إلى اللغات الأفرنجية وعرف عندهم بـ Admiral أو (Amiral) وقد وردت في المراجع العربية تعابير كثيرة كلها تعني الأسطول (أفروطة غربان ، أرماده ، عماره ، تعميرة ، عمائر، دوننها، دوننمه)انظر النخيلي ص ٤، ١٩، ٥٣، ١٠٥، ١٠٦
(٥) فهمي ص ٩٨

(١) فهمي ص ١٦

(٢) مقدمة ابن خلدون دار العلم (الطبعة الخامسة: ١٩٨٤ ص ٢٥٣ ، ٢٥٤)

٧٥٠م) الى خمسة أساطيل (بحسب مواقع التمركز).

- أسطول الشام ورئاسته في اللاذقية .
- أسطول أفريقيا ورئاسته في تونس.
- أسطول مصر وكانت الإسكندرية نقطة إبحاره.
- أسطول النيل ورئاسته في بابليون.
- أسطول خاص لحراسة مداخل النيل من نزول الروم على السواحل[٣] بينما انقسمت

البحرية الإسلامية بحسب البحار إلى:

- أسطول البحر الأبيض المتوسط
- أسطول المحيط الهندي[٤]

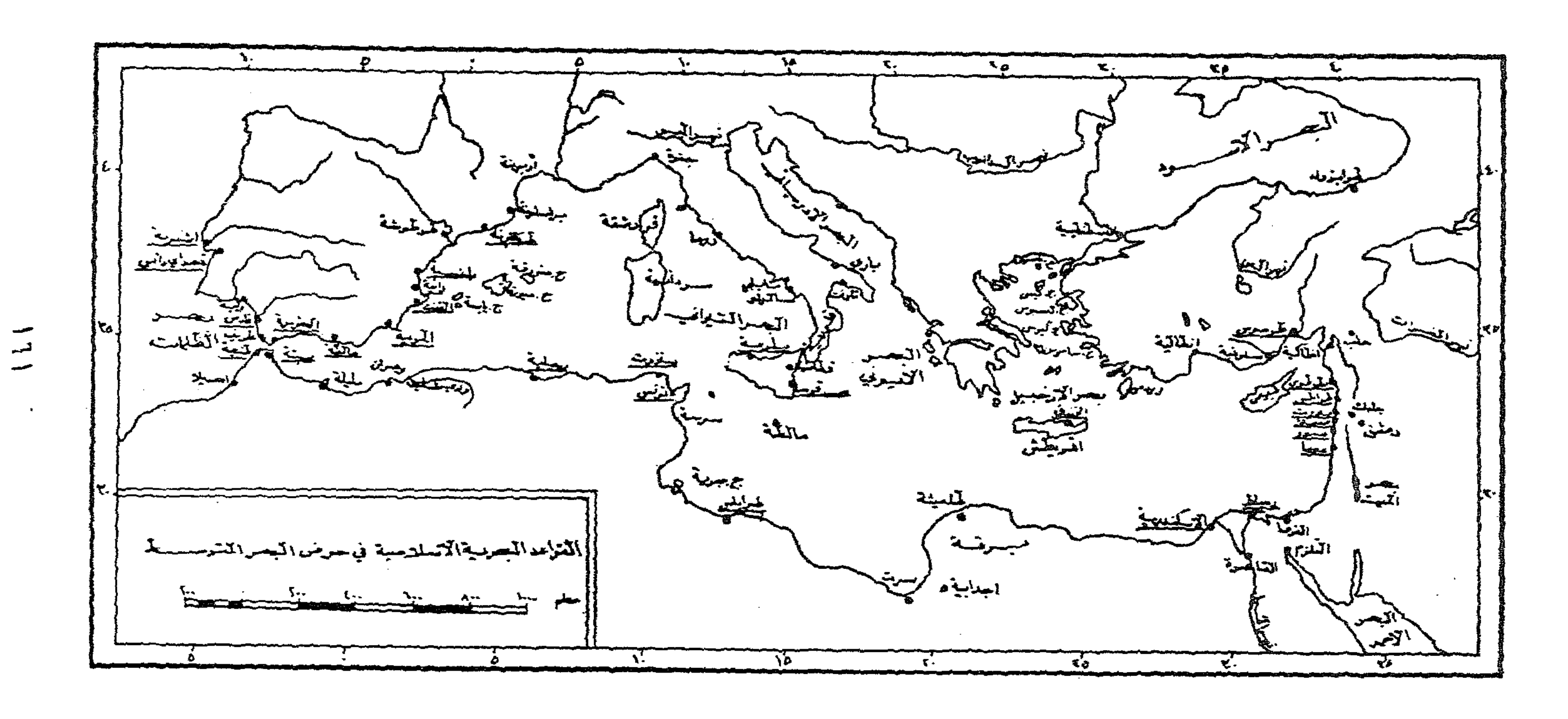
ويشير الدكتور علي محمود فهمي في كتابه الموضوع باللغة الانكليزية (ترجمه إلى العربية الدكتور قاسم عبده قاسم) إلى الوثائق القديمة التي تتحدث عن هذه التنظيمات: « وتتضمن التقارير - البرديات - رقم ١٤٣٣ - ورقم ١٤٣٤ ورقم ١٤٤٩ إشارات إلى الأساطيل المصرية الغازية التي ارتبطت بالترسانتين الكبيرتين في بابليون والقلزم (السويس) . ويرد ذكر الأسطول الغازي في البحر في فقرة من التقرير ٤٣٣ (البردي) . . . . والأسطول الغازي الثالث هو أسطول الشرق الذي يرد ذكره أيضاً في البرديات وخاصة في التقرير ١٣٧٤ وتاريخه ٩٢ هـ ٧١١ م من قرة إلى رئيس القرية عن أمور البحارة السبعة الذين تم ارسالهم إلى الشرق للخدمة على سفن الأكاناريا في غزو الفترة الثامنة ٩١هـ / ٧٠٩م وبقوا هناك. والإشارة هنا إلى ولاية بهذا الإسم (الشرق) على ما يبدو وربما تكون هي بلاد الشام أو المناطق القريبة من الساحل والتي كانت تدخل في نطاق ولاية الشرق القديمة وتكشف البرديات عن أن لا وداكيا (اللاذقية) كانت أحد المراكز الهامة في الولاية . أما الأسطول الرابع أي أسطول أفريقيا فقدكان مركز قيادته في برقة وتونس وإلى جانب الأساطيل الغازية كانت هناك فرقة بحرية مسؤولة عن حراسة مصبي النيل في دمياط ورشيد . وهو إجراء احتياطي فرضته الهجمة البيزنطية على الإسكندرية بعد الفتح الإسلامي[٥]».

وكانت الأساطيل العربية الأموية تقابل الأساطيل البيزنطية فأسطول الشام يقابل أسطول كبير هايوت[*](أي كبير هيوتس) (cibyrrhaets) في آسيا الصغرى، وأسطول شمال

---

(٣) د. خربوطلي ص ٢٧

(٤) د. خربوطلي ص ٢٧


القواعد البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط
البحر الأسود
البحر الأدرياتي
البحر التيراني
البحر الأيوني
بحر الأرخبيل
البحر الأحمر
الإسكندرية
برقة
اجدابية
سرت
مالطة
القاهرة
دمشق
أنطاكية
حلب
طرابزونة
سردانية
قرشقة
الأقريطش

أفريقيا العربي يقابل أسطول صقلية ، وأسطول مصر يقابل الأسطول الإمبراطوري في القسطنطينية(٦)

وانعقد لواء كل واحد من هذه الأساطيل لأمير من أمراء البحار وكان أسطول مصر من بين هذه الأساطيل الثلاثة أكثر أهمية وأضخم عدداً . وكان من الواضح أنه في الحملات المشتركة (مثل التي حدثت في ليديا عام ٦٥٥ م وعلى مقربة من قبرص عام ٧٤٧م) كان أمير البحرية المصرية هو القائد العام للجميع ،
وغالباً ما اشترك الأسطولان الشامي والمصري في عمليات واحدة على حين استقل أسطول شمال أفريقيا بعملياته عنهما . وشاهد الحصار الثاني للقسطنطينية الأساطيل العربية مجتمعة(٧) (سبق ذكره) .

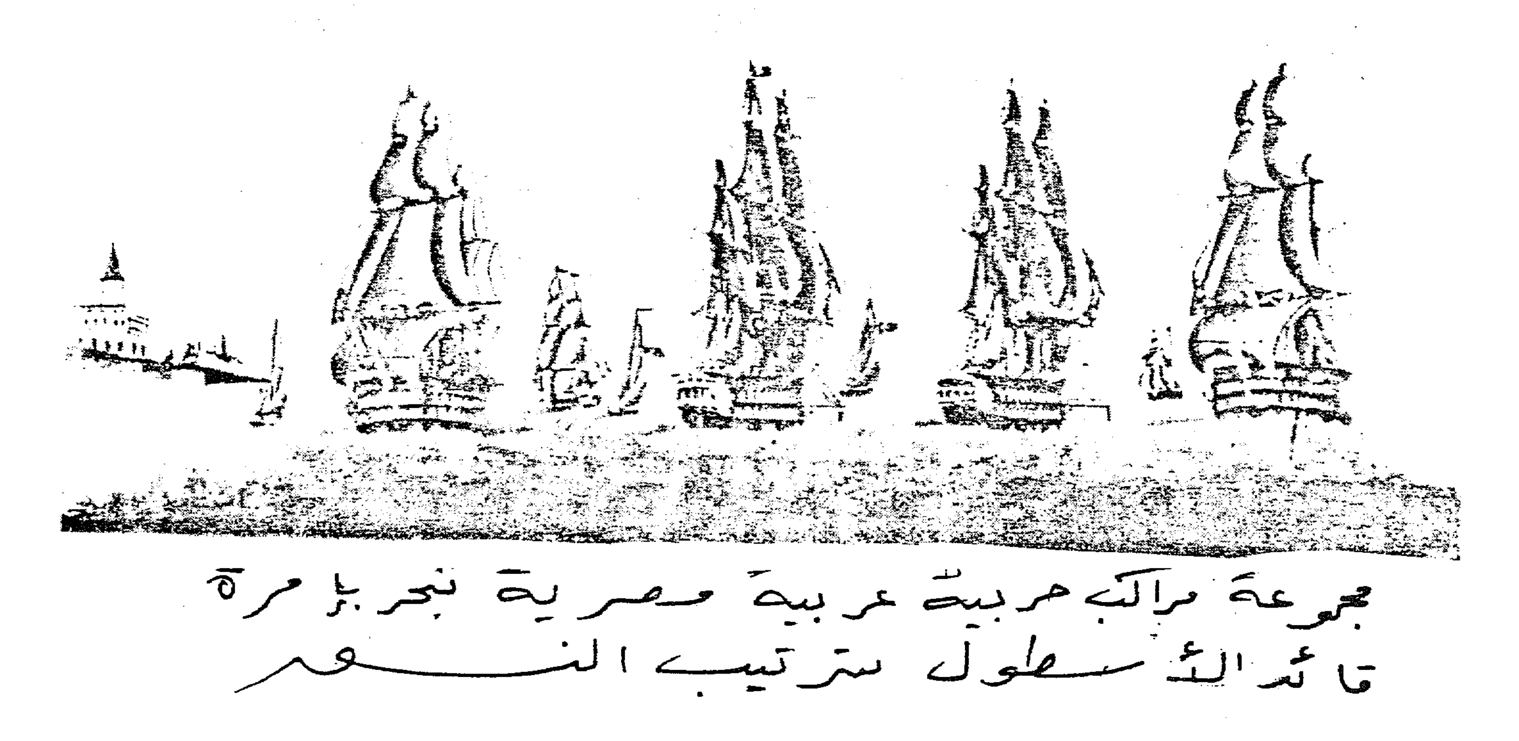
وفي عهد الفاطميين كان للدولة ثلاثة أساطيل هي :
- أسطول مصر الهجومي وتتبعه الصناعة في القلزم وفي الروضة .
- أسطول الشام وتتبعه دور الصناعة في اللاذقية وعكا وصور .
- أسطول أفريقيا وتتبعه برقة . (٨)

ب ـ قيادة الأساطيل

ذكر ابن خلدون « إن قيادة الأساطيل هي من مراتب الدولة وخططها في ملك المغرب وأفريقيا ومرؤوسه لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الأحوال ويسمى صاحبها في عرفهم البلمند(٩) » .

وجاء في مكان من بند قيادة الأساطيل : « . . . وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك من كل بلد تتخذ فيه السفن أسطول يرجع نظره إلى قائد من النواتية يدير أمر حربه وسلاحه ومقاتلته ورئيس يدبر أمر جريته(*) بالريح أو بالمجاذيف وأمر إرسائه في مرفته ، فإذا

(٦) خربوطلي ص ٢٨
★ يقصد ابحاره بالشراع .
(٧) د. خربوطلي ص ٢٩
(٨) د. أنور عبد العليم ص ١٠٤
(٩) المقدمة ص ٢٥٣ (كلمة بلمند مأخوذة عن الاسبانية (Almirante) الميلاند أو الملند : فهمي ص ١٥١



مجموعة مراكب حربية عربية مصرية تبحر بإمرة
قائد الأسطول بترتيب النسر

اجتمعت الأساطيل لغزو محتمل أو عرض سلطاني مهم عسكرت بمرفئها المعلوم(**)وشحنها السلطان برجاله وأنجاد عساكره ومواليه وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم إليه[١٠]».

وهكذا نجد أن ابن خلدون في هذا الفصل (قيادة الأساطيل) قد عدد مراتب البحارة ابتداء من قائد الأسطول ومهام كل منهم، أما القائد العام فهو الذي يصدر الأوامر ويتحمل المسؤولية ويطلق عليه اسم وزير البحر أو مقدم الأسطول.

وفي المشرق اشتهرت وظيفة أمير البحر (أو أمراء البحار). وكانت تكاليف الحملات البحرية باهظة جداً، ويذكر ابن خرداذبة أن تكاليف حملة بحرية واحدة (في القرن الثالث الهجري) كانت تبلغ مئة ألف دينار، ولهذا السبب كانت تفرض ضرائب ومكوس إضافية لصيانة الأسطول وتجديده[١١].

وإلى جانب قائد الأسطول ونائبه كان هناك رؤساء للنواتية يقال لهم الأعيان أو القواد، ولكل عشرة قواد قائد يتميز منهم يسمى رئيس الأسطول وبه كان يقتدي سائر القواد فيقلعون بإقلاعه ويرسون بارسائه أما القائد العام أو مقدم الأسطول فكان يختار من أعيان أمراء الدولة وأقواهم جأشاً وكان يعرف بزمام الأسطول[١٢]وكان هناك عدد من العرفاء يقال لهم النقباء وعددهم عشرون تقتصر مهمتهم على استدعاء الغزاة من دورهم[١٣](وقت الاستنفار أو الطوارئ). وكان الخليفة عندما يتولى توزيع النفقة قبيل تحرك الأسطول للغزو ويمنح مقدم الأسطول مئة دينار ورئيس الأسطول عشرين ديناراً[١٤]

هذا وقد سارت الأساطيل العربية الإسلامية مسيرتها المظفرة بفضل القيادة الماهرة التي تولاها عدد من خيرة أمراء العرب تفانوا في أداء الواجب وبذل حياتهم رخيصة في سبيل الحصول على النصر، وفي طليعة أولئك القادة من أمراء البحر العرب جنادة بن أمية الأزدي وبسر بن أبي أرطأة وعبد الله بن قيس الحارثي من بني فزارة الذي اشتهر بكثرة غزواته

---

(١٠) المقدمة ٢٥٤ (بند قيادة الأساطيل).

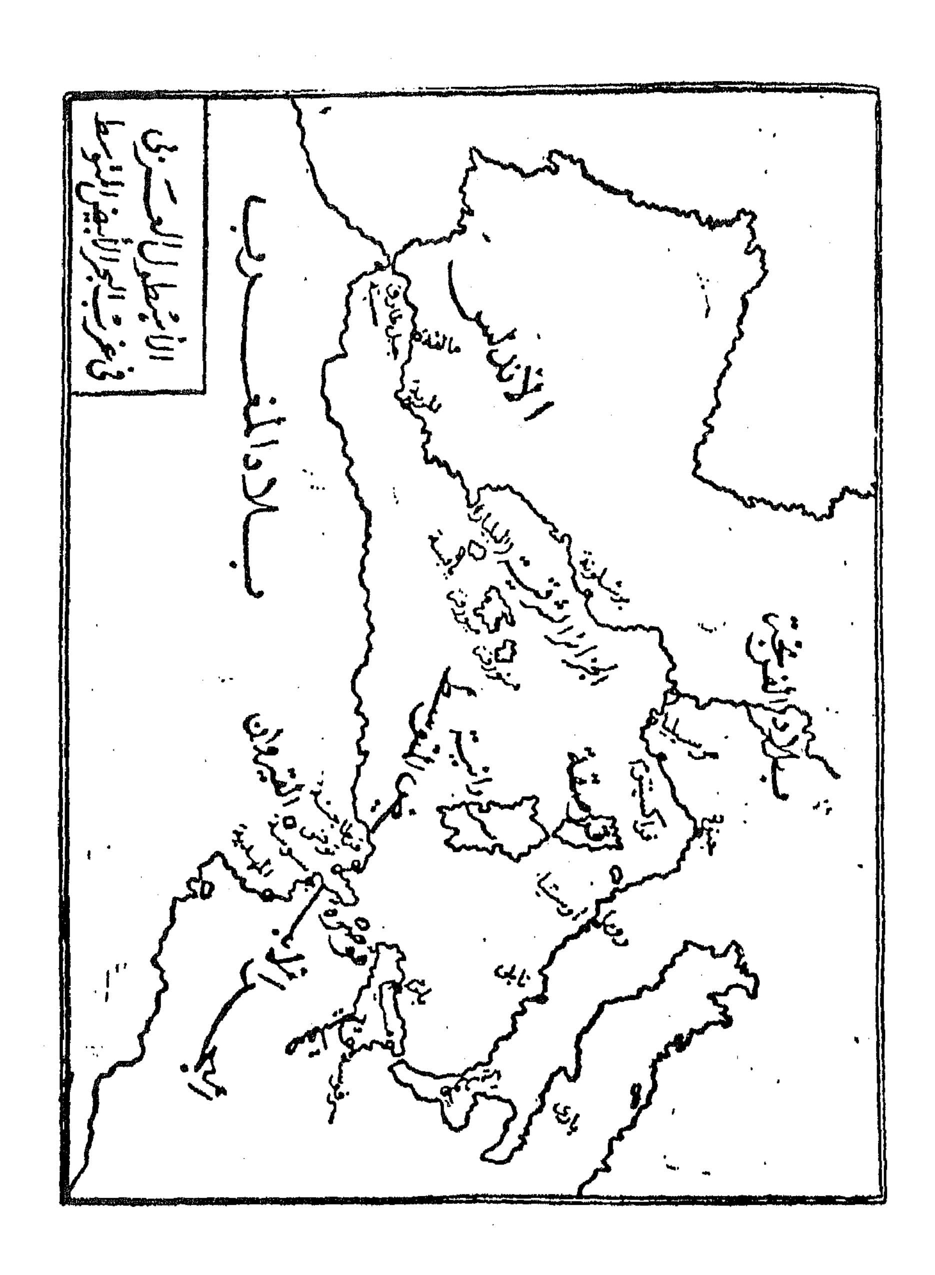
★★ وهو ما يعرف حاليا بالإنتشار العملياتي.

(١١) أنور عبد العليم ص ١٠٤

(١٢)القلقشندي صبح الأعشى ج ٣ ص ٥١٩

(١٣) عبد العليم ص ١٠٤، المقريزي الخطط ج ٣ ص ١٩

(١٤) عبادي وسالم ص ١٢٩


الأسطول العربي
في غرب البحر الأبيض المتوسط
بلاد المغرب
الأندلس
بلاد الفرنجة
البحر الأبيض المتوسط
الجزائر الشرقية (البليار)
برشلونة
فراكسينتوم
جنوة
قرسقة
سردانية
رومة
أوستيا
نابلي
باري
صقلية
قوصرة
القيروان
جبل طارق
سوسة
المهدية
ميورقة
منورقة
يابسة
بلرم

البحرية على بلاد الروم وجزرهم حتى بلغت خمسين غزوة بحرية صيفاً وشتاء[١٥]. ونتيجة للحملات المتكررة التي قام بها الأسطول العربي الإسلامي أخذت تتحدد اختصاصات أمراء البحار وواجباتهم والمهام الملقاة على عاتقهم . وكان أمير البحر الذي يتولى رئاسة السفن الحربية جميعها هو المسؤول عن إدارة المعركة وسلامة جنده . واهتمت السلطات العربية بإجابة مطالب أمراء البحار التابعين لها وإعطائهم مطلق الحرية في إعداد حملاتهم بسبب خطورة حرب البحار . وبلغ عدد قادة الأسطول العربي في العهد الفاطمي عدداً كبيراً واشتهروا بمقدرتهم الفائقة وخبرتهم الواسعة في ميدان البحار[١٦]

وأفضل وثيقة في التاريخ العربي الإسلامي تحدد واجبات قائد الأسطول (أمير البحر أو مقدم الأسطول) والقوات البحرية . هي تلك االتي صدرت في القرن الرابع الهجري) (العاشر الميلادي) وتضمنتها التعليمات الرسمية التي أصدرها الخليفة العباسي (زمن قدامه ابن جعفر) في كتاب الخراج ـ (سبق ذكره).

ج ـ الديوان (وهو ما يعرف اليوم بالأركان):

أسس الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ديواناً للجند وفرض لهم أعطياتهم لكنه لم ينصرف إلى الناحية البحرية فظلت هذه الثلمة في الجندية العربية مفتوحة حتى أيام بني مروان ، ففي عهدهم اتسع ديوان الجند وصار يقيد فيه أسماء الجنود الذين استوفوا شروط قبولهم في الجندية[١٧]« ويرى بعض الكتاب أن ديوان الجند في زمن الأمويين قد اتسع لرجال البحرية والأسطول».

وقد اهتم الفاطميون اهتماما خاصا بالأسطول بحكم اضطرارهم إلى غزو الأراضي البيزنطية ومقاتلة سفن الروم في البحر بالإضافة إلى رغبتهم في تيسير الاتصال البحري بين سواحل مصر والشام من جهة والمغرب وصقلية من جهة أخرى. فخصصوا للأسطول ديواناً

---

(١٥) عدوي ص ١٥٦

(١٦) عدوي ص ١٥٨

(١٧) الحموي ص ٨٤

عرف باسم «ديوان الجهاد أو ديوان العمائر»(*)

وكان مقره دار صناعة الإنشاء بمصر[18]» ويختص هذا الديوان بانشاء مراكب الأسطول وحمل الغلال السلطانية والأحطاب وغيرها والنفقة على رؤساء المراكب ورجالها[19]وفي هذا الديوان يرسم خدمة ما يجري في الأساطيل ناثبان من قبل مقدم الأسطول. وفيه من الحواصل لعمارة المراكب شيء كثير وإذا لم يف ارتفاقه بما يحتاج إليه استدعى له من بيت المال ما يسد خلله ، وكان من أهم أمورهم احتفالهم بالأساطيل والأجناد ومواصلة إنشاء المراكب[20]» و « وكانت جريدة قواد الأساطيل أكثر من خمسة آلاف مدونة . منهم عشرة أعيان . . . . ويعين من هؤلاء القواد العشرة من يقع اجماع عليه لرياسة الأسطول المتوجه للغزو، فيكون معه الفانوس وكلهم يهتدون به، ويقلعون بإقلاعه ويرسون بإرسائه ويقدم على الأسطول أمير كبير من أعيان الأمراء وأقواهم جناناً ويتولى النفقة فيهم للغزو الخليفة بنفسه بحضور الوزير[21]

وقد تجدد هذا الديوان في وزارة رضوان بن ولخشي سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م ومن المعروف أن هذا الوزير وجه اهتماماً خاصاً لتقوية الثغور وتحصينها وهو الذي حصن عسقلان وزودها بالعدد والآلات[22]

ـ ولما قامت الدولة الأيوبية (٥٦٤ ـ ٦٤٨هـ / ١١٦٩ ـ ١٢٥٠م) على أنقاض الدولة الفاطمية كانت البحرية العربية في مصر والشام قد ضعفت تماماً بعد أن استولى الصليبيون على عسقلان وصور وعكا وغيرها من القواعد البحرية في الشام وامتدت غاراتهم إلى المدن الساحلية المصرية كالإسكندرية ورشيد ودمياط ، ولذا اهتم الملك صلاح الدين الأيوبي (١١٣٧ ـ ١١٩٣م) منذ بداية حكمه بالعمل على إحياء البحرية العربية كسلاح مضاد للعدوان الصليبيوكان منأهم منجزاته في هذا المجال هو أنه أفرد للبحرية ديواناً خاصاً عرف باسم «ديوان الأسطول» وولى عليه في سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦ م صديقاً من أصدقائه لم يرد ذكره في المراجع وكتب صلاح الدين إلى جميع ولاة الأعمال المصرية والشامية يأمرهم بتنفيذ طلباته كلما وصلت إليهم من حيث جمع الرجال للخدمة في الأسطول : (والقول قول

---

(١٨) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٢

(١٩) عبادي وسالم ص ١٧

★ العمائر : السفن

(٢٠) المقريزي : المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار ج ١ ص ٤٨٣

(٢١) نفسه

(٢٢) عبادي وسالم ص ٨٨

صاحب الأسطول وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه)[٢٣].

وفي سنة ٥٧٨ هـ / ١١٩١ م عين صلاح الدين أخاه العادل رئيساً عاماً لديوان الأسطول (أي رئيساً للأركان)(*) ثم عين العادل بدوره صفي الدين بن شاكر نائباً له في ذلك الديوان[٢٤].

ولقد تولى ديوان الأسطول الإنفاق على دور الصناعات المختلفة وأمدها بكل ما تحتاج اليه من أخشاب وآلات ، وقد خصص صلاح الدين الأيوبي لديوان الأسطول أموالاً ضخمة من متحصلات الأقاليم.

وكان ديوان الأسطول في العهد الأيوبي هو الديوان المختص بالنفقة على شؤون القوات البحرية من سفن حربية وجند وبحارة وأسلحة ومؤونة بالإضافة إلى دور الصناعة التي قامت بأعمال الصيانة اللازمة للأسطول[٢٥]

وهكذا يمكننا أن نستنتج أن عمل « قيادة الأساطيل » و «الديوان » في تلك العهود يشبه إلى حد كبير عمل قيادات الأساطيل وأركانها في الظروف الحديثة.

د ـ القواعد البحرية :

تدل الوثائق التاريخية المنشورة أن قادة البحرية العربية الإسلامية عرفوا القواعد البحرية في العصور الغابرة حتى بمفهوم فن الحرب الحديث.

فالقاعدة البحرية الحربية في التعريف الحديث هي : « منطقة مجهزة ومدافع عنها من الشاطيء والجزء التابع لها من سطح الماء ونقاط تمركز السفن الموجودة في حدودها والقوات والوسائط والمنشآت التي تؤمن نشاطها والدفاع عن المنطقة[٢٦] ونجد ذلك واضحاً وموجزاً في مقدمة التعليمات الرسمية التي أصدرها الخليفة العباسي إلى أحد أمراء البحر (٣٢٠ هـ / ٩٣٢م/ « هذا عهد أمير المؤمنين إلى . . . (فلان) حين ولاه الثغر الفلاني وبحره ومراكبه[٢٧] أي القاعدة نفسها بكل ما تحتويه على اليابسة والجزء التابع لها من البحر (سطح الماء) والسفن التابعة لها.

---

(٢٣) ابو شامة (الروضتين) ج ١ ص ٢٦٩ ، عبادي وسالم ص ٢٧٢

(٢٤) المقريزي السلوك ج ١ ص ١٠٧ ـ ١٠٨

(٢٥) عبادي وسالم ص ٢٠٢

(٢٦) فن عمليات الأسطول البحري الحربي (وفيق بركات) الجزء الثالث الفصل الثالث ص ٣٤

(٢٧) د. عبد العليم ص ١٠٥ ، عدوي ص ١٥٨، فهمي ص ١٥٢

أدرك القادة العرب وقادة البحرية العربية الإسلامية في وقت مبكر أن توفير قواعد بحرية آمنة ودور صناعة كاملة وخدمة ممتازة (كجزء من التنظيم البحري) هو عصب الحياة لأية قوة بحرية تبغي العزة والمجد . واتجهت أنظار السلطات العربية الإسلامية أولاً في بلاد الشام ومصر ثم بلاد المغرب والأندلس إلى تدعيم القواعد البحرية القديمة الموجودة بها منذ عهد البيزنطيين وإنشاء قواعد أخرى جديدة تعزز من نشاط أساطيلها★ وتهيىء لها أسباب السلامة والفوز . وكانت لدى العرب على امتداد شواطىء البحر الأبيض المتوسط التابعة لهم قواعد بحرية علا ذكرها في التاريخ القديم وأسهمت بنصيب وافر في خدمة القوى العظمى التي شاهدها هذا البحر[٢٨] .

في بلاد الشام : قامت قواعد بحرية عديدة مثل اللاذقية وطرابلس وصور وبيروت وعكا، تمتعت كلها بالموقع الممتاز والحصون القوية . وأشاد المؤرخون العرب بعظمة تلك القواعد البحرية وضخامتها، وبالإهتمام البالغ الذي أسبغته السلطات على تحصيناتها ومعاقلها . ومن ذلك ماورواه المقدسي عن ميناء عكا الذي نال اهتمام الولاة والحكام الذين تداولوا عرش الشام على مر العصور والأجيال فقد كانت عكا أول ميناء حربي خرجت منه السفن العربية★ لغزو قبرص والقاعدة الكبرى لأسطول الشام، أما قاعدة صور فكانت تنعم بتحصينات أقوى من عكا زمن ولاية أحمد بن طولون على مصر (وتبعية الشام له) الذي رغب أيضاً بتقوية قاعدة عكا وبناء تحصينات لها على نحو ماتمتعت به صور بسبب اشتداد النشاط البحري ضد الروم إذ ذاك . وقد أدرك الخلفاء العباسيون خطر الغارات الصليبية فاحتفظوا بدار الصناعة التي أسسها الأمويون في صور لكن الخليفة المتوكل نقلها إلى عكا عام (٢٤٧ هـ)[٢٩] . ولكي يحافظ ابن طولون على سيطرته على بلاد الشام طور القاعدة البحرية في عكا وأحاط الميناء بسور حجري ضخم[٣٠]

وقد وزع الخليفة المتوكل (٨٢٢ م - ٨٦١م) الأسطول والقوات البحرية بين مدن الساحل الشامي وهو يعرف حالياً (بالإنتشار الاستراتيجي أو الإنتشار العملياتي) . ويقول المقدسي عن نقاط المراقبة التي كانت تقام إبان قدوم السفن البيزنطية ، إنه حينما كانت تظهر

★ كما يعرف في العصر الحديث

(٢٨) د . عبد العليم ص ١٠٥ ، عدوي ص ١٥٨ ، فهمي ص ١٥٢

(٢٩) عدوي ص ١٣٢

(٣٠) فهمي ص ٦٢

سفينة بيزنطية كان المسلمون يطلقون الأبواق وفي الليل يضيؤون منارة في البرج ، على حين يعلقون دخاناً كثيفاً في النهار، وكانت توجد أبراج عالية بين نقاط المراقبة على طول الساحل ، وتحرس الأبراج مجموعة من الرجال يضيئون المنارة، وبذلك ينقلون الإشارة من برج إلى برج آخر، وقبل مضي ساعة تدوي الطبول في المدينة على حين تدق الطبول في الأبراج لاستدعاء المسؤولين عن نقاط المراقبة ويهرعون للخروج بأسلحتهم (وهذا النظام كامل للإنذار والدفاع[٣١] .

وبلغت تلك القواعد أوج عزها في عهد الفاطميين حيث امتلأت صور وعكا وعسقلان بالسفن الحربية الكثيرة المختلفة الأنواع[٣٢]

واشتهرت قواعد الشام البحرية بقدرتها على استقبال عدد كبير من السفن ، وبذلك وجدت الأساطيل العربية الإسلامية في قواعدها بالشام الطمأنينة وكافة أسباب القوةوالبأس فاستطاعت أن تخرج منها تباعاً للهجوم على بلاد الروم واعلاء شأن العرب وقد كشف المؤرخون عن منعة تلك القواعد وقوة حصونها وقدرتها على خدمة نشاط الأساطيل العربية وتلبية المطالب الحربية .

في مصر: كانت مصر بدورها حافلة بعدد كبير من القواعد البحرية التي أسهمت في خدمة الأسطول العربي وتوفير كافة أسباب الفوز له . وفي مقدمة تلك القواعد ثغر الإسكندرية العريق في القدم منذ أن أنشأه الإسكندر المقدوني ، وتمتعت الإسكندرية بميزات طبيعية جعلتها أهم قاعدة للأسطول العربي في مياه البحر الأبيض المتوسط ونقطة استراتيجية ينطلق منها للهجوم على جزر الروم وممتلكاتهم ، ومنذ استيلاء العرب على مصر ، والإسكندرية موضع اهتمامهم بسبب خروج أساطيلهم منها لغزو بلاد الروم . وقد كشفت أوراق البردي التي ترجع إلى ولاية قرة بن شريك على مصر (٩٠هـ / ٧٠٨م) عن الدور الهام الذي قامت به الإسكندرية في إغارات العرب البحرية . وظهر إلى جوار الإسكندرية قواعد بحرية مصرية أخرى منها دمياط وتنيس والفرما (بور سعيد) .

وكانت القواعد المصرية حافلة بالسفن الحربية طيلة العصر الذهبي للأسطول العربي في مياه البحر الأبيض المتوسط ومركزاً هاماً تنطلق منه الإغارات البحرية العربية على قواعد الروم . وقد ظلت تلك القواعد البحرية على اتصال وثيق بقواعد الشام خلال تلك الفترة الزاهرة من تاريخ الأسطول العربي .

---

(٣١) فهمي ص ٦٤، عدوي ص ١٣٤

(٣٢) العدوي ص ١٣٣

في المغرب: وجه العرب جهودهم لتدعيم قواعد أسطولهم وعدم تمسكهم بالقواعد البحرية القديمة. بعد أن تم لهم الإستيلاء على شمال أفريقيا، فقد آثر العرب الإبتعاد عن بعض تلك القواعد القديمة مثل قرطاجنة، وأسسوا قواعد أخرى جديدة تتفق مع حاجات أسطولهم في غرب البحر الأبيض المتوسط[٣٣].

واستهل تلك السياسة الجديدة القائد حسان بن النعمان الذي يرجع إليه الفضل في تثبيت أقدام العرب في شمال أفريقيا وخلق أول قوة بحرية عربية في غرب البحر الأبيض المتوسط. فقد رأى من تجاربه في حرب الروم، أن قرطاجنة برغم شهرتها القديمة لم تعد تصلح قاعدة للأسطول العربي ذلك أن اغارات الروم البحرية المتواصلة على مراكز العرب في شمال أفريقيا جعلت حساناً يفكر في ضرورة تأسيس قاعدة لأسطوله تكون بمأمن من هجمات الروم وتستطيع أن تساعد السفن الحربية العربية فيها بعد على صد إغارات الروم وأساطيلهم[٣٤] ووجد حسان ضالته في مكان جنوبي قرطاجنة، إذ يقع خلف الساحل بحيرة داخلية تسمى آدس (Ades) لايفصلها عن البحر غير برزخ صغير وعلى تلك البحيرة توجد مدينة لها ميناء ترسو به بعض السفن. فأمر حسان بحفر البرزخ الذي يفصل البحيرة عن البحروكذلك بحفر قناة أخرى في مياه البحيرة حتى تستطيع السفن المسير مباشرة من البحر إلى الميناء الداخلي الذي عرف منذئذ باسم تونس وغدا قاعدة آمنة للسفن الحربية العربية[٣٥] (انظر ص ١٣١)

وقد أثبتت الأحداث حسن اختيار حسان لقاعدة تونس، إذ كفل لها ابتعادها عن البحر فرصةً تستطيع فيها الحاميات العربية مقاومة أساطيل الروم قبل وصولها الميناء الجديد كما أن مياه البحيرة الهادئة هيأت للسفن الحربية العربية الحماية من عواصف البحر وأنوائه.
وقد ازدادت أهمية تونس عندما اتجه الأغالبة إلى فتح جزيرة صقلية.

وينسب إلى عبيد الله المهدي أول خليفة فاطمي في بلاد المغرب تأسيس قاعدة جديدة في بلاد تونس، نسبت اليه وعرفت بالمهدية[٣٦] وتابع خلفاء المهدي في بلاد المغرب سياسة

---

(٣٣) علوي ص ١٤٠
(٣٤) العدوي ص ١٤١
(٣٥) ابن عذارى ص ٣٩
(٣٦) العدوي ص ١٤٣

إنشاء القواعد البحرية الحربية فأنشأ المعتز قاعدة سوسة ثم المنصورية.

في الأندلس: كانت سواحل بلاد الأندلس المطلة على البحر الأبيض المتوسط حافلة بالقواعد البحرية الكثيرة ذات الطابع الفريد في نشاطها الحربي[٣٧] فقد نشأت على طول الساحل الشرقي للأندلس قواعد عامرة يالنشاط احتشدت فيها السفن الحربية وكذلك عدد من «المرابطين» الذين كرسوا حياتهم للجهاد في سبيل الإسلام وكانت المنطقة الممتدة من لقنت (Alicante) واكيله (Aquila) تضم أهم القواعد البحرية ومنها اسكمبرة (Escombra) وهي على جزيرة في البحر في مدخل خليج قرطاجنة الأندلسي وتعرف المدينة الواقعة عليه باسم (قرطاجنة الخلفاء) كما قام جماعة من الأندلسيين بإنشاء قاعدة «بجاية» على الساحل الأندلسي الجنوبي.

وقد استمرت بجاية عامرة حتى سنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م عندما نقل عبد الرحمن الناصر عاصمة المنطقة المجاورة لها إلى ميناء المرية نفسه وصارت تلك القاعدة الجديدة من أهم قواعد الأسطول العربي في البحر الأبيض المتوسط[٣٨] كما أنشأ الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي مدينة بحرية حصينة على سفح جبل طارق سنة (٥٥٥هـ - ١١٦٠م) وسماها مدينة الفتح لتكون قاعدة عسكرية كبرى لتجمعات جيوشه القادمة من المغرب[*]

هذا وقد تضمن تنظيم البحرية العربية الإسلامية وثائق تتعلق بالنفقات البحرية وضرائب الأسطول وتجنيد البحارة والبدل النقدي في الخدمة البحرية، والرجال المقاتلين، والمؤن والطعام، وهذا كله على نحو ما هو منظم حالياً في البحريات الحديثة.

وقد قارن المؤرخ الأمريكي المعاصر (أرشيبالد لويس) بين الأسطول العربي والأساطيل الأوربية في البحر المتوسط فقال: «كان للعرب المسلمين في البحر المتوسط قوة بحرية أحسن تنسيقاً وأكثر ضبطاً وانتظاماً. وينطبق هذا بصورة خاصة على الأغالبة وعلى الفاطميين بشمال أفريقيا، ابتداء من القرن التاسع الميلادي وعلى صقلية في القرن التالي وذلك لأن أساطيلهم بنيت في دور صناعة منظمة وجهزت بالعتاد والرجال عن طريق الحكومة، وقام على إمرتها ـ ما بين أمير وقبطان ـ رجال ذوو دراية واسعة وذوو قدرة على ملاقاة أسطول بيزنطة الإمبراطوري في معارك بحرية هامة وحاسمة. وإن الإنتصارات التي أحرزتها

---

(٣٧) العدوي ص ١٤٤

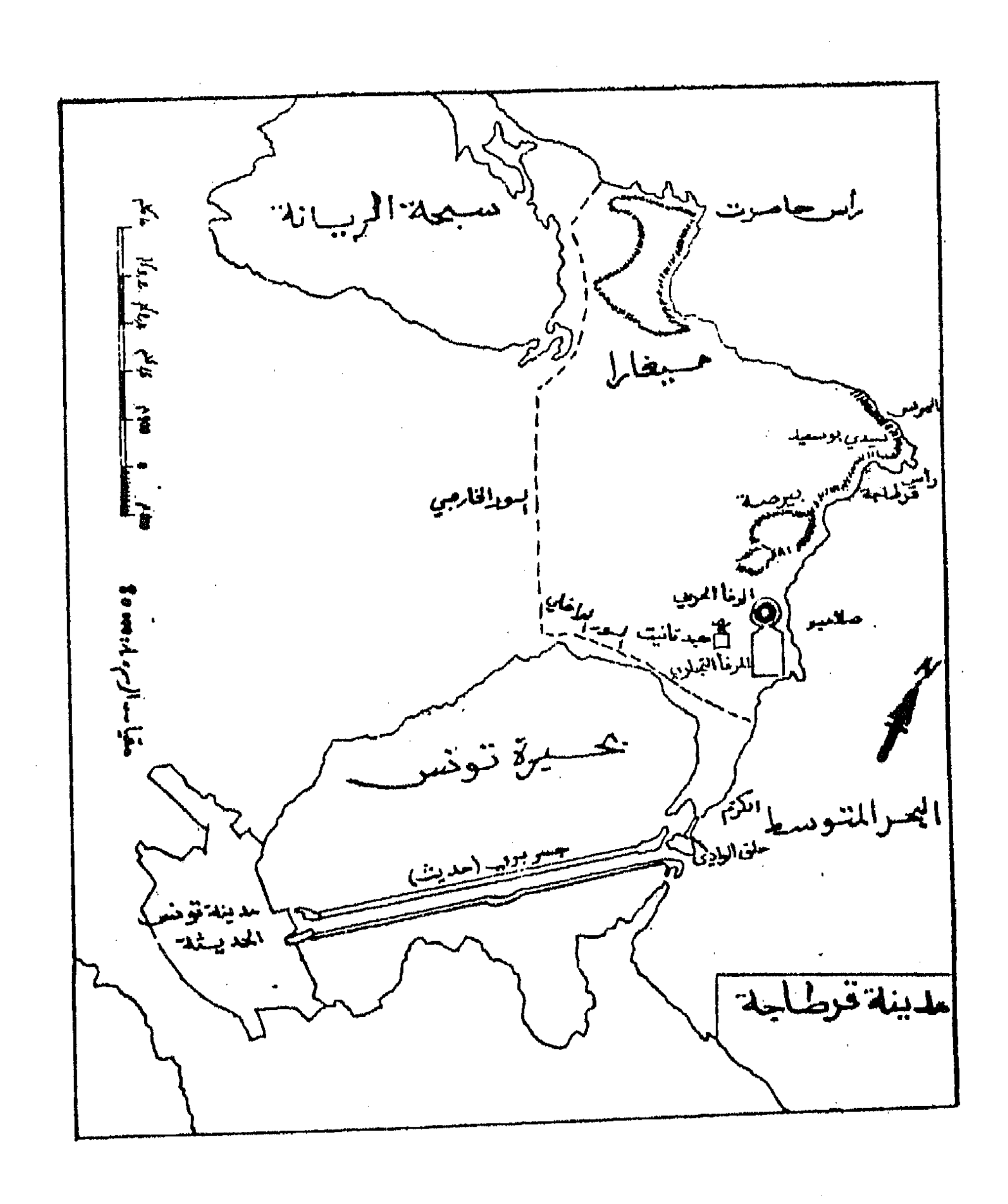
(٣٨) العدوي ص ١٤٦

★ ومنذ ذلك الحين صار جبل طارق يعرف أيضاً بجبل الفتح

أساطيل صقلية وشمال أفريقيا عامي ٨٥٩ و٨٨٨ م قرب صقلية (وهي الإنتصارات التي قضت على آمال البيزنطيين في المحافظة على هذه الجزيرة) وكانت مما حققته تلك القوات البحرية العربية المنظمة[٣٩]

---

(٣٩) أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية ص ٢٣٠، خربوطلي ص ٨٨


سبخة الريانة
رأس قمرت
ميغارا
المرسى
سيدي بوسعيد
رأس قرطاجة
بيرصة
السور الخارجي
المرفأ الحربي
صلامبو
معبد تانيت
السور الداخلي
المرفأ التجاري
بحيرة تونس
الكرم
البحر المتوسط
حلق الوادي
جسر بري (حديث)
مدينة تونس الحديثة
مدينة قرطاجة

الفصل السادس عشر

الجهاد البحري في الفكر العسكري الإسلامي

الجهاد في سبيل الله هو بذل الجهد القوي في التبشير بالرسالة الإسلامية وتأييدها ونشرها والدفاع عنها حرباً وسلماً[1]

وقد ترادف معنى كلمتي الجهاد والقتال في آيات كثيرة من القرآن الكريم « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم بسورة البقرة ١٩٠» وفي سورة التوبة « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله. التوبة ٤١» والجهاد بالنفس في الآية الكريمة مرادف للقتال في سبيل الله. وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالجهاد في مواقع عديدة من القرآن الكريم :

- وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده — الحج ٣٨
- وجاهدوا به جهاداً كبيراً. — الفرقان ٥٢
- والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا — العنكبوت ٦٩
- إن الذين آمنو والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم.

(سورة البقرة)٢١٨

وهكذا نجد أن آيات الجهاد والقتال قد شغلت حيزاً كبيراً في القرآن الكريم يكاد أن يبلغ نصفه المدني، وفي هذا دليل على أن هذا الموضوع كان من أهم مشاغل السيرة النبوية في العهد المذكور وقد جعل الله تعالى الجهاد مقياسا لصدق إيمان المسلم (الآيات ١٤ و١٥ الحجرات :

---

(١) محمد عزة دروزة الجهاد في سبيل الله في القرآن والحديث ص ٧

« انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون».

على أن من أهم العوامل التي حفزت المسلمين على الجهاد هو قناعتهم بأنه يضمن الخير والنجاح والصلاح والعدل والتعاون والتكافؤ والأخوة والمساواة والحرية لجميع البشر والذي فيه حل لجميع مشاكلهم واستجابة لكل مطالبهم المشروعة روحية كانت أم اجتماعية أم سياسية أم سلوكية أم شخصية (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . التوبة ٢٣».

فالجهاد في سبيل الله على هذا الإعتبار هو لصالح الإنسانية جميعا في كل ظرف ومكان وعلى مختلف المستويات[٢]. وذلك إلى جانب العوامل الإقتصادية والعسكرية.

وقد وعد الله الشهداء من المجاهدين بالثواب العظيم بالجنة ورحمة الله تعالى والخلود:

- ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لاتشعرون - البقرة ١٥٤
- ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون - آل عمران ١٦٩
- فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً . . . النساء ٩٥.

« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعدا عليه حقا في التوارة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . . . التوبة ١١١».

كذلك أمر الرسول العربي بالجهاد في الكثير من أحاديثه الشريفة:

- حديث رواه الخمسة : « سئل النبي (ص) أي الناس أفضل فقال : مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله».
- وحديث رواه البخاري: « ما أغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار».

وقد ذهب ابن خلدون إلى اعتبار القتال في البحر جهادا في أكثر من موضع في الفصل الخاص بقيادة الأساطيل :

- « . . . . حتى إذا كان لعهد معاوية أذن للمسلمين في ركوبه (البحر) والجهاد على

---

(٢) دروزة ص ١٤

أعواده (السفن)[٣]

- « . . . وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته واستحدثوا بصراءبها فشرهوا إلى الجهاد فيه وأنشأوا السفن والشواني وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر»[٤]

- «وأوعز الخليفة عبد الملك إلى حسان بن النعمان عامل أفريقيا باتخاذ دار صناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصا على مراسم الجهاد[٥]» كما كان بعض القادة في المغرب يصطحبون معهم مصحف عثمان بن عفان[*]وقد أضفى بعض القادة على القتال في البحر طابع « الجهاد المقدس» اذ لجأ معاوية في حملة القسطنطينية - التي قادها ابنه يزيد، إلى ضم شخصية كبرى من أصحاب الرسول (ص) ممن لعبت دورا رئيسياً في مؤازرته ونصرة دعوته وهو أبو أيوب الأنصاري الذي استقبل الرسول في بيته (وقد توفي أثناء حصار القسطنطسنية ودفن بالقرب من أسوارها) .[٦]

ومما دفع العرب إلى الجهاد البحري حاجتهم للدفاع عن الفتوحات العربية الإسلامية التي جاهدوا بأموالهم وأرواحهم في سبيلها (أي كانت حروبا وقائية دفاعية). فقد خرج العرب المسلمون من الجزيرة العربية فاتحين ينشرون دينهم وحضارتهم ونجحوا في فتح جميع أراضي الدولة الفارسية الساسانية ثم بدأوا يستولون على أراضي الدولة البيزنطية ففتحوا الشام ومصر ومضوا في طريقهم حتى فتحوا شمال أفريقيا وأشرفوا على سواحل المحيط الأطلسي ومضى العرب المسلمون في طريقهم يدفعهم إيمانهم الشديد برسالتهم الدينية والحضارية إلى العالم وحماستهم لعروبتهم ورسالتها السامية في الحق والعدل والنور واعتزازهم بحضارتهم فنشروا دينهم الرشيد وأرسوا قواعد حضارتهم العربية الزاهرة في أوروبا وأفريقيا

---

(٣) ابن خلدون ، المقدمة فصل قيادة الأساطيل ص ٢٥٣

(٤) ابن خلدون ، المقدمة فصل القيادة الأساطيل

(٥) ابن خلدون، المقدمة فصل قيادة الأساطيل.

(٦) الطبري تاريخ الرسل والملك ج ٦ ص ١٣٠

★ ونظراً لارتباط الفتوحات بعقيدة الجهاد فقد استن الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي عادة اصطحاب مصحف عثمان بن عفان (ر) في المغرب بعد أن أمر بنقل المصحف إليه من الأندلس، وذلك عندما توجه من مراكش إلى تونس ومنها إلى المهدية « وكان إذا ركب اجتمع إليه أعيان الناس فيدعون له ويتقدم الناس ويمشي أمامه مئة فارس بمصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه . . . ».

انظر د. سحر سالم : أضواء على مصحف عثمان بن عفان - جامعة الإسكندرية ١٩٩١ ص ٦٣ - ٦٤

وآسيا بفضل الفتوحات البحرية وتفوقهم في فن الحرب البحرية إلى جانب فتوحاتهم البرية وتفوقهم في فن الحرب البرية أيضا. وتشهد آثارهم في صقلية والأندلس وكل البلدان التي وصلتها أساطيلهم على نبل رسالتهم الحضارية والثقافية والروحية والعربية ، وكلما فتحوا قطرا من الأقطار درسوا نظمه الإدارية ومظاهره الحضارية وأبقوا على الحسن فيها وإزالة مالا يتفق منها والوضع العربي الجديد.

كما أن الفتوحات البحرية العربية الإسلامية قد أسهمت في نقل الحضارة اليونانية إلى أوروبا[7]

وهكذا أنشأ العرب السفن والأساطيل وشحنوها بالجند والمجاهدين فمنهم من كان يغزو في البحر جهاداً في سبيل الله وابتغاء الأجر والثواب ، وصاروا يروون أحاديث عن الرسول تتضمن معنى الحث على الجهاد في البحر . حتى بلغت بهم الحماسة درجة جعلت النساء يركبن البحر ومنهن «أم حرام» زوجة أحد الصحابة التي لقيت حتفها في غزوة بحرية في قبرص ، وقيل إنه لما غزا الأسطول الإسلامي القسطنطينية كان أحد أولاد الخليفة عمر حاضرا فسأل أمير البحر عن ذنوب الغزاة المجاهدين فأجابه الأمير «إن آثامهم معلقة في أعناقهم » فاجابه بن عمر: « والذي نفسي بيده لقد تركوا آثامهم على الشاطيء» وعزوا إلى الرسول (ص) أنه قال: « إن الجهاد في البحر فيه عشرة أمثال أجر الجهاد في البر[8]

وقد ارتبطت الفتوحات البحرية بمبادىء الجهاد في سبيل الله وورد ذلك في العديد من المصادر التاريخية، فالبلاذري يشير إلى ذلك بقوله: «وقد رأينا من اجتهاد أمير المؤمنين هارون الرشيد في الغزو ، ونفاذ بصيرته في الجهاد أمرا عظيما، أقام من الصناعة مالم يقم قبله وقسم الأموال في الثغور (المواني) والسواحل وأشجى الروم وقمعهم وأمر المتوكل على الله بترتيب المراكب في جميع السواحل وأن تشحن بالمقاتلة[9]»أي اعتبر أن أعماله المتعلقة بالقتال في البحر والإستعداد له جهادا في سبيل الله بل إن عددا من المؤرخين قد استخدم كثيرا تعبير الجهاد البحري: « لم يكن الفاطميون . . . أقل اهتماما بشؤون البحر من الأغالبة ، بل إننا لانتجاوز الصواب إذا ذكرنا أنهم فاقوهم في العناية بالبحرية ، وفي الجهاد البحري [10]»وفي

(٧) خربوطلي : ص ١٣٩
(٨) الأمير شكيب ارسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٠٨ ، خانكي : ص ١١٨
(٩) البلاذري ج ١ ص ١٩٣
(١٠) عبادي وسالم ص ٦٣

موقع اخر: «أما فيما يتعلق بالجهاد البحري ضد الروم والفرنجة فمن المعروف أن الدولة الفاطمية تابعت نفس السياسة التي كان يقوم بها الأغالبة في هذا المجال[١١]».

وبلغ من اهتمام الفاطميين بالأسطول والجهاد البحري أن أنشؤوا ديوانا أسموه (ديوان الجهاد أو ديوان العمائر)[١٢] وقد أطلق الدكتور أحمد مختار العبادي على حروب الفاطميين ضد الصليبيين «جهاد الأسطول المصري ضد الصليبيين» تأكيدا على أن الحروب البحرية في ذلك العهد كانت مرتبطة بعقيدة الجهاد في سبيل الله.

وقد عمل صلاح الدين الأيوبي على بث روح الحرب والجهاد في نفوس المسلمين وجعل من أدواته الرئيسية في جهاده ضد الصليبيين «الأسطول البحري» فاهتم بإحياء البحرية العربية ودربهاوجهّزها وخاض بها عمليات هامة ناجحة، ويورد ابن شداد حديثا لصلاح الدين عن الجهاد البحري:

«... إنه متى يسر الله تعالى فتح بقية السواحل قسمت البلاد، وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهّم فيها حتى لاأبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت»[١٣]، وحتى أواخر الدولة الأيوبية وأوائل دولة المماليك كان جند البحر يلقون بالمجاهدين في سبيل الله والغزاة في أعداء الله ويتبرك بدعائهم الناس[١٤]

ويرى بعض المؤرخين أن أهم شيء خلفته البحرية الأندلسية في ميدان البحر الأبيض المتوسط هو إظهار روح الفدائية والمغامرة البحرية عند العرب، وذلك أن كثيراً من هجمات العرب البحرية قامت من الأندلس بدافع من حب المغامرة والجهاد. أكثرمن تنفيذها لأوامر السلطات المركزية. وقد خلقت تلك الأحداث التي انفردت بها الأندلس روحاً جديدة لدى سكان البلاد العربية على الشواطيء الغربية للبحر الأبيض المتوسط. وكانت آية تلك الروح الجديدة هي إنشاء قواعد بحرية عديدة صارت فيما بعد مراكز أمامية للأسطول الحربي في البحر الأبيض المتوسط. وساعد على ازدهار تلك الروح البحرية الجديدة امتزاج النزعات بحب الجهاد في سبيل إعزاز الدين الإسلامي عند عرب المغرب، فكانت تكثر في مناطق إسبانيا الإسلامية المراكز الحربية التي امتلأت بأعداد وافرة من المقاتلين الذين لايريدون شيئا

(١١) عبادي وسالم ص ٦٦

(١٢) عبادي وسالم ص ٨٦

(١٣) ابن شداد (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية وزارة الثقافة السورية ص ٢٣ مستخرج من النسخة الأصلية ـ تحقيق الدكتور جمال الشيال.

(١٤)جورجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ١٩٧

سوى الجهاد في سبيل الله . ويعرف هذا النفر من المجاهدين باسم (المرابطين) لأنهم أقاموا في أماكن خاصة بهم تجمع بين التعبد والاستعداد للدفاع وتعرف باسم الرباط . وكانت معظم أماكن الرباط تقع في الجهات المعرضة لإغارات الأعداء لتبادر بمساعدتها إذا دهمتها الخطوب ، وكذلك في الجهات التي تخرج منها قوات المسلمين وأساطيلهم للجهاد. ومن ثم كثرت بالقرب من القواعد البحرية جماعات (المرابطين) الذين تفانوا في نصرة الدين وأهله، وقد استمد المغامرون البحريون من تلك المراكز مورداً لاينضب من المساعدات والإمدادات[١٥]

وهكذا نرى أن أسباب انتصارات البحرية العربية الإسلامية وتحقيقها تلك الفتوحات الواسعة والإنجازات الحضارية الكبرى تعود إلى أن قادة وبحارة الأساطيل العربية الإسلامية قد خرجوا للجهاد «للقتال» من أجل نشر المبادىء السامية التي يؤمنون بها ، لأن الجهاد ركيزة من ركائز العقيدة الإسلامية ولأن فكرة الجهاد قد تأصلت لديهم (بحارة مقاتلون مجاهدون مؤمنون ملتزمون بمبادىء محددة يدافعون عنها) وكذلك لإيمانهم بعدالة قضيتهم وحروبهم البحرية ، فهم يقاتلون لنشر الحضارة والثقافة والدين والعدالة وإزالة الإستغلال في البلدان التي يفتحونها وتحريرها من الروم وغيرهم ، وقد ساعد ذلك كله على رفع الروح المعنوية لجنود البحرية الإسلامية وتفانيهم وشجاعتهم و براعتهم في فن الحرب البحرية .

وهناك حقيقة تاريخية تؤكدها المراجع العربية الرئيسية وهي أن العرب قد حققوا أروع أمجادهم في تلك الفترات التي كانت فيها أساطيلهم البحرية موحدة قوية بتعاونها وتضامنها في كل المجالات عملا بالآية الكريمة : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص . سورة الصف الآية ٤ ».

وقول الرسول العربي (ص) «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى . »

وعندما تمزقت تلك الوحدة نتيجة لتمزق الوحدة السياسية وإهمال المبادىء والقيم السامية أصيب العرب بالهزائم والنكسات «ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين . سورة الانفال٤٦ ».

وخلاصة القول إن الأسطول العربي الإسلامي كان اسطولاً عقائدياً (مجاهداً) ملتزماً بمبادىء الإسلام ورسالة الحضارة العربية إلى جميع شعوب العالم. كما كان ذلك الأسطول

---

(١٥) العدوي ص ٩١

أحد المرتكزات الرئيسية في العقيدة العسكرية الإسلامية، ولانبالغ على الإطلاق إذا قلنا أنه كان أقواها وأكثرها فاعلية، بل إنه كان «العصا الطويلة» للقوات المسلحة العربية لعدة قرون من الزمن.

هذا وذهب الربان العربي الكبير (شهاب الدين أحمد بن ماجد) الملقب بـ (المعلم) و (أسد البحر) الذي عاش في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجري، ذهب إلى حد إضفاء القدسية على صفة الربابنة (قادة السفن: فهو يمثل الخروج إلى البحر في كل رحلة كأداء الفريضة سواءً بسواء، تتطلب من صاحبها توفر ركنين: الطهارة «طهارة البدن والروح» و «إخلاص النية» وفي ذلك يقول هذا الربان القدير في مؤلف من مؤلفاته هو «كتاب الفوائد».

« ينبغي أنك إذا ركبت البحر تلزم الطهارة فإنك في السفينة ضيف من أضياف الباري عز وجل فلا تغفل عن ذكـره»(١٦)

وفي موضع آخر من قصيدة له تعرف باسم (القصيدة المكية) يقول نظماً:

ركبت على اسم الله مجرى سفينتي وعجلت فيها بالصلاة مبادرا(١٧)

وقد روى الجاحظ بن السني عن الحسين بن علي (ر) عن رسول الله (ص) فيما يذكره راكب البحر إلى الجهاد قال: « أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا البحر أن يقولوا بسم الله مجراها ومرساها، إن ربي لغفور رحيم وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشكرون»(١٨★)

---

(١٦) د. أنور عبد العليم (الملاحة وعلوم البحار عند العرب) ص ٢١٠

(١٧) المرجع السابق نفسه ص ٢١٠

(١٨) د. سعاد ماهر (مرجع سابق) ص ٦٥ - ٦٦

★ هذا وتجدر الإشارة إلى أن المسافرين في البحر كانوا يحملون معهم المصاحف كما كانوا يكتبون أحياناً على جدران السفن بعض العبارات القرآنية للتبرك بها ومنها «بسم الله مجراها ومرساها». انظر د. عبد العزيز سالم البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي ص ١٣٠ ص ١٣١ اصدار الإسكندرية - مؤسسه شباب الجامعة ١٩٩٣.

الفصل التاسع عشر

اختبار الجاهزية القتالية والإنتشار العملياتي للأسطول

إن اختبار القوات قبل توجهها إلى الحرب مسألة حيوية لمعرفة جاهزيتها لخوض الأعمال القتالية والتأكد من استكمال احتياجاتها وإعطائها التوجيهات الأخيرة من قبل القيادة السياسية والعسكرية ، ويعتبر هذا الإجراء جزءاً هاماً من المضمون الأساسي للتحضير للعملية البحرية.

وقد عرف القادة العرب هذا النوع من الإختبار في وقت مبكر من تاريخ الأساطيل العربية الإسلامية وطبقوه على أحسن وجه حتى بمفهوم اختبار القوات في العصر الحديث. وكانت الإختبارات تجري يوم الوداع ويطلق عليه تسمية (الموادعة) ففي العهد الفاطمي كانت الموادعة تتم على الشكل التالي :

بعد أن تتكامل النفقة على الغزاة وتتجهز المراكب وتتهيأ للإقلاع، يركب الخليفة والوزير إلى ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة حيث يجلس الخليفة . . . وهي منظرة أقيمت خصيصاً لنزول الخليفة عند تجهيز الأسطول لغزو الفرنج[1] برسم وداع الغزاة أو لقائهم عند عودتهم مظفرين من الغزو[2]. وعندما يجلس الخليفة في مجلسه يقبل القواد بالمراكب « للحركات في البحر بين يديه وهي مزينة بأسلحتها ولبودها وما فيها من المنجنيقات ، فيرمى بها ، وتنحدر المراكب وتقلع وتفعل سائر ما تفعله عند لقاء العدو. ثم يحضر المقدم والرئيس إلى بين يدي الخليفة ، فيودعهما ويدعو للجماعة بالنصر والسلامة ويعطي للمقدم مئة دينار، وللرئيس عشرين ديناراً ، وينحدر الأسطول إلى دمياط ومن هناك يخرج إلى بحر الملح فيكون له ببلاد العدو صيت عظيم ومهابة قوية .[3]

---

(١) المقريزي ج ٢ ص ٣٧٢ (الخطط)
(٢) المقريزي ص٣ ص ١٠٩
(٣) المقريزي ج ٢ ص ٣٧٣ ، ج ٣ ص ١١٠

وبعد التأكد من الجاهزية القتالية للقوات وانتهاء مراسم الوداع يبدأ الإنتشار العملياتي[٤] للأسطول فيخرج إلى البحر ويتخذ تشكيلات القتال (نسق أو نصف دائرة . أو قلب وجناحين ومقدمة وساقة) أو يتوجه إلى نقطة أو نقاط الإنتشار العملياتي حيث تدقق الخطط وتوزع الإتجاهات ثم ينطلق الأسطول للهجوم على أهدافه.

وقد رأينا في غزو قبرص كيف أن معاوية جمع قواته أولاً في عكا قبل الهجوم، وفي معركة ذات الصواري قامت الأساطيل من مصر والشام بالإنتشار العملياتي إلى مواقع قريبة من القسطنطينية قبل الحصار واحتلت مواقع متقدمة ثم باشرت أعمالها القتالية ضد العاصمة البيزنطية[*]

---

(٤) الإنتشار العملياتي هو تحرك (أو تحركات) تقوم بها القوات المشتركة بالعملية إلى المواقع (الأماكن) التي ستبدأ منها القيام بالعملية (الأعمال القتالية) وقد تتضمن التحرك إلى مواقع خداعية.

★ راجع تفاصيل ذلك كله في الفصل الخامس.

الفصل الثامن عشر

التأمين المادي والفني للأساطيل البحرية (الإمداد والتموين) في السلم والحرب

يهدف التأمين المادي والفني للأساطيل البحرية الحربية إلى إمدادها بكل ماتحتاج إليه من مواد غذائية وفنية وأسلحة وذخائر وتأمين إصلاح السفن والمواد اللازمة للصناعة الحربية (صناعة سفن صناعة أجهزة بحرية، صناعة ذخيرة بحرية والمواد اللازمة لإصلاحها. . الخ).

وذلك في أوقات السلم والحرب على السواء ، ويعد دلك من أعقد المسائل التي تواجهها الأساطيل في الحروب الحديثة.

وقد كان ديوان الجيش ثم ديوان الجهاد أو العمائر (في العهد الفاطمي) ثم ديوان الأسطول (في العهد الأيوبي) هو الجهة المسؤولة عن تزويد الأساطيل والسفن البحرية الحربية باحتياجاتها وكان للقواعد البحرية أكبر الأثر في تزويد الأساطيل بكل ما يلزمها في الخروج للغزو وكذلك إرسال الإمدادات إلى مسارح الأعمال القتالية البحرية.

وعندما عزم معاوية بن أبي سفيان . وهو بعد وال على الشام على انشاء أسطول عربي إسلامي كان يعلم تماماً أن بإمكانه تحقيق هذا الهدف نظراً لتوفر المواد اللازمة للصناعة ، فالأخشاب التي تصنع منها ألواح السفن والصواري والمجاذيف تتوافر في مناطق متعددة من الأراضي العربية في مصر والشام فأشجار الصنوبر القوي والأرز والبلوط والعرعر تزخر بها جبال لبنان وسوريا ، كما أن أخشاب السنط المصري الصالحة لعمل الصواري وضلوع جوانب السفن وخشب الجميز واللبخ والدوم التي تصلح لصناعة المجاذيف والقرايا اشتهرت بها مصر منذ أقدم العصور[1] . كذلك كان بإمكان معاوية (استغلال معدن الحديد المتوفر في مصر والشام واليمن لعمل المسامير والمراسي والخطاطيف والفؤوس والأسلحة الأخرى.

---

(١) ابراهيم العدوي : الأمويون والبيزنطيون ص ١٦٥

كما يتوفر بمصر القطران الوارد من ليبيا[٢] وهو مادة لازمة لقلفطة السفن ، بالاضافة إلى هذه المواد اللازمة لصناعة السفن كانت تتوفر في مصر والشام الأيدي العاملة الخبيرة . وقد تعددت دور الصناعة في الثغور الشامية والمصرية بصورة خاصة واستطاعت أن تمد الأساطيل العربية بكل أنواع السفن الحربية وسفن الإمداد والتموين (النقل) في كل الظروف وكان الأسطول العربي الاسلامي يشحن قبل إقلاعه للقتال في البحر بكل ما يحتاجه البحريون والغزاة من الميرة والأزواد. فمن الأهراء السلطانية (أيام الفاطميين) كانت تخرج جرايات رجال الأسطول وما يعمل من القمح برسم الكعك لزاد الأسطول[٣] وكانت تسوق المراكب بأنواع الفواكة والخضروات والبقول لغذاء البحريين كالرمان والسفرجل والبطيخ الشندي والكمثرى والتين والجوز والحمص والباقلا والتوم والبصل والجبن والأسماك وما إلى ذلك[٤] كذلك كانت تخصص لحمل المياه اللازمة للشرب مراكب صغيرة يقال لها «المركوش» وكثيراً ما كان يصحب البحريين أطباء وقراء ومؤذنون لخدمة الغزاة في البحر[٥]

وعندما أنشأ الفاطميون (ديوان الجهاد أو ديوان العمائر) حددت مهمته بإنشاء مراكب الأسطول وحمل الغلال السلطانية والأحطاب والنفقة على رؤساء المراكب ورجالها . وقد استعان صلاح الدين الأيوبي في بناء أسطوله بالخشب المحلي في مصر بالإضافة إلى أخشاب الصنوبر والأرز التي تنبت في جبال لبنان فضلاً عن معدن الحديد الذي كان يستخرج من جبل بالقرب من بيروت[٦] كذلك لجأ صلاح الدين إلى عقد معاهدات تجارية لهذا الغرض مع الجمهوريات الإيطالية حصل بمقتضاها على حاجته من الحديد والخشب والشمع[٧]

ويذكر الدكتور على محمود فهمي أن السمة الرئيسية في التنظيم البحري كانت تتمثل في نظام عرف باللاتينية (Cursus) تعني الغارات التي كانت أساطيل الخلافة تشنها ضد الأمبراطورية البيزنطية بشكل مستمر، وتكشف البرديات أن هذه الغارات كانت تحدث سنوياً، كما تكشف البرديات عن أن الضرائب اللازمة لكل حملة كانت تجبى في الفترة

---

(٢) عبادي وسالم ص ٢٤
(٣) المقريزي ٢- ص ٢٦٧
(٤) عبادي وسالم ص ١٤٣
(٥) المقريزي ج ٢ ص ٣٧٦، عبادي وسالم ص ١٤٣
(٦) محمد بن شداد: الاعلاق الخطيرة في ذكرى أمراء الشام والجزيرة ص ١٠١
(٧) عبادى وسالم ص ٢٧٣

الضريبية السابقة[8] للعمليات البحرية. ويبدو أن ثمة مبالغ كبيرة كانت تخصص في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) لأن ابن خرداذبة (٨٢٠ - ٩١٣م) يقول إن تكاليف حملة بحرية واحدة قد وصل إلى مئة ألف دينار[9]

وكان يتم إمداد الأسطول بالمؤن من كل نوع عن طريق الضرائب وكانت هذه الضرائب تتضمن الحديد والخشب والنحاس والحبال والوسائد وخيوط الغزل اللازمة للسفن والخبز والزبد والنبيذ والزيت والملح لإعاشة الصناع المهرة والبحارة ويذكر الدكتور فهمي أرقام عدد من البرديات المتعلقة بالمؤن المرسلة إلى الأساطيل الغازية (رقم ١٣٥١ وكذلك البردية رقم ١٣٥٣ ، ١٣٥٤ تاريخ ٩٢ هـ / ٧١٠م)[10]

ومن دراسة معركة ذات الصواري نرى أن الأسطول العربي قد جهز بكل ما يلزمه من مؤن وأسلحة بدليل أنه لم يطلب أي إمدادات إضافية، بل كان لديه كل ما يلزمه للمعركة التي انتصر فيها .

وفي حصار القسطنطينية الذي استمر سبع سنوات كان التأمين المادي والفني (الإمداد والتموين) على أكمل وجه بل استخدمت الأساطيل العربية قواعد متقدمة للقوات والمؤن والتجهيزات، وكانت سفن الإمداد بالأغذية والأسلحة والتجهيزات البحرية متواصلة طيلة فترة الحصار ولم يرد في أي من المراجع التاريخية ما يشير إلى نقص في الإمدادات البحرية طيلة الحصار الأول أو الحصار الثاني للقسطنطينية .

إن التأمين المادي والفني لهذا العدد من القوات والسفن طيلة سبع سنوات يدل على كفاءة عالية في تنظيم الإمداد والتموين البحري في مجرى العمليات البحرية على هذه المسافات البحرية الشاسعة بمواد متنوعة من قواعد متعددة . كما يدل على وفرة في المواد الغذائية والفنية والصناعية والأسلحة والذخائر وسفن النقل الخاصة بذلك، وفوق هذا كله يدل ذلك على خبرة عالية في تنظيم الإقتصاد الحربي والصناعة البحرية الحربية في تلك الحقبة المزدهرة من التاريخ العربي الإسلامي .

وفي وقعة عكا البحرية (١١٩٠م) أثناء حصار الصليبيين لعكا تمكن الأسطول

---

(٨) فهمي ص ٩٥

(٩) فهمي ص ١٠٣

(١٠) فهمي ص ١١٤، ١١٥

المصري من مساعدة قوات صلاح الدين ونقل المؤن والذخيرة إلى المدينة[11] في أشد ظروف القتال البحري والبري كما استخدمت الحيلة والشجاعة في إدخال سفن الامداد إلى داخل ميناء عكا وساعد ذلك القوات العربية على الصمود[12]

وهكـذا كان التـأمين المادي والفني (الإمداد والتموين) منظماً في الأساطيل العربية الإسلامية في السلم وفي مجرى العمليات القتالية البحرية.

---

(١١) خانكي ص ١٥٢، ١٥٣

(١٢) انظر ابن شداد (النودار السلطانية والمحاسن اليوسفية ـ وزارة الثقافة السورية ـ مستخرج من الكتاب الأصلي) ص : ١٨٠ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥

الفصل التاسع عشر

الاستراتيجية البحرية العربية الإسلامية تجاه جزر البحر الأبيض المتوسط

تحتل الجزر في البحر الأبيض المتوسط مواقع هامة من النواحي المختلفة العسكرية والإقتصادية والجغرافية وتنتشر في أجزائه وتساهم في تكوين المضائق والبحار الداخلية.

فجزيرة قبرص تقع على مقربة من سواحل الشام وتهددها بالإغارات على قواعدها وهي قاعـدة ونقطة ارتكاز في حوض المتوسط الشرقي وذات تأثير عسكري كبير على قناة السويس(*) والساحل الشرقي للبحر المتوسط في العصر الحديث.

وجزيرة رودوس (والجزر الصغيرة القريبة منها) تشكل مع جزيرة كريت قوس (كريت رودوس) تتخللها مجموعة من المضائق، تمتد بين جنوب غربي آسيا الصغرى وجنوب شرقي اليونان وتصل بحر إيجه بالبحر المتوسط. ويبلغ طول خط (كريت ـ رودوس) ٣٥٠ ميلاً لكن سطح الماء يشكل فقط ١٠٠ ميل ومن ثم فان جزيرة كريت تتحكم في مدخل بحر إيجه واستطراداً يمتد تأثيرها على مضائق البحر الأسود (البوسفور والدردنيل).

وجزيرة صقلية تقسم المتوسط إلى قسمين شرقي وغربي وتشكل مع البر الإيطالي مضيق مسينا بينها تشكل مع البر التونسي مضيق تونس، وفي نفس الوقت تتحكم بمدخل بحر تيرين (تيران) الذي يحده من الغرب جزيرتا سردينيا وكورسيكا وبالتالي فإن تأثيرها يمتد إلى الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق وقد تنبه العرب إلى الأهمية الاستراتيجية لجزيرة صقلية لتأمين فتوحاتهم في أفريقيا.

(*) كما حدث إبان العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ إذ استخدمت قواعد الجزيرة في الهجوم على مصر

وهكذا نجد أن الجزر تتحكم في مسرح عمليات البحر الأبيض المتوسط ومضائقه وبحاره الداخلية (بحر إيجه ، بحر أيون ، بحر الأدرياتيك . بحر تيران)(**)

وقد بدء أهتمام قادة الدولة الإسلامية بجزر البحر الأبيض المتوسط بهدف تأمين الفتوحات العربية وحماية السواحل والثغور الإسلامية من غارات الروم التي كانت تنطلق من تلك الجزر، لذا احتل معاوية قبرص وأصبحت قاعدة بحرية عربية (سبق ذكره) ، وفي وقت لاحق وبعد حصار القسطنطينية اقتنع طرفا النزاع (الروم البيزنطيون والعرب المسلمون) أن كلاً منهما يشكل قوة يحسب حسابها وأنه أصبح من الصعب على أي من الطرفين مهاجمة أراضي الطرف الآخر، لذا كان لابد من انتقال ميدان الصراع بينهما فنقل إمبراطور الروم عملياته إلى جزيرة صقلية وبالتالي أخذ العرب بمهاجمة الجزر لتهديد ممتلكات الروم في مسرح البحر المتوسط وسيطروا عليها «وقد كان المسلمون بعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه . . . . وملكوا سائر الجزائر المتقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومينورقة (البليار) ويابسة وسردانيا (سردينيا) وصقلية وقوصرة ومالطة وإقريطش و(كريت) وقبرص وسائر مماليك الروم والافرنج[1]

إن دراسة طبيعة الصراع ومراحله بين العرب المسلمين والروم البيزنطيين تقودنا إلى المنطلقات الاستراتيجية للدولة العربية الاسلامية في احتلال جزر البحر الأبيض المتوسط .

أ ـ المواقع الاستراتيجية لتلك الجزر وتحكمها بالمضائق والبحار الداخلية .

ب ـ تأمين الفتوحات العربية ومنع الروم من استخدام الجزر للعدوان على السواحل والثغور العربية .

ج ـ الإنتقال من الدفاع إلى الهجوم ودفع الروم إلى سياسة الدفاع عن قواعدهم وممتلكاتهم . وبالتالي نقل الصراع (بعد معركة ذات الصواري وحصار القسطنطينية) من حوض المتوسط الشرقي إلى حوض المتوسط الغربي .

د ـ ضرب قواعد الروم في الجزر لسد الطريق في وجه أساطيلهم وشل حركتهم

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٤ بند قيادة الأساطيل .

** حول جزر البحر المتوسط ومضائقه وبحاره الداخلية ، واهميتها العسكرية أنظر:
وفيق بركات : الجغرافية البحرية الحربية للبحر الأبيض المتوسط
الروم : يقصد بهم البيزنطيين
الافرنج : يقصد الأوروبيين الغربيين .

البحرية وحرمانهم من قواعد الإمداد ، وإقصاء الروم عن أي مكان تتجمع فيه أساطيلهم لمهاجمة أرض العروبة[٢]

هـ - تحويل الجزر إلى قواعد أمامية ونقاط انطلاق ورؤوس جسور لتوجيه الغزوات العربية إلى الممتلكات البيزنطية في شمال أفريقيا وآسيا الصغرى وإيطاليا وإسبانيا.

و- السيطرة على طرق الملاحة وبالتالي السيطرة الإقتصادية على حوض البحر الأبيض المتوسط.

ز - الاستغلال الإقتصادي للثروات الطبيعية في الجزر وإقامة الصناعات المختلفة لما فيه خير العرب وسكان تلك الجزر.

إن مجمل تلك السياسة قادت الأساطيل العربية إلى الفتوحات الكبرى لنشر الدعوة الإسلامية ورسالة الحضارة والعلوم العربية وتنشيط النقل البحري وتحقيق التقدم الإقتصادي والإجتماعي في جميع بلدان حوض المتوسط.

أما الأسلوب الذي اتبعته الأساطيل العربية الإسلامية في احتلال جزر البحر الأبيض المتوسط فيتلخص بما يلي:

مسالمة أهل الجزر أولاً فإن أبوا فالقتال حتى النصر[٣]كما فعلوا مع أهالي جزيرة أرواد . فعندما عقد معاوية العزم على مهاجمة الجزيرة أعد الأسطول العربي ٢٨ هـ (بعد عودته من الإغارة على جزيرة قبرص في المرة الأولى) ونزل الجنود العرب على شواطيء الجزيرة لكن الأرواديين اعتصموا بقلعة الجزيرة على الرغم من وساطة الأسقف ثوماريخوس (Thomarichos) فسالمهم معاوية فترة وفي العام التالي ٢٩ هـ هجم الأسطول العربي على الجزيرة واحتلها.

وقد رأينا كيف أن معاوية فعل مع أهالي جزيرة قبرص نفس الشيء ففور نزوله في الجزيرة أفهم أهلها أن العرب لم يأتوا طمعاً في جزيرتهم وإنما ليتفقوا معهم على مافيه سلامة الشواطيء العربية الشرقية. وبعد اقتحام مدينة قسطنطينيا (constantina) صالح معاوية أهـالي قبرص على أن يدفعوا جزية بسيطة (٧٢٠٠ دينار) وتعهدوا بألا يساعدوا الروم في إغاراتهم على أراضي الشام[٤]وقد استهدف هذا الأسلوب تحقيق مايلي:

---

(٢) عدوي ص ٣٠

(٣) عدوي ص ٣٠

(٤)عدوي ٢٤


البحر الاسود
نيقية
سالونيكا
أبيدوس
لسبوس
ساموس
اندروس
ناكسوس
انطاليا
رودس
خليج سودا
الخندق
اقريطش
اقريطش وجزر بحر ايجة

أ ـ محاولة كسب ود شعب الجزيرة وان أمكن عدم الدخول في صراع مسلح معه.

ب ـ كسب الوقت للتعرف على طبيعة الجزيرة وطبيعة شعبها واستطلاع الموقف ووصول الإمدادات وخلق الظروف اللازمة لاحتلال قاعدة للإنطلاق وبدء الأعمال القتالية في حال عدم نجاح المفاوضات السلمية.

ج ـ التصميم والمتابعة لتحقيق الهدف.

د ـ اختيار الموقف المناسب والفرص المواتية.

هـ ـ الإغارات المتتالية صيفاً وشتاءً بهدف الإستطلاع ومن ثم احتلال رأس جسر والتمسك به وتحصينه والقفز منه إلى باقي أجزاء الجزيرة أولاً ولإرهاق الخصم ثانياً، وقد اتبع هذا الأسلوب في احتلال جميع جزر البحر الأبيض المتوسط.

ومن الأمثلة الهامة على ذلك احتلال جزر قبرص (سبق دراستها) واقريطش (كريت) وصقلية ومالطة وسردينيا وجزر البليار.

احتلال جزيرة إقريطش (كريت).

تنبه العرب إلى موقع جزيرة إقريطش الاستراتيجي في وقت مبكر لكونها تتحكم في الممرات المائية إلى بحر إيجه وسواحل آسيا ومقدونيا كما تجاور عدداً لايحصى من جزر بحر ايجه (مثل رودوس وسكرينتو وميلوس وساموس وخيوس ولنوس وتاسوس وميتلين) التي تشكل خطاً دفاعياً أمامياً لسواحل الإمبراطورية البيزنطية المطلة على بحر إيجه وبحر مرمرة، ولهذا السبب يتيسر لفاتحي هذه الجزيرة تهديد الإمبراطورية البيزنطية تهديداً مباشراً. هذا بالإضافة إلى أن جزيرة إقريطش غنية بالأشجار التي يمكن أن يستغلها المسلمون في بناء الأساطيل، وغنية بأراضيها الخصبة الممتدة على السهول الساحلية في شمال الجزيرة.

وقد فطن معاوية بن أبي سفيان إلى أهمية هذه الجزيرة فغزاها في أيامه جنادة بن أبي أمية، ولكنها لم تلبث أن خرجت من دائرة النفوذ الإسلامي بعد سنوات قليلة من حركة جنادة على أثر الفشل الذي انتهى إليه حصار المسلمين للقسطنطينية في سنة ٦٠ هـ، ثم غزاها حميد بن معيوف الحمداني الذي ولاه الرشيد سواحل بحر الشام (سنة ١٩٠ هـ) في خلافة هارون الرشيد ففتح جانباً منها[٥] ولكن النفوذ الإسلامي لم يلبث أن انحسر عن

---

(٥) البلاذري ج ١ ص ٢٧٩

الجزيرة مباشرة على أثر رحيل الغزاة ، وظلت جزيرة إقريطش تابعة للبيزنطيين الذين حرصوا على الإحتفاظ بها في قبضتهم بسبب ما تتمتع به من أهمية استراتيجية تكفل لمن تكون في حوزتـه السيطرة الفعلية على مداخل بحر ايجه والتحكم في الجزر الصغيرة الممتدة ما بين سواحل آسيا الصغرى وبلاد الإغريق إلى أن تمكنت قوة من الأندلسيين من احتلالها(٦)

خرج الأندلسيون من الإسكندرية في أربعين سفينة بقيادة أبي حفص عمر بن شعيب البلوطي (وذكره البلاذري : أبا حفص عمر بن عيسى الأندلسي) واتجهوا شمالاً إلى اقريطش ونزلوا في خليج سودا سنة ٢١٢هـ وذكر البلاذري أنهم فتحوا من إقريطش حصناً واحداً (رأس جسر وقاعدة إنطلاق) ثم سموا بعد ذلك ففتحوا إقريطش حصناً حصناً (قفزات عملياتية) (ولم يزل يفتـح شيئـاً بعـد شيء حتى لم يبق فيهـا من الـروم أحـد وأخـرب حصونهم)(٧) حتى أتموا فتحها سنة ٢٣٠ هـ . ونستنتج من ذلك أن الأندلسيين لم يلقوا مقاومة عند نزولهم وأنهم اكتفوا بحصن واحد من حصونها العديدة ثم توسعوا في الفتح بعد أن حصنوه . والظاهر أنهم كانوا يخشون من قيام أهل إقريطش بمحاربتهم في ذلك الحصن فأقـامـوابـه (تحصينـات منيعـة) تحميهم إذا ما غزاهـم البيزنـطيون، وحفـروا حول هذه التحصينات خندقاً وتحول الحصن بمرور الزمن إلى مدينة كبيرة وصل اسمها الينا محرفاً من الخنـدق وهي تعـرف اليوم باسم كانـديا (Candia) ومـا أن اطمأن المسلمون الى حصانة قاعدتهم حتى أخذوا يفتحون المدن والحصون فأتموا فتح الجزيرة بعد ١٨ سنة من نزولهم بها(٨)

وساعد إقريطش على أن تكون قاعدة هامة للأسطول العربي اعتراف ولاتها بالتبعية للخـلافة العباسية وغدت جزيرتهم تابعة لمصر من حيث التقسيم الإداري ، وكفل هذا الوضع السياسي الجديد لإقريطش مكانة عظمى في تاريخ البحرية العربية ، اذ صارت المساعدات البحرية ترد اليها من مصر والشام على حين قام أهلها ببناء أسطول جديد(٩) وفي وقت لاحق قام الأسطول العربي من كريت بإغارات متوالية على جنوب أوروبا وجعل قواتها البحرية مكتوفة الأيدي تماماً(١٠)

---

(٦) عبادي وسالم ص ٤١ تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام

(٧) البلاذري ج ١ ص ٢٧٩

(٨) عبادي وسالم تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والاندلس ص ٦٧

(٩) عدوي ص ٩٨، حول فتح إقريطش راجع أيضاً ابن الأثيرج ٦ ص ١٣٥ و محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ص ٦٧ ـ ٦٩

(١٠) عدوي ص ٩٨

وجـاء استيلاء العرب على إقريطش وتحويلها إلى قاعدة لأسطولهم مفاجأة أذهلت الروم ، ذلك أن ضياعها من أيديهم أدى إلى انهيار خططهم البحرية في شرق البحر الأبيض المتوسط .

وخلال سنوات السيطرة العربية على جزيرة كريت حاول الروم البيزنطيين استرداد الجـزيرة من العـرب مراراً ، كما قامت السفن العـربية بغارات على سواحل تراقيا وجزر السيكلاديز . وفي عام ٨٣٩ م دمر عرب كريت الأسـطول البيزنطي قرب جزيرة تاسوس . وفي عام ٩٠٤ م وجهت كريت أقصى ضرباتها على الإطلاق اذ اشترك ليوالطرابلسي مع بعض السفن الكريتية في القيام بغارة واسعة النطاق على سالونيك وهي المدينة الثانية في الإمبراطورية وسارت قاذفات اللهب(*)في طليعة هذا الأسطول مما جعل الغزو ناجحاً تماماً وأسر العرب المسلمون من سكان المدن عدداً يبلغ ٢٢٠٠٠ نسمة اقتيدوا إلى مختلف الأقطار الإسلامية . وقد آلمت هذه الغارات القسطنطينية ودفعتها إلى القيام بعمل بحري يكون أشد انتقاماً فتحركت حملة بحرية كبيرة (٩١٠ م) صوب كريت ولكنها لاقت فشلاً ذريعاً وبقيت مدينة (كاندي) مركز تهديد مستمر للنفوذ البيزنطي في بحر إيجه[١١]

وبقيت كريت جزيرة عربية حتى عهـد الإمبراطور رومان الثاني وظل المسلمون في إقـريطش يشكلون خطراً جدياً على الـدولـة البيزنطية فترة طويلة من الزمن حتى هاجم البيزنطيون في (٧ آذار ٩٦١م) بقيادة نقفورفوقاس مدينة الخندق فسقطت بعد هجوم شامل سالت فيه دماء الفريقين وتساقطت فيها بعد بقية المعاقل الأخرى[١٢]

إن دراسة معركة كريت من وجهة نظرفن الحربالبحرية تقودنا إلى الإستنتاجات التالية :

أ ـ تم تقدير قيمة الموقع الاستراتيجي للجزيرة وثروتها الطبيعية الاستراتيجية في وقت مبكر من عهد الدولة العربية الإسلامية .

ب ـ طبق العرب أسلوب الإغارات المتتالية لاستطلاع الموقف في الجزيرة والطرق إليها وإرهاق الخصم .

ج ـ تم احتلال رأس جسر وقاعدة انطلاق للقوات واستقبال الإمدادات .

---

(١١) خربوطلي ٨٣

(١٢) عبادي وسالم (البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ص ٩٣ ـ ٩٤ (تفاصيل المعارك بين عرب اقريطش والبيزنطيون ص ٦٧ ـ ٨٢) مع ملاحظة أن نقفور أصبح إمبراطوراً فيها بعد .

★ وهي تمثل سفن المدفعية في الظروف الحديثة وقد استخدمت في تلك الأوقات كما تستخدم اليوم .

د ـ حصنت قاعدة الإنطلاق (الحصن) للدفاع ضد هجمات البيزنطيين وطبقوا مبادىء الدفاع الساحلي مما تسبب في فشل العديد من الإغارات الرومية.

هـ ـ طبق مبدأ القفزات العملياتية من موقع إلى موقع حتى تم احتلال الجزيرة.

و ـ تكونت لديهم خبرة في الحرب البحرية وأخذوا يغيرون من كريت على الجزر الرومية الأخرى لتعزيز الموقف في الجزيرة والمساهمة في بسط النفوذ العربي في حوض المتوسط، وطبقوا مبدأ معروفاً في الحرب الحديثة وهو تسيير قاذفات اللهب (سفن المدفعية والصواريخ حديثاً) في مقدمة القوات البحرية للدفاع ضد سفن الروم التي قد تهاجم وهو ماطبق في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) و الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥)(**) والحروب الإقليمية الحديثة.

ح ـ كان التصميم والحسم والتخطيط السليم المتلائم مع الموقف وإعداد القوى اللازمة للمراحل المقبلة عناصر بارزة في كل مراحل احتلال الجزيرة.

ط ـ أقاموا صناعة حربية لبناء السفن استخدموها في غزو الجزر الأخرى والتعامل التجاري عبر المتوسط واستغلوا الموارد الطبيعية الاستراتيجية في الجزيرة للأغراض الإقتصادية والعسكرية.

★ أسرة الأغالبة نسبة إلى ابراهيم بن الأغلب الذي ولاه الخليفة هارون الرشيد على شؤون المغرب سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠م وأطلق يده في شؤون الولاية فوجه همه إلى القضاء على الفتن ليستطيع التفرغ لبناء مجد بحري له ولأسرته، من أبنائه: عبد الله الأول زيادة الله الأول الذي أسس أسطولاً قوياً مرهوب الجانب.

★★حول استخدام المدفعية في الحرب العالمية الثانية في كل أنواع العمليات البحرية أنظر:
وفيق بركات: تاريخ فن الحرب البحرية لأساطيل الدول الرأسمالية في الحرب العالمية الثانية (مترجم).

فتح صقلية :

إن اتخاذ العباسيين بغداد عاصمة لهم قد شجع ولاة المغرب على الإستقلال الذاتي بشؤونهم عن الخلافة ثم الإنفصال فيما بعد عن السلطة المركزية في بغداد . وعمد أولئك الولاة إلى تدعيم سلطانهم بتقوية مركزهم الحربي ولاسيما بناء الأساطيل التي تعد العمود الفقري لأية هيئة تريد الإحتفاظ بهيبتها في تلك الجهات البحرية ، وتعد أسرة الأغالبة نموذجا لتلك السياسة الإنفصالية التي سادت كيان الدولة الإسلامية زمن العباسيين ، وما ترتب على هذه الظاهرة من نشاط بحري قوي(١٣) لم يترك أي تأثير سلبي في سياسة العرب البحرية تجاه الشطر الغربي من البحر الأبيض المتوسط وإنما زاد النشاط البحري العربي قوة ومنعة .

ومنذ ظهرت الأساطيل البحرية العربية في شمال أفريقيا والأساطيل تخرج من تونس ومن جزيرة قوصرة للمساهمة في الإغارات البحرية على جزيرة صقلية لأسباب عسكرية واقتصادية وسياسية ودينية(١٤)

وتعد بداية فتح الأغالبة لصقلية في سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) من الأحداث البارزة في تاريخ البحرية الإسلامية إذ ترتب على فتحها على أيدي المسلمين انتقال السيادة في حوض المتوسط الغربي إلى المغرب الإسلامي لأنها أكبر جزر البحر الأبيض المتوسط مساحة وأغناها اقتصاداً وأفضلها موقعاً لكونها تقع في البحر بين ساحل إيطاليا الجنوبية وساحل أفريقيا ، وبذلك تقسم البحر المتوسط إلى قسمين : شرقي وغربي ، ثم بحكم قربها الشديد من إقليم ريو وقلورية بجنوب إيطاليا من الجهة الشمالية الشرقية ولايفصلها عنه من هذه الجهة سوى مضيق مسيني (مسينا) وقربها أيضاً من السواحل الأفريقية وجزيرة قوصرة(*) من الجهة الجنوبية الغربية ، وهو موقع يفسر لنا كثيراً من الأحداث التاريخية التي مرت بها البلاد التونسية ، كنزول البيزنطيين على سواحل أفريقيا في مرحلة الغزوات العربية الأولى على فترات متقطعة مما سبب امتداد حركة الفتح العربي زمنياً ، ومثل تعرض أفريقيا للغزو النورماني وقيام الأغالبة (ثم الفاطميين من بعدهم فالزيريين) بغزو جنوب إيطاليا وسواحل البحر الأدرياتي من قاعدتهم بصقلية ، يضاف إلى ذلك التواصل بين الحضارتين اللاتينية والإسلامية وتأصل

---

(١٣) عدوي ص ٧٦

(١٤) حول اسباب فتح المسلمين لصقلية أنظر عبادي وسالم : البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ص ٩٨ حتى ١٠٤

التقاليد الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا زمناً حتى بعد سقوط الجزيرة في أيدي النورمان[١٥]

وقد تنبه العرب إلى الأهمية الاستراتيجية لصقلية وأدركوا ضرورة فتحها لتأمين فتوحهم في أفريقيا وتعرضت هذه الجزيرة لعدة غزوات عربية قبل احتلالها، ففزاها عبد الله بن قيس الفزاري بتكليف من معاوية بن حديج (في خلافة معاوية بن أبي سفيان) (سنة ٤٦ هـ/٦٦٦م) [١٦]وغنم المسلمون غنائم كثيرة منها أصنام من الذهب والفضة مكللة بالجوهر ثم غزاها عقبة بن نافع في البحر بأهل مصر في سنة ٤٩ هـ، ثم غزاها عطاء بن رافع الهذلي أيضاً في مراكب أهل مصر سنة ٨٣هـ وغزاها عياش بن أخيل في ولاية موسى بن نصير في أسطول المغرب وهاجم سرقوسة وغنم منها وتوالت عليها غزوات المسلمين بعد ذلك ففزيت في سنة ١٠٢ هـ في ولاية يزيد بن أبي مسلم، وفي سنة ١٠٩ هـ غزاها بسر بن صفوان بنفسه في خلافة هشام بن عبد الملك، ثم غزاها المستنير بن الحارث الحريثي سنة ١١٣ هـ وغزاها حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع في سنة ١١٦هـ، وغزاها في العام التالي ثم غزاها للمرة الثالثة في سنة ١٢٢هـ مع ابنه عبد الرحمن بن حبيب وغزاها عبد الرحمن بن حبيب سنة ١٣٥ هـ أيام إمارته على أفريقيا.

إن الغارات المتواصلة التي تعرضت لها صقلية من سنة ٤٦ هـ حتى سنة ١٣٥هـ كانت تجارب مفيدة للمسلمين وتدريباً ميدانياً بحرياً لهم. وبفضلها تمكنوا من دراسة هذه الجزيرة ودرسوا سكانها واقتصادها ثم كان لاستيلاء المسلمين على قوصرة (بانتلاريا اليوم) الواقعة في منتصف المسافة بين صقلية وساحل أفريقيا حوالي سنة ١٣٠ هـ على يد عبد الرحمن ابن حبيب الفهري (بعد محاولتين سابقتين في ٨٨ هـ على يدي عبد الملك بن قطن والثانية في سنة ١١٨ هـ على يدي حبيب بن أبي عبيدة) أعظم الأثر في اتخاذها قاعدة أمامية (متقدمة) للدفاع عن ساحل تونس وتوجيه الغارات على صقلية وسردانيا (سردينيا) وغيرهما[١٦]

وأثبتت تلك الإغارات المتكررة مدى إدراك العرب لخطورة قاعدة الروم في جزيرة صقلية وضرورة انتزاعها من أيديهم[١٧]ولم يبق أمام العرب غير انتهاز الفرصة المؤاتية لتحقيق حلمهم البحري القديم بالإستيلاء على صقلية واتخاذها قاعدة لأسطولهم.

---

(١٥) خربوطلي ص ٨٤ (حول النورمان: انظر فتح مالطة).

(١٦) عبادي وسالم (تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس، ص ٩٥ ـ ٩٦

(١٧) عدوي ص ٧٧

وساعدت الأحوال في الجزيرة على تحقيق سياسة زيادة الأول حيث نشب نزاع بين إمبراطور الروم ميخائيل الثاني وبين والي صقلية يوفيموس (EUPHEMUS) ويذكر في بعض المصادر (فيمي) وسبق له الإغارة على شواطيء أفريقيا. وعندما علم ذلك الوالي أن الامبراطور قد سير أسطولاً للقبض عليه. فر إلى سرقوسه الواقعة على ساحل صقلية الشرقي وأرسل بطلب النجدة والمساعدة من زيادة الله الأول[18] وبذلك أتاحت الظروف للأسطول الأغلبي التدخل في شؤون تلك الجزيرة الهامة (أكبر جزر البحر الأبيض المتوسط).

كان زيادة الله يسعى إلى ترغيب الناس في غزو صقلية واكساب الحملة طابعاً من الجهاد في سبيل الله فولى أسد بن فرات قاضي القيروان إمارة الجيش[19] المكلف بغزو الجزيرة.

خرج أسد بن الفرات من القيروان في حشود قوامها عشرة آلاف من الرجالة وسبعمائة من الفرسان بأفراسهم متوجهاً إلى سوسة ليركب منها إلى صقلية (انتشار عملياتي) وخرج معه وجوه أهل العلم وعدد كبير من الأهالي لتوديعه.

أقلع الأسطول الإسلامي من مدينة سوسه يوم السبت ١٥ من شهر ربيع الأول سنة ٢١٢ هـ (١٤ حزيران سنة ٨٢٧م)[20] وكان مكوناً من سبعين مركباً (وقيل مئة مركب) بالإضافة إلى مراكب فيمي التي لجأ بها طلباً للنجدة[*] فوصلت الأساطيل إلى بلدة مازر (Mazara) في يوم الثلاثاء أي بعد ثلاثة أيام إبحار من سوسه ، ومازر هي أقرب مدن صقلية إلى سوسه وكان لفيمي أنصار عديدون فأمر أسد بإنزال الخيل والجنود من المراكب وأقام ثلاثة أيام ثم سار جيش المسلمين نحو سهل بلاطه ماراً بعدد من القلاع ثم أرض المعركة التي سميت باسم بلاطة نسبة إلى صاحب صقلية. وأقبل بلاطة في جيش عدته ١٥٠ ألف مقاتل فخطب أسد في الناس وهو يحمل اللواء: « هؤلاء هم عجم الساحل هؤلاء عبيدكم، لاتهابوهم» ثم كبر المسلمون وحملوا مع قائدهم حتى هزموا بلاطه الذي فر إلى قلوريه (calabria) بجنوبي إيطاليا فقتل بها[21] ثم تقدم أسد نحو سرقوسه وألقى عليها الحصار ، غير أن أسطولاً للروم خف لنجدة تلك المدينة وجعل الحصار العربي مهمة شاقة ، ثم أن وباء

★ قوصرة : اسم يوناني قديم (cussyra) معناه السلة أو السفط أو الزنبيل نظراً لأن شكلها يشبه السلة

(١٨) المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٤٢٧ ـ ٤٢٩ العدوي ص ٧٨

(١٩) عبادي وسالم (تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس) ص ١٠٥

(٢٠) المرجع السابق ص ١٠٥

(٢١) عبادي وسالم ص ١٠٧

انتشر في المعسكر العربي قضى على أسد بن فرات القائد العام سنة ٢١٣ هـ وعدد كبير من الجيش[٢٢] في الوقت الذي أخذت ترجح فيه كفة البيزنطيين وأخذت سفن القسطنطينية والبندقية تتعاون فيما بينها للقضاء على المسلمين بينما أخذت مؤنهم وأقواتهم في النفاذ. ومع ذلك عزم المسلمون على مواجهة الأخطار والتغلب عليها، فاختاروا واحداً منهم قائداً عليهم هو محمد بن أبي الجواري لمعالجة الموقف وتخليصهم من المأزق الذي هم فيه تمهيداً للعودة إلى بلادهم. وكانت أنباء وصول الأسطول البيزنطي قد وصلت إلى مسامع المسلمين، فعزموا على ركوب سفنهم والعودة إلى أفريقيا، فرفعوا الحصار عن سرقوسه وأصلحوا مراكبهم وشرعوا في الإقلاع. لكن مراكب البيزنطيين والبنادقة تصدت لهم على باب المرسى ومنعتهم من الخروج ورأى المسلمون أن اقتحامهم لهذا الحصار البحري يعد ضرباً من التهور الذي يصل إلى حد التهلكة فتراجعوا بسفنهم إلى المرسى وأحرقوا هذه السفن حتى لايظفر بها البيزنطيون[٢٣] واستقر عزمهم على القتال حتى الشهادة أو النصر.

وبعد معارك كثيرة ساءت من جديد أحوال جيش المسلمين الذين وقعوا في الحصار وتوفي قائدهم ابن الجواري سنة ٢١٣ هـ واستلم القيادة من بعده زهير بن أبي غوث. وفي تلك اللحظات الحرجة وصل إلى مياه صقلية سنة ٢١٤ هـ أسطول أندلسي يتألف من قطع كثيرة العدد، وفي نفس الوقت أقبلت مراكب عديدة من أفريقيا لإمداد المسلمين فبلغ عدد السفن الأندلسية والأفريقية ثلاثمائة مركب[٢٤] وهكذا فإن وصول الأسطول الأندلسي قد أنقذ جيش الأغالبة وقواتهم البحرية من المأزق الذي حل بهم[٢٥].

ثم جاءت النجدات من تونس وساعدت الأسطول الأغلبي في الإستيلاء على بالرم (أو بالرمو (Palermo) سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م بعد حصار دام عام[٢٦] وقد هيأ سقوط بالرمو قاعدة هامة للأسطول العربي في صقلية بسبب موقعها الاستراتيجي (وهي في الأصل مستعمرة

---

(٢٢) عدوي ص ٧٩

★ يشبه فتح المسلمين لصقلية فتحهم للأندلس، فكما أن استنجاد فيمي القائد البحري البيزنطي بزيادة الله كان سبباً مباشراً في إغراء زيادة الله على فتح صقلية كان استنجاد يليان (صاحب سبتة) بموسى بن نصير سبباً مباشراً في جواز قائده طارق بن زياد إلى الأندلس (انظر: د. سيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٦٧، المغرب الكبير ص ٣٨٧).

(٢٣) عبادي وسالم ص ١٠٩

(٢٤) عبادي وسالم ص ١١١ «.. البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس..».

(٢٥) ابن عذارى ج ٢ ص ٩٦، ٩٧ (البيان المغرب في أخبار المغرب).

(٢٦) ابن الأثير الكامل ج ٦ ص ١٢٤

أنشـأهـا الفنيقيون[27] ولـذا غدت قاعدة بحرية تساعد القوات العربية على تلقي الإمداد والزحف منها على سائر جزيرة صقلية.

وتابع الأغالبة سياستهم البحرية تجاه صقلية. برغم المتاعب الجمة التي واجهتهم فاستولوا سنة ٢٢٩ هـ ٨٤٣م على ميناء مسينا برغم شدة مقاومة الروم[28]

وتجلى نشاط الأغالبة البحري في سنة ٢٤٤ هـ حين سار أسطولهم لمنع سفن الروم من الإقتراب من سرقوسه وكان عدد سفن الروم أربعين مركباً حربياً استطاع الأسطول الأغلبي أن يهزمها ويأسر منها عشرة برجالها. وانتهت محاولات الروم للدفاع عن سرقوسه في سنة ٢٦٥ هـ ٨٧٨ م اذ بعثوا أسطولاً ضخماً مكوناً من ثلاثمائة سفينة كبيرة ألقت مرساها في ذلك الميناء الهام غير أن أسطول الأغالبة فاجأ سفن الروم وغنم منها مئة[29] وفي سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م سقطت طرمين (Tauromenium) آخر الحصون الساحلية الهامة في جزيرة صقلية وتم للأغالبة السيادة التامة على تلك الجزيرة العظمى، وهكذا افتتح المسلمون جميع مدن وقلاع صقلية بعد حروب دامت نحو ١٣٨ سنة[30]

ونستخلص من معارك احتلال جزيرة صقلية النتائج التالية من وجهة نظر فن الحرب البحرية:

أ ـ تم تطبيق التعاون بين الأساطيل العربية (الاسطول الأندلسي وأسطول الأغالبة مما أدى إلى تحقيق النصر).

ب ـ اغتنمت القيادة العربية الإسلامية الموقف السياسي والموقف العسكري المناسبين واستغلت نقاط الضعف لدى الخصم نتيجة للخلافات الناشئة.

ج ـ أدرك العـرب في وقت مبكـر من التاريخ الإسلامي أهمية الموقع الاستراتيجي للجزيرة من الناحيتين العسكرية والإقتصادية.

د ـ طبق مبدأ الإنتشار العملياتي للقوات.

هـ ـ تم احتلال الجزر القريبة من المسرح الرئيسي كقواعد متقدمة للإمداد والإنطلاق، ومن ثم أصبحت صقلية كلها قاعدة للإنطلاق إلى إيطاليا والأدرياتيك.

---

(٢٧) علوي ص ٧٩

(٢٨) عدوي ص ٨٠

(٢٩) علوي ص ٨٠

(٣٠) عبادي وسالم ص ١١٩

و ـ كانت الغارات كثيفة في عددها وعدد السفن وعدد القوات المشتركة في عملية الاحتلال مما يدل على قوة دولة الأغالبة[31].

ز ـ الفترة الزمنية الطويلة التي استغرقتها العملية (١٣٨)سنة [32].

ح ـ استخدم الحصار البحري.

ط ـ اللجوء إلى حرق السفن لحرمان العدو من استخدامها.

ي ـ القدرة الكبيرة في اقتحام الحصون.

ك ـ كانت عناصر التصميم والحسم والشجاعة بارزة في كل مراحل العملية.

ل ـ كانت دوافع الاحتلال هامة ومتعددة:

ـ عسكرية : بحكم الموقع الاستراتيجي.

ـ سياسية: لاستكمال بسط النفوذ العربي في حوض المتوسط.

ـ دينية : بحكم النزعة إلى الجهاد في سبيل الله.

ـ اقتصادية : بحكم الموارد الطبيعية الكثيرة وحركة التبادل التجاري في المنطقة.

م ـ إن انتقال الأساطيل بحراً واستمرار تعزيزها وامدادها بالعتاد والغذاء والتجهيزات لتلك الفترة الطويلة يدل على المستوى الجيد للتنظيم البحري في دولة الأغالبة.

فتح مالطة

جزيرة مالطة من أهم جزر الأرخبيل المالطي (مثل جزيرة عودش ومكونه ونموشه) باعتبارها أكبر هذه الجزر بالإضافة إلى كونها جزيرة عامرة كثيرة الخيرات حسنة الموقع ، حتى أنها اعتبرت هي وصقلية من المعالم الهامة في التاريخ البحري الإسلامي ومفتاح حوض البحر الأبيض المتوسط الأوسط والغربي[33]وقد عرف المسلمون بفضل افتتاحهم لهاتين الجزيرتين كيف يهددون إيطاليا كلها ويسودون البحر التيراني ويفتتحون أجزاء هامة من إيطاليا.

وتم افتتاح الأغالبة لجزيرة مالطة في سنة ٢٥٥ هـ في إمارة أبي الفرانيق محمد ابن أبي ابراهيم أحمد[34]وبفتحها تأكدت سيطرة المسلمين الكاملة على المضائق الواقعة بين جزيرة

---

(٣١) راجع في فتح صقلية ودولة الإسلام بها: ابن الأثير ج ٦ ص ١١٣ ـ ١١٥ وابن خلدون ج ٤ ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ـ ٢١١ ، ومعجم ياقوت تحت كلمة صقلية

(٣٢) راجع مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام : محمد عبد الله عنان ص ٦٩ ـ ٧٣

(٣٣) عبادي وسالم (تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ص ١٢١

(٣٤) حربوطلي ص ٨٦ ، د. فتحي عثمان . الحدود الإسلامية البيزنطية ج ٢ ص ١٩٢

صقلية وأفريقيا . وقد حاول البيزنطيون استردادها في العام الثاني فحاصروها بأساطيلهم ، ويذكر ابن الأثير أن محمد بن خفاجة بن سفيان والي صقلية سير لفتحها جيشاً في سنة ٢٥٦هـ وكان البيزنطيون يحاصرونها فلما بلغهم إقبال المسلمين رحلوا عنها. وأنشأ فيها الأغالبة داراً لصناعة السفن من أشجار الصنوبر التي تكثر فيها . وأصبحت على هذا النحو قاعدة بحرية هامة للأغالبة في البحر المتوسط.

ثم حاول البيزنطيون استرجاع مالطة بعد سنة ٤٤٠هـ (١٠٤٨ م) ولكن المسلمين قاتلوهم وتغلبوا عليهم. وظلت مالطة جزيرة إسلامية إلى أن غزاها النورمان(٣٥) في سنة ٤٨٣هـ (١٠٩٠ م) ولكن خضوع هذه الجزيرة للنورمان لم يقض على طابعها الإسلامي الذي تأصل ورسخت قواعده منذ أن فتحها الأغالبة والأثر العربي واضح في لغة أهل مالطة وفيما تبقى من أسماء مواضع ، منها ثلاثة أماكن يسمى كل منها باسم الرباط مما يدل دلالة واضحة على تعدد نظام الروابط في هذه الجزيرة وهونظام دفاعي انتقل اليها من سواحل أفريقيا في عصر الأغالبة.

فتح سردانية (سردينيا):

تقع جزيرة سردانية في منتصف حوض المتوسط الغربي بين شبه جزيرة إيطاليا وشبه جزيرة إيبريا (إسبانيا) من جهة وبين ساحل فرنسا الجنوبية وسواحل المغرب العربي الإسلامي من جهة أخرى وهي مع جزيرة كورسيكا . بمثابة القلب بالنسبة لحوض المتوسط الغربي وتطلان معاً على بحر تيران ومضيق تونس وبحر ليجورين (شمال كورسيكا بين إيطاليا وفرنسا) وتتحكمان عسكرياً بهذه المنطقة بحكم موقعهما المتوسط بين إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وسواحل شمال أفريقيا بالاضافة إلى إطلالة جزيرة سردانيا على حركة السفن بين جبل طارق ومضيق تونس.

ومن هنا جاء اهتمام قادة البحرية الإسلامية بهذه الجزيرة ، وقد شرع المسلمون في غزوها سنة ٩٢ هـ في ولاية موسى بن نصير ثم غزاها عبد الله بن الحجاب سنة ١١٧هـ

---

(٣٥) النورمان /Normands/ قوم جاؤوا من شمالي أوروبا في القرن التاسع احتلوا شرقاً بلاد سمولنسك وكييف وظهروا أمام القسطنطينية واجتاحوا غرباً بلاد فرنسا وانكلترا . أسسوا امارات في جنوب ايطاليا وفي صقلية سماهم العرب (المجوس) انظر المنجد في اللغة والآداب والعلوم ص ٥٤٣

وعاود المسلمون غزوها في أيام عبد الرحمن بن حبيب الفهري سنة ١٣٥ هـ وصالحوا أهلها على الجزية ، وظلت بعد ذلك آمنة من الغزو الإسلامي حتى سنة ٢٠١ هـ حيث قام البيزنطيون خلال تلك الفترة بتعميرها وحصنوها بالقلاع . وفي سنة ٢٠١هـ غزاها الأغالبة كما أعادوا غزوها سنة ٢٠٦ هـ بقيادة محمد بن عبد الله التميمي لكنه لم يفتحها .

وفي سنة ٣٢٣ في خلافة المنصور بن القائم الفاطمي تعرضت الجزيرة لغزوة بحرية تمكن فيها أسطول المهدية من فتحها وأحرق المسلمون عدداً من مراكبها.

ولم تفتح سردانيا إلا في ربيع الأول سنة ٤٠٦ هـ (أيلول ١٠١٥م) عندما غزاها أبو الجيش الموفق مجاهد العامري صاحب دانيه والجزر الشرقية (البليار) في ١٢٠ مركباً حمل فيها ثمانية آلاف فارس يقودهم أبو خروب كبير البحريين.

ومن جزيرة سردانيا شن مجاهد غاراته على سواحل غرب إيطاليا وغزا مدينة لوني الإيطالية الواقعة على خليج سبتزيا في شمال نهر ماجرا واستولى عليها واتخذها مركزاً لتحركاته في شمال غرب إيطاليا وقاعدة لمهاجمة بيشه وجنوه وغيرهما من الموانيء الهامة المطلة على خليج جنوه بأقصى شمال البحر التيراني.

وقد أثارت غارات مجاهد مخاوف سكان فرنسا فتعاون الجنويون والبيشيون والفرنجة على إعداد أسطول ضخم وهاجموا أسطول مجاهد وساعدتهم الطبيعة والعواصف الهوجاء وخسر مجاهد معظم قطع أسطوله[٣٦]

فتح جزر البليار(*)

وهي مؤلفة من ثلاثة جزر ميورقة (وهي أكبرها) ومنورقة ويابسة (وهي أصغرها)وأول من غزاها موسى بن نصير سنة ٨٩ هـ[٣٧]ثم غزاها الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٣٤ هـ[٣٨]فأغزى أسطولاً من ٣٠٠ مركب وفتح جزائرها فكتب إليه أهلها راغبين في صفحه فأعطاهم ذمته وجدد لهم عهده وفي سنة ٢٩٠ هـ تمكن عصام الخولاني من إعادة فتح هذه الجزر وتسلم ولايتها ثم تولاها ابنه عبد الله الذي أقبل على التعبد وأبحر إلى المشرق للحج

---

(٣٦) عبادي وسالم (تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب واالاندلس) ص ١٢٢ حتى ١٢٥

★ عرفت في بعض المراجع باسم الجزائر الشرقية وكذلك الجزر الشرقية

(٣٧) عبادي وسالم (تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس)ص ١٢٥

(٣٨) عبادي وسالم (تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والاندلس) ص ١٢٥

فبعث الخليفة عبد الرحمن الناصر إليها الموفق من فتيانه فأنشأ الأساطيل وغزا بلاد الفرنج ، ثم تولاها من بعده كوثر الفتى في ٣٥٩هـ فجرى على سنن الموفق في الجهاد البحري . فلما توفى كوثر في سنة ٣٨٩ هـ في حجابة المنصور محمد بن أبي عامر وليها مقاتل الفتى وكان كثير الجهاد والغزو وكان المنصور والخليفة المؤيد يمدانه في جهاده وتوفي في سنة ٤٠٣ هـ في زمن الفتنة التي أعقبت سقوط الخلافة الأموية بقرطبة(٣٩)

كانت هذه الجـزر القريبة من إسبانيا وفرنسا موضع اهتمام القادة المسلمين وقاعدة انطلاق لغزواتهم وجهادهم البحري لفترة طويلة من الزمن نظراً لموقعها الأستراتيجي الهام من الناحيتين العسكرية والإقتصادية .

وهكذا أحكم العرب المسلمون بفتوحهم في صقلية وإقريطش ومالطة وقوصرة وجزر البليار وسردينا سيطرتهم البحرية في حوض البحر المتوسط الأوسط والغربي . وقد أتاح لهم فتح هذه الجزر تأسيس دور لصناعة السفن في الخالصة وبلرم (بالرمو حالياً)ومسيني (مسينا) وفي قوصرة ومالطة وكذلك إقامة قواعد بحرية في تلك الجزر لشن غاراتهم المتواصلة على سواحـل إيطاليا الجنوبية والغربية والشمالية الشرقية وعلى سواحل فرنسا الجنوبية ، وتمكن المسلمون في بعض الفترات ـ بفضل سيطرتهم على تلك الجزر من الإستيلاء على أجزاء هامة من شبه جزيرة إيطاليا وهاجموا روما نفسها وأرغموا البابا يوحنا الثامن على دفع جزية سنوية قدرها خمسة وعشرون ألف مثقال ذهب، وبذلك أصبحت للمسلمين في القرنين الثالث والرابع (هجري) الغلبة على غيرهم من القوى البحرية في هذا القسم الغربي من حوض المتوسط . وفي ذلك يقول ابن خلدون : «والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر ، وصارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة والعساكر الإسلامية تجيز البحر في الأسـاطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية فتوقع بملوك الإفرنج وتثخن في ممالكهم كما وقع في أيام بني الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم الى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لايعدونها وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد على فريسته وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً واختلف في طرقه سلماً وحرباً(٤٠)

ويوضح هذا كله بجلاء إدراك المسلمين في وقت مبكر من تاريخهم العسكري أهمية مواقع جزر البحر المتوسط من النواحي العسكرية والإقتصادية والسياسية والجغرافية .

---

(٣٩) عبادي وسالم : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والاندلس ص ١٢٦

(٤٠) مقدمة ابن خلدون قيادة الأساطيل ص ٢٥٤

خاتمة

ـ دراسة تاريخ الحروب البحرية والمعارك والغزوات التي خاضتها الأساطيل العربية خلال بضعة قرون من الزمن والتأمل في البنود التي درسناها في هذا البحث تقودنا إلى استخراج خصائص الأساسية التالية لفن الحرب البحرية عند العرب والعوامل الأساسية لنجاح الأساطيل العربية الاسلامية في فتوحاتهم :

١ ـ النمو المتزايد لأبعاد الصراع في البحر، إذ خاضت الأساطيل البحرية عمليات بحرية كبيرة على مسافات بعيدة من قواعدها وشواطئها وفي مسارح عملياتية بحرية شاسعة.

ب ـ كان الهجوم هو النوع الأساسي للأعمال القتالية البحرية العربية الإسلامية حتى حدوث الإنقسامات وبداية الغزو الصليبي ومنذ أيام معاوية طبق في ذلك الوقت مبدأ معروف في العصر الحديث (الهجوم أفضل وسيلة للدفاع).

ج ـ طبق مبدأ الحشد البحري على نطاق واسع وروعي الإستخدام الكثيف للسفن في العمليات البحرية الرئيسية مثل : معركة ذات الصواري وحصار القسطنطينية[1]

د ـ استخدمت الأساطيل بعض تراتيب قتال القوات البرية كما استخدمت بعض أساليب قتالها وأسلحتها.

هـ ـ عرفت الأساطيل العربية مبدأ التأمين العملياتي مثل التموية والسرية وكذلك الإستطلاع والإستطلاع بالقوة[2] لجمع المعلومات عن العدو قبل القيام بالأعمال القتالية واستخدموا في بعض الأحيان حملات بحرية استطلاعية (كما حدث قبل حصار القسطنطينية).

و ـ طبق مبدأ التعاون على نطاق واسع بين الأساطيل البحرية وبينها وبين القوات البرية وكان تنظيم التعاون وتنظيم قيادات القوات المتعاونة من العوامل الأساسية في إحراز النصر.

---

(١) استخدم في حرب القسطنطينية حوالي ٢٠٠٠ سفينة حربية من قبل العرب وحدهم بينما بلغ عدد السفن التي استخدمها جميع الدول المتحاربة في الحرب العالمية الاولى ٣٠٠٠ سفينة وفي الحرب العالمية الثانية حوالى ٤٠٠٠ سفينة (فن الحرب البحرية لأساطيل الدول الرأسمالية في الحرب العالمية الثانية . ترجمة وفيق بركات).

(٢) الاستطلاع بالقوة : هو الاستطلاع باستخدام قوة محدودة والاشتباك مع العدو ولجمع معلومات عنه في أرض المعركة (مواقعه، أسلحته، اسلوب قتاله وغيرها) وذلك عند عدم التمكن من الحصول على المعلومات اللازمة بالوسائل الأخرى.

ز ـ خاضت الأساطيل العربية كل أنواع العمليات المعروفة في الحرب البحرية الحديثة (عملية تدمير قوات العدو في البحر، عملية تدمير قوى العدو في القواعد، عملية قطع خطوط المواصلات البحرية المعادية، عملية الإنزال البحري، عملية صد الإنزال البحري).

ح ـ خاضت الأساطيل العربية العمليات البحرية المستقلة والعمليات البحرية البرية المشتركة.

ط ـ كانت مبادىء الحسم والتصميم وتحديد الهدف بدقةٍ واضحةً في تخطيط العمليات البحرية وتنفيذها.

ي ـ تطور بناء السفن الحربية والأسلحة البحرية وكثافة صناعتها طبقاً لمتطلبات الموقف العسكري وطبيعة الصراع.

ك ـ تطور الفكر الاستراتيجي والعملياتي البحري وبصورة عامة تطور فن الحرب البحرية ـ العربي الإسلامي

استناداً للخبرات المكتسبة في العمليات البحرية وتطور الفتوحات البحرية واتساع مجالاتها، وكانت العمليات البحرية أفضل طرق التدريب (تدريب ميداني).

ل ـ اتبعت القيادات السياسية ـ العسكرية الإسلامية مبدأ الضربات المتتالية لاستطلاع الموقف وإرهاق العدو واحتلال رؤوس جسور وقواعد للإنطلاق منها.

م ـ كانت الصلابة والشجاعة والصبر والحسم والتصميم سماتٍ مميزةً لقيادات الأساطيل العربية الإسلامية وبحارتها.

ن ـ التطعيم الدائم بالمعركة البحرية: إذ كانت معارك العرب البحرية وغزواتهم وفتوحاتهم شبه مستمرة، لذا اكتسب القادة والبحارة العرب الحس البحري وتمرسوا على القتال البحري الذي أصبح جزءاً لايتجزأ من حياتهم وتقاليدهم واكتسبوا خلاله الخبرات الكافية، وهذا كله كان من العوامل الأساسية لتحقيق انتصاراتهم الكثيرة.

ب ـ العوامل الأساسية لنجاح الأساطيل العربية الإسلامية في فتوحاتها

أ ـ ارتباط القتال في البحر بالجهاد فيه والإلتزام العقائدي برسالة الإسلام ورسالة الحضارة العربية.

ب ـ توفر المواد الإقتصادية والصناعية والخبرة واليد الماهرة ودور الصناعة القادرة على جميع أنواع السفن الحربية.

ج ـ وضوح الهدف والتخطيط السليم.

د ـ التعاون والتنسيق بين الأساطيل العربية في العمليات البحرية.

هـ ـ البراعة في الحرب البحرية وتوفر عدد كبير من القادة السياسيين البارعين والقادة العسكريين البحريين (أمراء البحر) من ذوي الخبرة والكفاءة العالية في القتال البحري وفن الحرب البحرية.

و ـ الشجاعة والصبر لدى المقاتلين البحارة.

ز ـ التوجيه المعنوي والسياسي والديني والتشجيع المادي.

ح ـ التنظيم الجيد للأساطيل البحرية والذي فاق تنظيم الأساطيل البيزنطية.

ط ـ الاستفادة من القواعد البحرية البيزنطية القديمة وإنشاء قواعد بحرية جديدة تلبى متطلبات الإنتشار العملياتي للأساطيل وتأمينها القتالي والمادي والفني.

ى ـ الاستفادة من الخبرات الأجنبية في بناء السفن.

ك ـ الكفاءة العالية في التأمين المادي والفني (الإمداد والتموين) في السلم والحرب والمستوى العالي لتنظيم الإقتصاد الحربي.

ل ـ القدرة الحركية العالية التي تؤمن القوات اللازمة في مسارح العمليات إلى المواقع المناسبة في الأوقات المناسبة.

م ـ التطور الإجتماعي والسياسي والإقتصادي والصناعي والعسكري للدول العربية الإسلامية.

ن ـ نجاحهم في استخدام أساليب القتال وأسلحة القتال البري في القتال البحري ومن ثم تكون خبرات بحرية وأسلحة قتال بحرية عربية بما في ذلك النار البحرية.

ملحق

المعارك والغزوات والفتوحات البحرية الشهيرة في التاريخ العربي الإسلامي

- ٢٠ هـ عبور علقمة بن مجزر المدلجي في حملته البحرية إلى الحبشة وغرق سفنه في البحر.
- ٢٨ هـ توجه معاوية بحملة بحرية لغزو جزيرة قبرص.
- ٢٩ هـ هجوم الأسطول العربي على جزيرة ارواد.
- ٣٢ هـ (٦٥٢م) قام الأسطول العربي بأول هجوم على جزيرة صقلية.
- ٣٢ هـ غزا معاوية مضيق القسطنطينية.
- ٣٣ هـ(٦٥٤ م)سار الأسطول العربي من موانيء الشام تحت قيادة جنادة بن أمية الأزدي لفتح رودوس وافتتحها.
- ٣٤ هـ / ٦٥٥ م انتصار الأساطيل العربية الإسلامية في موقعة ذات الصواري بقيادة عبد الله بن أبي سرح.
- ٣٦ هـ غزوة صقلية أثناء قيام معاوية بن حديج بغزو افريقيا في خلافة معاوية بن سفيان.
- ٤٩ هـ / ٦٦٨ م أرسل معاوية حملة استطلاعية بحرية وبرية إلى القسطنطينية بقيادة يزيد بن معاوية.
- ٦٦٩ م أغار الأسطول العربي على جزيرة صقلية.
- ٤٩ هـ غزو عقبة بن نافع لجزيرة صقلية بأهل مصر.
- ٥٠ هـ / ٦٧٠ م خرج عقبة بن نافع لغزو شمال أفريقيا واتبع الطريق الداخلي البري.
- ٦٧٢م سلطت البحرية العربية تسليطاً عنيفاً على بحر إيجه فهاجمت كريت واستولت على رودوس في نفس السنة.
- ٥٤ - ٦٠ هـ / ٦٧٤ - ٦٨٠ م قامت حملة برية بحرية بالحصار الأول للقسطنطينية
- (سمي حرب السنوات السبع) بقيادة عبد الرحمن بن خالد.

★ استخرجت وجمعت من المصادر العربية التاريخية المشهورة، وقد وضعت التواريخ كما وردت بالهجري أو بالميلادي دون أي تعديل.

ـ ٧٦ هـ / ٦٩٥م قام حسان بن النعمان بمهاجمة قرطاجنة أقوى قاعدة لأسطول الروم في مياه المغرب.

ـ ٨٩هـ / ٧٠٧ م أرسل موس بن نصير أسطوله لمطاردة الروم في قواعدهم في الجزر القريبة من الممتلكات العربية في شمال أفريقيا فهاجمت السفن المغربية جزر ميورقة ومينورقة بالقرب من سواحل إسبانيا (جزر البليار).

ـ ٩١ هـ بعث موسى بن نصير (زمن الوليد بن عبد الملك) مولاه طريف في أربع سفن إلى جزيرة بالأندلس سميتباسمهلنزوله فيها (تاريفا).

ـ ٩٢ هـ / ٧١١ م عبور طارق بن زياد إلى الأندلس (في شهر رجب) وردت في بعض المصادر ٩١ هـ.

ـ ٩٨ هـ (٧١٧م) أرسل الخليفة سليمان بن عبد الملك الأساطيل والجيوش العربية الإسلامية لاحتلال القسطنطينية وتم حصارها الثاني (بقيادة مسلمة بن عبد الملك).

ـ ١٠٨ هـ غزا معاوية بن هشام جزيرة قبرص.

ـ ١٠٩ هـ غزا بشر بن مروان جزيرة صقلية.

ـ ١١٦ هـ أرسل هشام بن عبد الله الحجاب جيشاً إلى جزيرة صقلية.

ـ ١١٧ هـ سار حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع بجيش إلى جزيرة سردانيا (سردينيا) ففتح فيها وعاد غانماً.

ـ ٧٢٦م أغار أسطول عربي على قبرص وفرض عليها جزية كبيرة.

ـ ١١٨ هـ / ٧٣٦ م تم الإستيلاء نهائياً على جزيرة قوصرة (بنطلارية)[٣] من قبل حملة بحرية أعدها الأمير عبد الرحمن بن حبيب الفهري.

ـ ١٢٢ هاجم حبيب بن أبي عبيدة صقلية.

ـ ١٣٠ هـ استولى المسلمون على جزيرة قوصرة الواقعة في منتصف المسافة بين صقلية وساحل افريقيا.

ـ ١٣٥ هـ في خلافة أبي العباس عبد الله السفاح غزا عبد الله بن حبيب جزيرة صقلية.

ـ ١٥٩ هـ وجه الخليفة المهدي عبد الملك بن شهاب المسمعي في البحر إلى بلاد الهند ومعه ٩٢٠٠ رجل فوصلوا مدينة (باربد) وغلبوا أهلها على أمرهم.

ـ ٢١٠هـ في خلافة المأمون بن هارون الرشيد كان أمير أفريقيا زيادة الله الأول بن

---

(١) وردت أيضاً بنتلاريه.

ابراهيم بن الأغلب فجهز جيشاً في أسطول مؤلف من مراكب كثيرة وسيره إلى سردانيا فقتلوا وغنموا.

ـ ٢١٢ هـ جهـز زيادة الأول جيشاً في البحر وسيرهم إلى جزيرة صقلية واستعمل عليهم أسد بن فرات شيخ الفتيان (قاضي القيروان) فملكوا كثيراً منها.

ـ ٢١٢ هـ هاجم الأندلسيون جزيرة إقريطش (كريت).

ـ ٨٢٣ م استطاع الأسطول الأندلسي دخول جزيرة كريت وتأسيس أول مستعمرة فيها.

ـ ٨٢٧ ـ ٨٢٨ م حمل أبـو حفص عمر شعيب البلوطي أتباعه من الأندلسيين في أربعين سفينة ونزل في خليج سودا في كريت ورحب به الأهالي.

ـ ٢١٦هـ/٨٣١م استولى الأسطول الأغلبي على بالرمو الإيطالية بعد حصار دام عاماً كاملاً.

ـ ٨٣٨ م قام العرب المسلمون في (بالرمو) عاصمة جزيرة صقلية بغزو ايطاليا الشرقية واحتلوا برنديزي.

ـ ٨٤٠ م احتل عرب صقلية تارانت (تورانتو) وهي قاعدة بحرية مهمة في بحر الأدرياتيك.

ـ ٢٢٤ هـ في خلافة المعتصم بن هارون الرشيد سير أبو عفان بن إبراهيم بن الأغلب سرية إلى صقلية فغنمت وسلمت.

ـ ٢٢٨ هـ في خلافة الواثق بالله وإمارة أبي العباس محمد بن الأغلب سار الفضل بن جعفر الهمداني في البحر فنزل مرسى مسيني (مسينا) وبث السرايا فغنموا غنائم كثيرة.

ـ ٢٢٩هـ / ٨٤٣م استيلاء الأسطول الأغلبي على ميناء مسينا.

ـ ٢٣١ هـ / ٨٤٦ م غزا العرب روما وضربوا عليها الحصار وعادوا (بعد قتال شديد) مثقلين بالغنائم والأسرى.

ـ ٢٣٤هـ استولى الأمير الأموي عبد الرحمن الأول على جزيرة ميورقة.

ـ ٢٥٥ هـ / ٨٧٠ م افتتحت مالطة في إمارة أبي الفرانيق محمد بن أحمد الأغلب (أساطيل الأغالبة) وتأكدت سيطرتهم على المضائق الواقعة بين صقلية وأفريقيا.

ـ ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م غزا العرب روما للمرة الثانية وقد نجحوا في ذلك.

ـ ٢٩٠ هـ تمكن عصام الخولاني من إعادة فتح جزر البليار في إمارة عبد الله بن موسى بن نصير.

ـ ٩٠٤م قامت حملة بحرية تتألف من أساطيل الشام ومصر وكريت بمهاجمة قاعدة الروم في سالونيكا (سالونيك) وحطمت قدراتها في دعم أساطيل الروم.

ـ ٢٩٦ هـ تمت سيطرة الأسطول الأغلبي على جزيرة صقلية.

ـ ٣٦٢ هـ نجح عبد الرحمن بن رماحس قائد البحر في افتتاح طنجة.

ـ ٣٨٣ هـ (٩٩٣)م وقعت في بحر الإسكندرية معركة بحرية بين الأسطول الفاطمي في مصر والأسطول البيزنطي انتهت بأسر سبعين من رجال البحر البيزنطيين ثم وردت سفن البيزنطيين إلى الإسكندرية فتصدى لها الأسطول الفاطمي في البحر وقوة عسكرية في البر فأجبروا السفن البيزنطية على الفرار فطاردتها السفن الفاطمية وأسرت منها ١٨ مركباً مشحونة بالسلاح.

ـ ٣٨٦ هـ أقلع الأسطول الفاطمي لغزو السواحل البيزنطية فغنموا وأسروا.

ـ ٣٨٩هـ حاصرت القوات البيزنطية مدينة طرابلس براً وبحراً فهاجمتها السفن المصرية ونشب قتال في البر والبحر سنة ٣٩٠ هـ / ٩٩٩ م وانتهى بهزيمة البيزنطيين.

ـ ١٠٠٤ م بدأ العرب المسلمون بغزو البحر التيراني فهاجموا مدينة بيزا واستولوا على مدينة كوسنزا.

ـ ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م تم افتتاح سردانيا (سردينيا) بقيادة ماجد العامري صاحب دانية والجزر الشرقية.

ـ ٤٩٧ هـ غارة الأسطول المصري على يافا بقيادة شرف المعالي بن الأفضل لدى حصارها من قبل الصليبيين وأمدها بالميرة والغلال.

ـ ٥٠١ هـ قام الأسطول المصري بنجدة صيدا عندما حاصرها الصليبيون براً وبحراً وظل يدافع عنها حتى وصل العسكر الدمشقي لحمايتها.

ـ ٥٠٩ هـ (١١١٥/ ١١١٦م) احتل المرابطون جزر البليار بدون قتال على عهد علي بن يوسف بن تاشفين.

ـ ٥٥٢ هـ (١١٥٧م) سير الصالح طلائع المراكب الحربية المصرية إلى بيروت فأوقعت بمراكب الفرنج.

ـ ٥٥٥ هـ (١١٦٠م) دخول عبد المؤمن بن علي المهدية فاتحاً وفي نفس العام بنى مدينة الفتح على سفح جبل طارق وأسرت منهم أعداداً كبيرة وغنمت غنائم كثيرة.

ـ ٥٧٥ هـ (١١٧٩م) قام الأسطول الأيوبي بثلاث عمليات بحرية ناجحة.

ـ غارة ٦٠ شينيا على سواحل الإمبراطورية البيزنطية والإمارات الصليبية بسواحل الشام.

ـ معركة بحرية مع سفن العدو وظفر بها فاستطاع الأسطول أن يقتحم الميناء ويحطم ما فيه من مراكب.

ـ ٥٨٥ هـ (١١٨٩)م استدعى السلطان صلاح الدين الأيوبي الأسطول المصري (أثناء حصار الصليبيين لمدينة عكا فقدمت خمسون قطعة بقيادة أمير البحر حسام بن لؤلؤالذي فاجأ مراكب العدو في مياه عكا وانتصر عليها، كما أمدّ حامية المدينة بما تحتاج إليه من طعام وسلاح.

ـ ٥٧٦ هـ (١١٨٠م) هاجم الأسطول المصري أرواد واستولى عليها ومن هناك صار يغير على مدينة أنطرطوس (طرطوس) المواجهة لها.

ـ ٥٧٨ هـ (١١٨٢م) قام الأسطول المصري بعدة غارات على مواقع العدو في البحر المتوسط منها غارة على مدينة بيروت وأخرى على جزيرتي كريت وقبرص وثالثة على السواحل الجنوبية لآسيا الصغرى.

ـ ٥٧٨هـ (١١٨٢م) موقعة الحوراء البحرية: أرسل الملك العادل الحاجب لؤلؤ فتولى الأسطول المصري محاربة الفرنج الذين حالوا الإغارة على بلاد العرب فنقلوا مراكبهم على ظهور الأبل إلى الأيلة (العقبة) وتوغلت سفنهم في البحر الأحمر. فنقل لؤلؤ مراكب مفككة من القاهرة وأتم تركيبها بالقلزم (السويس) وقاتلهم على ساحل الحوراء (كورة من كور مصر القبلية في أحد حدودها من جهة الحجاز على البحر شرق السويس) وانتصر لؤلؤ على أعدائه انتصاراً عظيماً.

ـ ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م هاجم الأسطول العربي الإسلامي جزيرة أرواد من إتجاه طرابلس وحررها.

ـ ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ حملة بطرس الأول لوزينان على الإسكندرية.

ـ ٨٢٧ هـ / ١٤٢٤ م حملة المماليك الأولى على جزيرة قبرص للإستكشاف والوقوف على معاونة ملك قبرص للقراصنة المعتدين على الشواطيء والسفن المصرية والشامية.

ـ ٨٢٨ هـ / ١٤٢٥م أكبر حملة للمماليك على جزيرة قبرص مؤلفة من أربعين قطعة بحرية ، ودارت معركة بحرية مع إحدى عشرة سفينة قبرصية أمام لارنكا ، انتهت بهزيمة القبارصة .

ـ ٨٢٩ هـ / ١٤٢٦ م حملة المماليك الثالثة على جزيرة قبرص حيث نزل المسلمون في ليماسول وتوغلوا نحو العاصمة نقوسيا وأعلن القائد العام الأمير تغري بردى المحمودي في قصر ملك قبرص بأن الجزيرة صارت من (جملة بلاد السلطان الملك الأشرف برسباي) وعادت الحملة إلى مصر ومعها ألوف الأسرى بينهم ملك قبرص جانوس .

ـ ٨٤٣ ـ ٨٤٧ هـ / ١٤٤٠ ـ ١٤٤٤ حملات المماليك على جزيرة رودوس .

المراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الحديث الشريف.

٣ ـ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) مقدمة ابن خلدون دار القلم ـ بيروت ١٩٨٤ وكتاب التحرر ١٩٦٦.

٤ ـ الأمير شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب. مصر ١٣٥٢ هـ .

٥ ـ جميل خانكي: تاريخ البحرية المصرية . مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٨ .

٦ ـ وفيق بركات: فن عمليات الأسطول البحري الحربي ـ ١٩٨٢ . وزارة الدفاع .

٧ ـ صباح أتاسي: تاريخ فن الحرب ـ ١٩٦٨ ـ وزارة الدفاع .

٨ ـ د. أحمد مختار العبادي ، د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام جامعة بيروت العربية ـ ١٩٧٢ .

٩ ـ البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) : فتوح البلدان . تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد (القاهرة ١٩٥٦).

١٠ ـ الدكتور السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس . بيروت ١٩٧٠ .

١١ ـ الدكتور ابراهيم أحمد العدوي : قوات البحرية العربية القاهرة ١٩٦٣ الأمويون والبيزنطيون القاهرة ١٩٥٣ .

١٢ ـ ألفرد لوكاس: المواد والصناعات عند قدماء المصريين. ترجمة الدكتور زكي اسكندر القاهرة ١٩٤٥ .

١٣ ـ فلهلم هونبرياخ : البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط في عهد معاوية تطوان ١٩٥٤ .

١٤ ـ العماد مصطفى طلاس : الرسول العربي وفن الحرب ـ وزارة الدفاع ١٩٧٢ .

١٥ ـ المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار بيروت ١٩٥٩ .

١٦ ـ ياسين الحموي : تاريخ الأسطول العربي دمشق ١٩٤٥ .

١٧ ـ د. أنور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب . عالم المعرفة ـ العدد /١٣/ .

١٨ ـ ابن الأثير : كتاب الكامل في التاريخ . طبعة بيروت ١٩٦٥ والقاهرة ١٣٥٧ هـ .

١٩ ـ المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين) مروج الذهب ، طبعة محي الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٥٨ .

٢٠ ـ د. علي محمود فهمي : التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط من القرن السابع حتى القرن العاشر الميلادي ـ ترجمة د. قاسم عبده قاسم. دار الوحدة ـ بيروت ١٩٨١ .

٢١ ـ أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم شهاب الدين الشافعي الدمشقي) تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية) تحقيق الدكتور محمد حلمي أحمد القاهرة ١٩٥٦ .

٢٢ ـ القلقشندي (أبو العباس أحمد) : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة ١٩١٣ .

٢٣ ـ فتحي عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ، بين الإحتكاك الحربي والإتصال الحضاري ، القاهرة ١٩٦٧ .

٢٤ ـ الكندي : كتاب الولاة وكتاب القضاة : تحقيق الأستاذ رفن جست بيروت ١٩٠٨ .

٢٥ ـ الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) . تاريخ الرسل والملوك . طبعة دار القاموس الحديث ـ بيروت .

٢٦ ـ ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الحكم القرشي المصري : فتوح مصر والمغرب والأندلس القاهرة /١٩٦١/ .

٢٧ ـ محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام . الطبعة الثالثة ـ مطبعة مصر ـ القاهرة ١٩٥٢

٢٨ ـ علي محمد فهمي : البحرية الإسلامية في شرق المتوسط من القرن ٧ ـ ١٠ ميلادي ، مطبوعات جامعة الإسكندرية ١٩٧٣ .

٢٩ ـ درويش النخيلي : السفن الإسلامية على حروف المعجم . مطبوعات جامعة الإسكندرية ١٩٧٤ .
٣٠ ـ الحسن بن عبد الله : أثار الأول في ترتيب الدول ـ القاهرة ١٣٠٥هـ .
٣١ ـ البحتري (أبو عبادة الوليد بن عبيد) ديوان البحتري .
٣٢ ـ الدكتور علي حسني خربوطلي : الإسلام في حوض المتوسط .
٣٣ ـ ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . الرباط ١٩٦٣ .
٣٤ ـ المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) السلوك لمعرفة دول الملوك . تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٥٦ .
٣٥ ـ د. عبد العزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي . الإسكندرية ١٩٦٧ .
ـ ٣٦ ـ ابن حمديس الصقلي . ديوان ابن حمديس . تصحيح وتقديم الدكتور إحسان عباس بيروت ١٩٦٠ .
٣٧ ـ ابن شداد (أبو المحاسن يوسف بن رافع الملقب : بهاء الدين والمكنى بأبي المحاسن) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية : تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال (والكتاب المستخرج منه الصادر عن وزارة الثقافة السورية) ـ القاهرة ١٩٦٤ .
٣٨ ـ د. عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر . القاهرة ١٩٥٣ .
٣٩ ـ ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد البلنسي) : رحلة ابن جبير ـ بيروت ١٩٤٩ .
٤٠ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرص والحروب الصليبية . القاهرة ١٩٦٣ .
٤١ ـ الإدريس أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس المعروف بالشريف الإدريسي نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ـ ترجمة جوبير .
٤٢ ـ محمد عزة دروزه : الجهاد في سبيل الله في القرآن والحديث . دار اليقظة العربية ١٩٧٥ ـ دمشق .
٤٣ ـ أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة ١٩٦٠ .
٤٤ ـ د. أحمد مختار العبادي ، د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس بيروت ١٩٧٠ .

٤٥ ـ ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله محمد الحلبي) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة تحقيق الدكتور سامي الدهان . دمشق ١٩٥٦ .

٤٦ ـ HiLL, A History of cyprus i (combridge)

٤٧ ـ Finaly, History of Greece (1977)

٤٨ ـ Bury, History of the later Roman Empire

٤٩ ـ R uneiman, Byzantine civilization (1933)

ـ ٥٠ الموسوعة العربية الميسرة ـ دار القلم بإشراف محمد شفيق غربال (دققت جميع التواريخ الواردة بهذا البحث استناداً إليها) ـ القاهرة ١٩٦٥ .

٥١ ـ وفيق بركات تاريخ فن الحرب البحرية لأساطيل الدول الرأسمالية في الحرب العالمية الثانية (مترجم عن الروسية) ١٩٧٩ .

٥٢ ـ جورجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي : القاهرة ١٩٠٢ ـ ١٩٠٦ (خمس أجزاء) .

٥٣ ـ د. عبد السلام عبد العزيز فهمي : فتح القسطنطينية ـ القاهرة ١٩٥٦ .

٥٤ ـ المنجد في اللغة والآداب والعلوم . المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ـ لويس معلوف ـ الطبعة / ١٩ / .

٥٥ ـ محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ دار الفكر ١٩٨١ .

٥٦ ـ د. سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية ـ وزارة الثقافة ـ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٧

٥٧ ـ د. سحر سالم : أضواء على مصحف عثمان بن عفان جامعة الإسكندرية ١٩٩١ .

٥٨ ـ د. سيد عبد الغزيز سالم: البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي في جامعة الإسكندرية ١٩٩٣ .

٥٩ ـ د. أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس الإسكندرية ١٩٦٨ .

محتويات الكتاب